

محمّد حسّين هيكل

المفاوضات السريّة
بين العرب وإسرائيل

الأسطورة والإمبراطوريّة والدولة اليهوديّة

الكتاب
الأوّل

مُحمَّد حَسَنِين هِيكَل

المفَاوِضَات السِّرِّيَّة
بَيْن العَرَب وَإِسْرَائِيل

١

دار الشروقة

الطبعة الأولى	٢٢ مارس ١٩٩٦
الطبعة الثانية	٢٦ مارس ١٩٩٦
الطبعة الثالثة	٢ إبريل ١٩٩٦
الطبعة الرابعة	١٠ إبريل ١٩٩٦
الطبعة الخامسة	١٠ مايو ١٩٩٦
الطبعة السادسة	١٠ نوفمبر ١٩٩٦
الطبعة السابعة	١٦ يناير ١٩٩٧
الطبعة الثامنة	٢٦ يناير ١٩٩٩
الطبعة التاسعة	٢٠ يناير ٢٠٠٠
الطبعة العاشرة	٢٠ نوفمبر ٢٠٠١

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

أسسها محمد المعتزم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيدي بيه المصري - رابعة العدوية ص.ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف : ٢٦٢٣٣٩٨ - ٢٦٢٣٥٤٨ فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مُحمّد حسّين هيكل

المفاوضات السّريّة
بين العرب وإسرائيل

١

الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية

□ لماذا لم يفاوض العرب ؟

□ كيف فاضوا ؟

محتويات الكتاب الأول

التاريخ يسافر إلى المستقبل

المقدمة	٧
مدخل	١٥

الفصل الأول : القوة والحق !

١ - "مقدسات : محرقات"	٢١
٢ - نابليون	٢٧
٣ - بريطانيا	٣٥
٤ - محمد علي	٤١
٥ - بالرستون	٤٧

الفصل الثاني : خريطة تبحث عن أرضها !

١ - روتشيلد	٥٥
٢ - دزرائيلي	٦١
٣ - هيرتزل	٦٧

الفصل الثالث : "الساحل" و"الداخل"

١ - ماكماهون	٧٩
٢ - عزيز المصري	٨٦
٣ - مارك سايكس	٩٢
٤ - الشريف حسين	١٠٠
٥ - لورانس	١٠٧
٦ - بلغور	١١٣
٧ - فيصل	١١٨
٨ - لويد جورج	١٢٥

الفصل الرابع : مصر تعود إلى الساحة

- ١ - الملك فؤاد
- ٢ - الملك فاروق
- ٣ - الحاحام حاييم ناحوم
- ٤ - فرانكلين روزفلت
- ٥ - مصطفى النحاس
- ٦ - إيلانور روزفلت
- ٧ - ترومان
- ٨ - بيفين

الفصل الخامس : من يملك القوة؟!

- ١ - بن جوريون
- ٢ - موسى شرتوك
- ٣ - النقراشي باشا
- ٤ - بن جوريون (٢)
- ٥ - برنادوت
- ٦ - آللون
- ٧ - ساسون

المقدمة

هذه الطبعة من هذا الكتاب عن "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" واجهت ظروفًا غير مألوفة ، أو على الأقل غير عادية ، وكان من نتيجة هذه الظروف أن الطبعة الإنجليزية الأصلية من هذا الكتاب صدرت في لندن يوم ٨ يناير ١٩٩٦ ، بينما تأخرت الطبعة العربية ، وكان المقرر لها أن تسبق ، وذلك تقليد حرصت عليه منذ أن سمح لكتبي أن تطبع وتصدر من القاهرة بعد قرابة عشر سنوات من المنع والحظر كنت فيها أمارس عملي من وطني دون وسيلة لنشره في هذا الوطن .

وطوال تلك السنوات من المنع والحظر كانت كتبي تطبع وتصدر من لندن ونيويورك ، ومن باريس وطوكيو ، ومن مدريد وروما ، وغيرها عبر القارات - وفي نفس الوقت كانت هناك طبعة عربية لهذه الكتب تخرج إلى طلابها من خارج القاهرة ، كذلك فإن ترجمة هذه الطبعة وتقديمها إلى القارئ العربي كان يقوم بهما غيري ، وكنت أقول لنفسى وللنائلين "إنه يصعب على أن أكتب الكتاب مرتين" ، مرة باللغة الإنجليزية للنشر الدول مرة باللغة العربية ، خصوصًا وقد وجدت أنني عندما أتعرض لترجمة أعمالى إلى العربية لا أكتفى بالترجمة وإنما تدفعنى اهتمامات القارئ العربى إلى الأبعد بالزيادة ، وإلى الأوسع بالتفصيل ، وذلك يجعل الكتاب الواحد بالفعل كتابين .

ولقد شجعنى على ترك مهمة الترجمة إلى العربية لغيرى ، أن مترجمين مقتدرين تفضلوا وأعطوا لأعمالى من جهدهم ما يكفيها وأكثر ، وعلى سبيل المثال فقد قام الأستاذ محمد حتى ، زميلى فى "الأهرام" وقتها ، على ترجمة كتاب "وثائق القاهرة" ، كما قام الصحفى اللبناني الكفاء الأستاذ سمير عطا الله على ترجمة كتاب "الطريق إلى رمضان" ، ثم قام الصديق العالم الدكتور عبدالوهاب المسيرى على ترجمة كتاب "مدافع آية الله" ... وهكذا. وكانت تلك أفضلًا ومكرمات سعدت بها وعرفت لها قدرها . وظل الأمر على هذا النحو حتى جاء كتاب "خريف الغضب" ، ونظرا لحساسية موضوعه فقد أثرت ترجمته لنفسى وبنفسى إلى اللغة العربية ، ولم يخطر ببالي أننى بذلك أرسيت سابقة لم أعد أستطيع التخلّى عنها أمام القارئ العربى . وأغراني على ذلك أكثر أن كتبي رفع عنها المنع والحظر فى مصر وأصبحت مطبوعة منشورة فيها بداية من سنة ١٩٨٥ .

ومنذ ذلك الوقت صدرت لي كتب عديدة كان كل واحد منها في واقع الأمر كتابين :
طبعة إنجليزية هي الأصل لكل الترجمات ، وطبعة عربية أقوم عليها بنفسى ، ويتسع
مجالاتها وتزيد تفاصيلها ، وتلتحق بها وثائقها ، حتى يكاد الكتاب العربى أن يصبح بالفعل
شيئا مختلفا عن الأصل الإنجليزي ، وإن بقى الجوهر والسياق والاتجاه واحدا في الحالتين .



وفي هذا الكتاب عن "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" تصرفت كما جرت عليه
العادة منذ سنة ١٩٨٥ وحتى الآن .

تقدم "الأهرام" مبادرا بطلب الحقوق العربية كلها ، سواء للنشر الصحفى أو على شكل
كتاب . وتحمست حتى من قبل أن تجيء موافقة دار "هاربر كولينز" التى تملك التصرف فى
أى تعاقد . وكنت واثقا على أى حال أنهم يعرفون من تجارب سلفت أنه حين يكون الأمر
متعلقا بـ "الأهرام" فإن الموافقة تسبق التفاصيل بصرف النظر عما تقول به أصول صياغة
العقود .

واستعدت الطبعة الإنجليزية من الكتاب للصدور من دار "هاربر كولينز" ، ومعها الطبعة
اليابانية فى نفس الوقت ، لكن الطبعة العربية التى ترجمت نصوصها بنفسى وتوسعت فيها
وزدت عليها وألحقت بها وثائقها - واجهت ما أشرت إليه من ظروف غير مألوفة ، أو على
الأقل غير عادية ، وحاولت تقدير الدواعى وأظننى فعلت مستجيبا لمشاعر وولاءات تعلق فوق
الحقوق والعقود ، وحافظا لصلوات وصدقات تسبق فى حسابى أى حساب .

وقد أضيف إلى ذلك أننى لم أطلب تفسيراً ولا تفصيلاً ، وبدا لى أن الطلب قد يحمل
شبهة إلحاح لا احتاجه أو شبهة ضغط لا أبتغيه .



ولعدة أيام كان أمامى عرض لإصدار هذه الطبعة العربية من بيروت . وعاودتنى ذكريات
أزمة المنع والحظر ، وأظن أن ذلك جعلنى أتردد .

إن بيروت كانت وما زالت كريمة مع ما أكتب ، حفية به وحانية عليه ، وهى تظل فى
كل الأوقات مركز إشعاع عربى يسائر مركز القاهرة ويضاهيه . لكن الأمر هذه المرة تخالطه
اعتبارات نفسية من نوع آخر .

لم تكن اعتباراتي النفسية تتعلق بببيروت ، من حيث هي بيروت ، وإنما كانت تتعلق بإحساس يخشى مظنة قبول طوعى بما يمكن أن يتبدى ولو بالرمز أو بالشكل درجة من درجات المنع والحظر على عمل يكتب فى القاهرة ثم يصدر وينشر خارجها كما حدث من قبل .

ولعل من هذه النقطة بالذات ، أننى رحبت وسعدت بعرض من "دار الشروق" لطبع الكتاب ونشره فى مصر ، ومنها إلى بقية الوطن العربى ، الذى لا أفرق فيه بين بلد وآخر عن إيمان عميق بأمة واحدة لها كل خصائص الأمة الواحدة ، بما فيها ذلك التنوع الخلاق الذى يميز الأمم العظيمة .

ويتداعى إلى فكرى - دون ضرورة لرسم مسار التداعى هنا - سؤال كثيرا ما يواجهنى به أصدقاء فى الفكرة والكلمة ، يسألوننى : "لماذا لا أكتب بانتظام فى الشؤون الجارية؟" وفى العادة فإن ردى يقتصر على عبارة عامة مرسله لأن واقع المشكلة التى تواجهنى فى الكتابة بانتظام عن الشؤون الجارية فى مصر معقد بأكثر مما يظهر على السطح . ذلك أن الصحف التى تصدر فى مصر الآن نوعان : نوع يسمى بالصحف القومية ، ونوع يعرف كصحف حزبية .

وأشعر على نحو ما أن كتابتى بانتظام - أو بغير انتظام - فى الصحف القومية قد تكون مسئولية ومخاطرة بالنسبة للقائمين على أمورها ، وذلك ليس من مطالبى . ثم إن الكتابة بانتظام فى الصحف الحزبية تبدو لى استعارة لهوية ليست لى ، وذلك ليس من حقوقى .

وفوق ذلك - وربما قبله - فإنه يخطر لى أننى كتبت كثيرا وما زلت أكتب أحيانا - وتكلمت طويلا وما زلت أتكلم مرات - وقد يكون مناسبا أن أترك المجال لآخرين وأن أقرأ مع القارئ وأن أصغى مع السامعين . ولعله يرضينى أن يسأل أحد : "لماذا لا يكتب هذا الرجل بانتظام؟" خير من أن يسأل أحد : "لماذا يكتب هذا الرجل بانتظام؟"!

أكرر ذلك برضى كامل ، ومودة خالصة مع الزمن وناسه ، فلقد قلت كلمتى فى كل العصور والظروف ، وفى كل الأحوال فإن العالم مفتوح أمامى وسماواته فسحة ورحبة .



أنتقل من هذه المقدمة التوضيحية إلى هذا الكتاب نفسه : "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" ، فأقول إن موضوعه كما هو باد من أول نظرة ومن مجرد العنوان صعب وعسير ، لكن قصته يجب أن تروى وأن تقع روايتها الآن وعند هذا المنعطف من التاريخ العربى ،

وخشيتى أن عواصف الحرب والسلام أخذت الأمة من خناقها وسحبتهما إلى بعيد بحيث اختلطت الحقائق بالأوهام والوقائع بالخيال ، وضاع المعنى أو لعله انتحر كما ذكرت مرة! وعلى نحو ما فقد قدرت أنه ربما كان مفيدا ، وقبل أن تتحرك القوافل على الدروب ، أن تطل الأمة على مشهد كامل للمواقع التى تقف قرب تخومه اليوم وتتبين كيف وصلت بها الحوادث إلى هذه التخوم ، ذلك أنه من الضروري للأمم أن تعرف عند كل موضع من مواضع تاريخها كيف وصلت إليه ، ولا بأس بعدها من أن تواصل سيرها على الدروب طالما أنها تعرف من أين هى قادمة وإلى أين هى قاصدة ؟

ولعل هذا الكتاب فى تركيبته العامة أن يكون نوعا مما يسميه العسكريون بـ : "تختة الرمل" ، وهى نموذج مجسم (ماكيت) بالكتل والفراغات لميادين الصراع التى يخوضونها بحيث تظهر أمامهم - وإن بحجم مصغر - تضاريس أرض الواقع الذى تجرى حركتهم عليه ، ومن ثم يتعرفون بوسائل النظر والقياس واللمس على كل المجالات المتاحة على الساحة ، ومن أين المداخل والمخارج ، ومن أين التقدم والالتفاف ، أو التراجع والانسحاب إذا طرأ ما يدعو إليهما .

إن الفصول الأولى من الكتاب هى بالفعل أشسبه ما تكون بـ "تختة الرمل" - نموذج مجسم (ماكيت) للميادين التى جرت عليها "قصة المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" . ثم إن نفس هذه الفصول الأولى تتعرض أيضا لنقطة هامة ، إذ تجيب على سؤال كامن فى عنوان الكتاب ذاته ، وهو : "لماذا كان مطلوبا أن تجرى أية اتصالات أو مفاوضات بين العرب وإسرائيل من وراء حجب وأستار؟"

ومن الإجابة على هذا السؤال عن حتمية السرية وضرورتها ، يصبح ممكنا أن تبدأ وتتصل وتتداعى فصول القصة من أولها ، إلى العقد المستحكمة فيها ، إلى النهايات المقدرة لها ، فى سياق متصل يحاول أن يصل إلى الحقيقة أو يقاربهها - مدركا أن هذه الحقيقة ملك الناس لأنها وسيلتهم إلى المعرفة ، على أساس أن المعرفة هى أهم عناصر الإرادة التاريخية لدى الشعوب والأمم .



انتقل إلى نقطة تالية لأقول إن "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل" قصة واحدة ، لكنها قصة طويلة ، والأبطال - إذا صدق وصف البطولة - كثر .

والواقع أن الظروف والأجواء التي أحاطت بالقصة ، امتدت عبر سنوات طويلة تعاقبت عليها قوى ودول ، وأحيانا قبائل وأسر حاكمة أو مطالبه بعروش .

فى وقت من الأوقات كانت المفاوضات السرية بين بريطانيا وبين الحركة الصهيونية . وفى وقت آخر كان التفاوض بين الإمبراطورية العثمانية وبين الحركة الصهيونية . وفى وقت تال كانت المفاوضات بين الهاشميين وبين الحركة الصهيونية . ثم اتسعت الدائرة فدخلت فيها مصر مع المرحلة الأخيرة من العصر الملكي .

ثم جاء وقت وقعت فيه المسئولية - أو معظمها - على مصر ، وكان ذلك بالدرجة الأولى فى أعقاب ثورة ١٩٥٢ . وكانت هذه المرحلة المصرية حقتين ، حقبة قادها "جمال عبدالناصر" ، وأثناءها جرت محاولات لكن الاتصالات والمفاوضات السرية استحاللت لأن مصر فى ذلك الوقت كان لها دورها فى قيادة حركة قومية عامة شملت قضية فلسطين ، وغيرها من قضايا العمل القومى العام . وفى هذه الحقبة لم يكن فى استطاعة مصر أن تتصل أو تتفاوض لأسباب كثيرة أولها موقف مبدئى يرى التناقض التاريخى بين المطالب المتصارعة ويحاول جاهدا أن يلائم حركة موازين القوة لصالحه ، رغم المحاذير والمخاطر . وثانيها أن الحركة القومية العامة فرضت أحلامها وطموحاتها ، وهى أحلام وطموحات كان من الصعب على مصر حيالها أن تقدم على شيء من وراء ظهر جماهير عريضة تعبر مصر عنها وتقودها من حيث هى تعبر عنها . وثالثها أن هذه الحركة القومية العامة دخلت فى نزاع مع القوى الإمبراطورية ، وكان هذا الصراع شاملا وعنيفا ، وكانت إسرائيل موجودة فى خطوط الجانب الإمبراطورى من النزاع وطرفا فى عملياته ، وبالتالي فإن الخطوط كانت قاطعة .

كان هناك التزام مبدئى ، وكان تأييد الجماهير الواسعة من المحيط إلى الخليج ضامنا إضافيا لهذا الالتزام .

ولقد تلت ذلك حقبة مصرية قادها الرئيس "أنور السادات" ، وقد تصرف ، ومعه آخرون ، بظن أو وهم أنه "سلام" ، و يظن أو وهم أنه "صالح القضية المركزية لكل العرب" ، و يظن أو وهم أن "زعامة مصر للعالم العربى" تعطيه الحق فى أن يتصرف . واعتقادى - وقد يكون لغيرى رأى مخالف - أن هذه الظنون والأوهام كانت هواه ، لكنها فى نفس الوقت كانت تحريضا وغواية من رفاق له خطر ببالهم أن الصراع العربى الإسرائيلى سبب سهرم وأرقهم ، وقد آن لهم أن يناموا مستريحين وأن يستيقظوا هائنين!

وفيما يظهر من فصول القصة فليس مؤكدا أن ما جاء فى النهاية "سلام" . كذلك ليس مؤكدا أن القضية المركزية لكل العرب استفادت كثيرا من كل ما جرى ، بل إن ما تنازلت إليه القضية المركزية لكل العرب يمد تأثيره الآن إلى صميم الروابط التى يمكن أن تشكل جامعا لإرادة الأمة إزاء قضاياها ، بل إزاء مصائرهما!

وكذلك فليس مؤكداً أن مصر فيما تصرفته فيه أدت دورها العربي بما يحفز مقاومتها .
والحاصل - في هذا الشأن - أنه عندما تكون سياسة مصر أن تقود العالم العربي إلى صلح كيفما
كان وكيفما اتفق مع إسرائيل - فإن سطوة الولايات المتحدة تستطيع أن تسوق الدول العربية
إلى هذه السياسة بطريقة أسرع وأكثر لا تحتاج إلى مصر دوراً أو زعامة !

وعندما مشت مصر على طريق الاتصالات والمفاوضات السرية مع إسرائيل ، وتوصلت إلى
ما توصلت إليه ، فإن العالم العربي الذي انفك جامعه ، لم يترك للفلسطينيين خياراً غير أن
يجربوا بأنفسهم وفي أسوأ الظروف . وجربوا فعلاً ووصلوا إلى أوصلو وتوابعها في القاهرة
وواشنطن مروراً بهزات وقعت لهم على مساحات شاسعة في المنطقة ما بين بيروت وتونس ،
وظهران والجزائر ، واستكهولم وجنيف ، وغيرها !



وفي قصة طويلة ومتواصلة من هذا النوع ، ومعقدة بالخفايا والخبايا على هذا النحو ،
وتدقيقها وتوثيقها مطلوبان وضروريان إلى هذه الدرجة - فإن قصة "المفاوضات السرية بين
العرب وإسرائيل" اتسعت بحيث يمكن أن تصبح حملاً ثقيلاً على اهتمام قارئها وعلى أعصابه
أيضاً . وكان الحل الوحيد لهذا الحمل الثقيل تقسيم الكتاب إلى أجزاء تصدر متوالية . ومن
حسن الحظ أن سياق القصة نفسه كان يوحي بثلاثة أجزاء منفصلة متصلة من القصة :

١ - جزء يبدأ من دواعي السرية ، ويتابع تداخل الأساطير مع الإمبراطورية ، واختلاط
الديانات مع السياسات ، وصراع المحرمات مع المقدسات ، وصدام الحقوق مع الأسلحة ،
بحيث تظهر مقدمات وأرضيات وخلفيات الساحة العامة التي جرت وتجرى عليها المفاوضات
السرية بين العرب وإسرائيل .

٢ - جزء يركز على الحقبة المصرية : عصر "جمال عبدالناصر" والمحاولات التي جرت
فيه لاختبار درجة حرارة المياه وقياس سرعة تياراتها - وعصر "أنور السادات" حيث جرت
تجربة القفز والسباحة مع التيار أو ضد التيار .

٣ - جزء يصل بالقصة إلى مرحلتها الفلسطينية التي توهجت فجأة مثل شهاب ظهر
بسرعة وسط ضباب الشمال في "أوصلو" ، ثم انفجر وراحت شظاياه وما زالت حتى الآن
تتدحرج على ساحة عربية وإقليمية ودولية جياشة بالعنف والفوضى .

وتقسيم كتاب واحد إلى أجزاء متعددة ليس جديداً على المكتبة العربية ، خصوصاً حينما
تدعو إليه وتفرضه حقائق عملية . فالطبعة الإنجليزية من "المفاوضات السرية بين العرب
وإسرائيل" صدرت في ٥٧٢ صفحة ، ولكن الطبعة العربية تصل بالكتاب في مجمله إلى أكثر

من ١٢٠٠ صفحة تضاف إليها مجموعة الوثائق التي أريد أن أضعها تحت نظر القارئ العربي، بينما الطبعة الإنجليزية - وغيرها من الطباعات الأجنبية - لا تحتاجها .
 هكذا قُرر قرارنا على ثلاثة أجزاء متتالية يصدر أولها هذا الربيع من سنة ١٩٩٦ ، ويصدر آخرها قبل الخريف من نفس السنة .
 وكل رجائي أن يتسع صدر القارئين وصبرهم لهذا الترتيب الذي لم يكن منه بد .



بقي أن أتقدم بالشكر والعرفان لكثيرين لهم عندي ما أشكرهم عليه ، وأعترف بفضلهم فيه ، وبينهم كثيرون من الساسة وصناع القرار في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، لم يبخلوا بوقت طلبته منهم ، وأخص بالذكر واحدا منهم كان بوذى أن أهديه النسخة الأولى من الطبعة الفرنسية للكتاب حين تظهر ، لكنه لسوء الحظ أراد أن يغادر دنيانا مسرعا في مشهد مأساوي يجمع بين نقيضين : إرادة الحياة وإرادة الموت - قبل صدورها ، وأعنى به الرئيس الفرنسي الراحل "فرانسوا ميتران" . وكان "ميتران" قبل رحيله قد أهداني آخر جزء أتمه من مذكراته كتابا بخط يده على الصفحة الأولى بعد الغلاف كلمات رقيقة ودافئة^(٥) . وكان منأى أن أبادلها كتابا بكتاب - كما حدث مرات من قبل - لكن المقادير حكمت فوق كل الأمانى وسبقت .

كان هناك أيضا كثيرون من الرؤساء والساسة العرب والمصريين وصل كرمهم معي إلى منتهاه ، ذلك أن بعضهم لم يكتف بأني يفسح لي من وقته ، وإنما أضاف إلى ذلك أن أتاح لي أوراقه الرسمية والخاصة دون قيد غير ما أرتضيه باقتناعي مراعاة للظروف .
 هناك أيضا تقدير ضروري أريد إضافته وهو موجه إلى قسم المعلومات بمؤسسة الأهرام : رئيسه الأستاذ أبو السعود إبراهيم وكل مساعديه بغير استثناء . فعندما كنت أريد مراجعة مناسبة أو تاريخ أو اسم كانت استجابة الجميع رجوع صدى لا يتلأأ ولا يتأخر .

Pen Mohamed Heykal
 en arabe
 ce livre m'a beaucoup aidé
 dans ma recherche
 Tenir
 M. Heykal

(٥) كتب الرئيس "فرانسوا ميتران" إهداء بخط يده وتوقيعه على آخر جزء صدر من مذكراته قال فيه ما ترجمته الحرفية :
 " إلى محمد هيكل تعبيراً عن الصداقة والاحترام أقدم لك هذا الكتاب آملاً أن تجد فيه مجالات لقاءات مشتركة بيننا
 فرانسوا ميتران "

هناك كذلك شكر من نوع خاص أوجهه إلى أصدقاء وزملاء فى واشنطن أتاحوا لى مرة أخرى فرصة استخدام قانون حرية المعلومات فى الولايات المتحدة . وفى هذه المرة فقد أمكن الحصول على وثائق كثيرة عربية وإسرائيلية ، فضلا عن الوثائق الأمريكية ، وكان بعضها من وثائق وكالة المخابرات المركزية . والذين يعرفون درجة السرية التى تتعامل بها الوكالة مع وثائقها يدركون أى حجم من الجهد كان لازما للوصول إلى المخابئ والمكامن .

يبقى أن أعبّر أخيرا عن امتنانى وإعجابى بكل هؤلاء الذين أعطوا جهدهم بإخلاص لنشر الكتاب بسرعة وكفاءة ، صادرا عن القاهرة ، وذلك بالنسبة لى مطلب غال وعزيز مع ثقفتى وإيمانى واعتزازى بكل مركز من مراكز الفكر والتنوير على الساحة الواسعة لهذه الأمة الواحدة...

محمد حسنين هيكل

مدخل

هذا الكتاب محاولة واسعة للرد على سؤال من بين الأسئلة التي أحاطت بالصراع العربي - الإسرائيلي من بداياته ، ورافقه في مختلف مراحل تطوره ، وتداعمت منه ، ولا تزال .

والسؤال الذى يتعرض هذا الكتاب لمحاولة الرد عليه هو :

لماذا كانت الحرب قريبة ؟ وظل السلام بعيدا طوال قرن من الزمان ؟ .. ولماذا جاء السلام - إذا كان ما جاء سلاما - فى هذه الظروف ؟ وبهذا الشكل ؟ وبهذه الوسائل ؟ .. ولماذا كان يجب أن تكون المحاولات من أجل السلام فى الخفاء ، وتحت ساتر الظلام ، فى حين أن السلام بالطبيعة أمل يتمناه الناس ، والأمل بالطبيعة نور وضياء .

هذا هو السؤال . وأما الإجابة عليه فهى محاولة مقدمة باحترام وحب واعتزاز ، إلى أجيال جديدة من شباب هذه الأمة العربية ، وبالذات فى مصر . وهى مرفقة فى النهاية بكلمة اعتذار إليهم جميعا ، ذلك أن الكثير مما تحويه هذه الصفحات ، يصعب تقديمه إليهم باستعارة عبارة "ونستون تشرشل" المأثورة : "لقد كانت تلك أروع لحظات عمرنا"!

لكن الأمل غالب على اليأس ، وهذه منة الخالق على خلقه حينما أعطاهم نعمة الحياة بما فيها الإرادة ، ونعمة العقل بما فيه الذاكرة!

محمد حسنين هيكل

”التاريخ يسافر إلى المستقبل“

”يا أخت أندلس عليك سلام
هوت الخلافة عنك والإسلام“
(أحمد شوقي)

هذه محاولة لقراءة التاريخ وليس لكتابته. وهي رحلة سريعة مع روايات ووقائع وأحداث ورجال فترة تزيد على قرن من الزمان ، ثم هي نظرة بعرض الأفق تعلمت واستفادت من مصادر ومراجع وسجلات لها فضل سبق . ومن الحق التنبيه إلى أن رحلة التاريخ، مثل أي رحلة غيرها ، تبدأ من موقف معين وتمشى منه نحو تصور مفترض يصح أو يخالف . وتلك هي طبيعة أي مغامرة في طلب المعرفة . (وربما نلاحظ أن هذه المحاولة لقراءة التاريخ متصلة بصميم موضوع هذا الكتاب ، وهو الاتصالات بين العرب واليهود ، من قبل إنشاء الدولة ، وأثناء الإعداد لإنشائها ، وبعده بتقليل. ففي هذه الأوقات أصبحت الاتصالات جزءاً من نسيج التاريخ وتلك طبائع الأمور.)

الفصل الأول

القوة والحق !

الاهتمام بالسياسة فكرا أو عملا يقتضى قراءة التاريخ أولا - لأن الذين لا يعرفون ما حدث قبل أن يولدوا ، محكوم عليهم أن يظلوا أطفالا طول عمرهم !

”مقدسات : محرمات“

” سؤال :

هل كان قرنا عربيا كاملا من الجنون أو الوهم
أو أحلام المغامرين ؟ ”

في حياة كل جماعة بشرية ، وعند أساس كل حضارة إنسانية ، تنشأ وتترسخ – بالطبيعة والمعايشة ومطالب الأمان النفسى والمادى – محرمات يمتنع الناس عن مقاربتها وينأون عن محظوراتها ، ويعتبرون العبث أو الإخلال بها مجلبة للعنة تحقيق بالمجترئين وتلحق بهم شؤما وعارا يصعب عليهم الخلاص منهما أو التكفير عنهما .

وهذه المحرمات المحظورات فى حياة الجماعات أو الحضارات ليست أشباحا مخلوقة من الوهم والخرافة ، وإنما هى فى الأصل تعبيرات عن ضرورات وحدود وأصول ، وقيم تنزع الفطرة السليمة إلى تأسيسها وتحسينها فى أعماق كل نفس ، وتوفر لها نوعا من الحماية الذاتية تلامس حدود ”القداسة“ التى تفرض أحكامها بالروادع الداخلية حتى تلحق بها أسباب القوة أو أسباب القانون .

وحتى من قبل أن تنزل رسالات السماء فإن المجتمعات والحضارات صادفت وتعاملت مع ”مقدسات : محرمات“ ظهرت أصلا فى إطار العائلة وهى ما زالت فى حضان الكهف وظلمته ، ثم سررت فى ضمائر مجتمعات وحضارات نمت وازدهرت بال عمران وكانت عصمة له ، ومن ذلك مثلا تحريم الأم على ابنتها والابنت على أبيها والأخ على أخته ، ومن ذلك أيضا حرمة الدم ، وحرمة الحق ، وحرمة العهد ، وحرمة المكان ، وحرمة القريب والجار وحتى حرمة الوثن !

وفى واقع الأمر ، فإن هذه ”المقدسات : المحرمات“ كانت أول تقنين إنسانى سبق بالإحساس والضمير والاعتقاد ما أكدته فيما بعد شرائع السماء وولاية الدول وكتابة القوانين.

ولعل ذلك هو الذى أكسب هذه "المقدسات : المحرمات" ، سلطانها الغلاب حتى فيما ترجئ الشرائع أمره إلى يوم الحساب ، وحتى فيما لا تراه عيون الدول ولا تطوله مجالس القضاء !

إن اللغة العربية - لسوء الحظ - لم تنحت كلمة لوصف هذه "المقدسات : المحرمات" ، تتسع للدلالات التى تحملها كلمة "تابو" "Taboo" ، وربما أن لغات غير العربية لم تنجح هى الأخرى فى النحت ، ولهذا فإن الكلمة الإنجليزية - "تابو" - "Taboo" ذاعت وشاع استعمالها حتى أصبحت وصفا عالميا دالا ومقبولا فى عديد من لغات الأرض لوصف حالة إنسانية مركبة غائرة فى أعماق تجربة المجتمعات والحضارات ، وفاعلة مؤثرة فى وجدان البشر وضمايرهم ، مستقرة فى لا وعيهم ، حاكمة ذات الوقت على فعلهم الواعى وعلى توجهاتهم .

وبالطبع فإن حركة التقدم واتساع المعرفة تملكان أن تبيحا يوما ما كان ممن قبل محرما ، كما أنهما تستطيعان نزع القداسة عما كان مسيطرا بغير مساءلة فى زمن من الأزمان . وقد حدث بالفعل أن العقل أبطل الخرافة ، والحكمة أزاحت الكهانة ، كما أن رسالة التوحيد نزعت ألوهية الصنم ، لكن ذلك احتاج إلى فكر متوهج و إلى تنزيل علوى ، وأكثر من ذلك احتاج إلى صراع حافل وهائل حتى ظهر الحق وأتبع الناس طريقه على بينة ونور .



ولقاربة قرن من الزمان ، من الثلث الأول للقرن التاسع عشر وحتى الثلث الأخير من القرن العشرين ، كانت الأمة العربية تواجه الصهيونية - وحلم دولتها فى فلسطين - على ساحة شائكة محفوفة فى كثير من جوانبها بنوع من ذلك الإدراك الذى تختلط فيه "المقدسات : المحرمات" صانعة المنوع أو المحظور الذى يسمونه : "Taboo" . وقد وصلت المواجهة إلى موقف رفض "للآخر" تجاوز حدود المعقول فى بعض الأحيان .

ولم يكن ذلك الرفض ناشئا عن عرض جنون ، أو وسواس وهم ، أو جنوح فئات أو أفراد خطر بأحلامهم أن يبنوا لأنفسهم مجدا باستغلال غرائز أو مخاوف جماهير طفسى عليها الإحباط ، فاندفعت تبحث عن عدو تحاربه وتنفض فى وجهه لهيب المحبوس والكميوت فى صدرها !

فالأمة العربية - على تعدد شعوبها - كانت سواء فيما اتخذت من مواقف ، ومن الصعب تصور أمة بأسرها يطيح بها الجنون .

كذلك يصعب تصور أمة بأسرها تستسلم لوسواس الوهم مائة عام .

ثم إن موقف الرفض لم يكن وحى أو هوى جماعة أو فرد في عمر من الزمن معين ، أو رقعة من المكان محصورة . فالأسر المالكة الثلاث في العالم العربي : أسرة محمد على فى مصر ، والهاشميين خصوصا فى بغداد ، والسعوديين فى الرياض ، وجدوا أنفسهم - على الرغم منهم أحيانا - فى موقف الرفض ، وكذلك فعلت كل القوى والأحزاب التى تولت الحكم - أو تولت المعارضة - فى مرحلة طلب الاستقلال وبعده ، فى سوريا ومصر والعراق ولبنان والسودان والمغرب والجزائر وتونس ، إلى جانب سلطات إمارات ومشيخات فى شبه الجزيرة العربية ، والخليج . وفى هذا "الموقف" ، كانت الشعوب أسبق من ملوكها وسلطينها ومشايخها وقادتها السياسيين . ثم إن الأقليات العرقية والدينية والطائفية فى العالم العربى كانت تزاحم الأغلبية وتسابقها إلى نفس "الموقف" .

وفى رفقة هذا الحشد الضخم : فى قصور الملوك والسلاطين والشيوخ ، وفى ساحات السياسة والسلطة والحكم ، وفى المدن والأرياف والصحارى ، كانت ملكات الأمة الفكرية والأدبية والفنية حرفا وقصيда ، مشهدا ونغما ، لونا وظلا - كلها وبغير استثناء - معبرة بحرية وإبداع عن هذا "الموقف" .

وعندما تغيرت الظروف وتبدلت الأحوال فى الخمسينات ، وبرزت طلائع الثورة القومية فى مصر واكتسحت موجاتها منطقة ما بين المحيط إلى الخليج ، فإن أشياء كثيرة انجرفت أو ازححت إلا ذلك "الموقف" من الصهيونية وإسرائيل ، بل لعل "الموقف" زاد صلابة وقوة إلى درجة أنه امتزج عضويا بأمال التحرر والوحدة والتنمية الشاملة .

ولم يكن ذلك فى عهود التقليد - أو عهود التجديد - جنوحا إلى الحرب ، وإنما كان بالدرجة الأولى طلبا للسلام .

وكانت هناك أغلبية فى العالم - شعوبه ودوله - فى آسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية ، وحتى فى أوروبا وأمريكا الشمالية ، تتفهم وتؤيد "موقف" العرب فى رفض أمر واقع يراد فرضه عليهم ، وتتفهم وتؤيد أيضا مطلبهم فى سلام عادل ، وانعكس ذلك بوضوح على قرارات للمجتمع الدولى ممثلا فى الأمم المتحدة ، وممثلا فى حركة عدم الانحياز ، وممثلا فى منظمة الوحدة الأفريقية . وقد صدرت هذه القرارات - واحدا بعد الآخر - بانتظام تستحيل نسبته إلى المجاملات ، وأكثر من ذلك فإن قوى كبيرة وقتها لم تتفهم وتؤيد فقط ، وإنما أتبعبت القول بالفعل فانحازت عمليا إلى "الموقف" ، وقاطعت "الأخر" ولم تتعامل معه ، وأدانت تصرفاته كثيرا وناوشته بالسلح أحيانا مددا "للموقف" ودعمه .

ولم يكن ذلك بدوره عرض جنون أو وسواس وهم أو جنوح مغامرة ، وإنما كان استجابة "المقدسات : محرقات" لها أسباب ودواع حقيقية: تاريخية وإنسانية ، كامنة وظاهرة محسوسة وملموسة ، مؤثرة على عصرها وعالمها كما هي مؤثرة على أهلها وأصحابها .



إن مراجعة سريعة وجزئية لحجم وقيمة التكاليف التى اقتضتها "المقدسات : المحرقات" ، تقطع بأن الأمة كانت مقدرة لما تفعله عارفة بمسئوليياته ، وإلا فلم يكن هناك مبرر لهذه التضحيات المتواصلة على امتداد أزمنة حرجة وخطرة شهدت قيام حربين عالميتين: الأولى والثانية . وشهدت ارتفاع وهبوط ثلاث إمبراطوريات : البريطانية والفرنسية والسوفيتية . وشهدت ظهور وتراجع أربع ظواهر مرهقة هي : الاستعمار ، والتمييز العنصرى ، والقلاشية ، والشيوعية .

وكانت أزمنة الحرج والخطر - فى نفس الوقت - أزمنة فتوح ووعود كبرى ، تلاحقت فيها خمسة عصور هي : عصر الكهرباء ، وعصر الطاقة النووية ، وعصر الإلكترونيات ، وعصر الفضاء ، وعصر ثورة المعلومات .

ولم تكن الأزمنة الحرجة والخطرة غائبة عن بال الأمة وهى تتخذ لنفسها "موقفها" ، ولا كانت غائبة عنها فتوح ووعود العصور الراكضة إلى قلب المستقبل . والذى حدث هو أن الأمة حملت الخطر والوعد كليهما ، وحاولت بكل جهدها أن تتوقى ، وفى نفس الوقت تتحرك ، وإنما فى إطار الحرص على "المقدسات : المحرقات" ، آملة فى الحالتين أن يجيء الخطر وأن تجيء الفتوح والوعود بمعادلات مختلفة . وكان تقدير الأمة فى مجمله متوازنا قدر ما سمحت به الظروف . فهى لم تبدأ بقتال ، وإنما آثرت أن يكون التزامها فاهما ومفهوما إزاء "المقدسات : المحرقات" . تمتنع عن الأولى وتتمسك بالثانية .

ولم تبدأ الأمة بالقتال سنة ١٩٤٨ ، وإنما تقدمت جيوشها بما لا يتعدى خطوط التقسيم الذى طلبته الأمم المتحدة لفلسطين سنة ١٩٤٧ .

ولم تبدأ بالقتال سنة ١٩٥٦ . ولم تبدأ بالقتال سنة ١٩٦٧ . وإنما كانت حربها دفاعية فى المرتين ، ونجحت مرة ، ولم تنجح مرة أخرى .

ولأنها لم تنجح سنة ١٩٦٧ ، فقد أصبح فرضا عليها أن تأخذ المبادرة وتقدم على القتال بمشروعية حق الدفاع عن النفس ، وقد فعلت ذلك فى حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٠ ، ثم تصاعدت بممارسة حق الدفاع عن النفس حتى بلغت به ذروته فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

وخلال تلك المواجهات التي تمسكت فيها الأمة "بالمقدسات : المحرمات" ، و التزمت فيها حدود الدفاع عن النفس كان حجم التكاليف وحساباتها قاطعا فى نفيه للجنون والوهم والمغامرة ، ويمكن الاكتفاء هنا بثلاث جبهات تتوافر الحقائق الكافية عن حجم تضحياتها :

● ما بين بداية المقاومة على أرض فلسطين ذاتها ، وهى البؤرة الساخنة للمواجهة ، وحتى سنة ١٩٩٣ ، قدم الشعب الفلسطينى :

٢٦١ر٠٠٠ شهيد

١٨٦ر٠٠٠ جريح

١٦١ر٠٠٠ معوق

كما أن قرابة مليونين من الفلسطينيين اضطروا إلى الخروج من وطنهم وتحولوا بعائلاتهم إلى لاجئين . وهؤلاء الذين خرجوا - وهم مليونان - أصبحوا الآن أكثر من خمسة ملايين ، وبالضبط خمسة ملايين وأربعمائة ألف نسمة .

● وما بين سنة ١٩٤٨ وحتى سنة ١٩٩٣ كانت التكاليف فادحة على أصغر بلد عربى وهو لبنان ، فقد وصلت به مضاعفات الصراع العربى الإسرائيلى إلى حد الحرب الأهلية ، وخرج منها وقد قدم :

٩٠ر٠٠٠ شهيد

١١٥ر٠٠٠ جريح

٩ر٦٢٧ معوق

واضطر ٨٧٥ر٠٠٠ من مواطنيه إلى الهجرة خارج بلدهم .

● وما بين سنة ١٩٤٨ وحتى سنة ١٩٧٣ فإن أكبر البلاد العربية مصر وهو الذى تحمل عبء قيادة الجهد العربى الشامل ، قدم :

٣٩ر٠٠٠ شهيد

٧٣ر٠٠٠ جريح

٦١ر٠٠٠ معوق

ثم إن أكثر من مليونى مواطن مصرى من منطقة قناة السويس اضطروا إلى الهجرة من بيوتهم - وإن بقيت هجرتهم داخل وطنهم - مرتين : سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٦٧ .

وهناك بالتأكيد تكاليف كبيرة وقعت على بلاد عربية أخرى مثل سوريا والعراق ، لكن الأرقام الدقيقة ليست متوفرة . وربما أن التكاليف المعروفة بالنسبة لفلسطين (بؤرة الصراع) ، ولبنان (أصغر بلد بين أطرافه) ، ولمصر (أكبر هذه الأطراف) تعطى على نحو ما ، فكرة يقاس عليها حيث لا تتوافر المعلومات .

وكانت هناك تكاليف أخرى للموقف من "المقدسات : المحرمات" ، ومع ذلك فإن تكاليف الدم تبقى أغلى في كل الأحوال من أى تكاليف يكون حسابها بالوقت أو بالأعصاب أو بالأموال !



إن المعايير اختلفت ابتداء من سنة ١٩٧٤ .

وعندما جاءت سنة ١٩٩٤ كانت العجلة قد دارت دورة كاملة .

سقطت موانع التحريم ، كما زالت دواعى القداسة . لكن وجه الغرابة أن مجموعات الحقائق والقيم لم تكن تغيرت ، ولا كان سبب الانقلاب نور عقل سطع فجأة ، أو حكمة تجلت ، أو تنزيلا علوها جاء إلى الناس بشرع جديد .

وكانت ذرائع الانقلاب - (إضافة إلى اتهام "الموقف" الأصلي بالجنون ، والوهم ، والمغامرة) هى الدفع بتغيير الظروف . وكانت الظروف بالفعل تتغير ، وهى باستمرار - على اتساع الدنيا وتواصل العصور - فى حالة تغيير لا يتوقف ، وإنما كله فى إطار التاريخ الإنسانى وحركته من عتمة الكهف إلى سطح القمر .

ومن المفارقات أن "الآخر" كان أكثر وعيا وعلما ، فقد ظل فى مكانه على أرض التاريخ الإنسانى - بل والأسطورى غالبا - وبقي ثابتا على "مقدساته" وعلى "محرماته" .

فهى - بعد ادعاء بغياب ألفى سنة - ما زالت : "أرض إسرائيل" ، و"شعب الله المختار" ، و"مملكة داود" ، و"التلمود" ، و"أورشليم" ، و"يهودا" ، و"السامرة" ، و"هيكل سليمان" ، و"حائط المبكى" ، و"التيه" ، و"هولوكوست" ، وهاجس الأمن الذى لا سبيل إلى طمأنته والشئ الوحيد الذى جد بمتغيرات الزمن والظروف هو مائتا قبلية نووية !

نابليون

" أيها الإسرائيليون : انهضوا فهذه هي اللحظة المناسبة "

(نابليون بونابرت في نداء موجه لليهود العالم)

تنشأ "المقدسات : المحرمات" في حياة الأمم والدول - كما في حالة المجتمعات والأفراد - لأسباب قوية ، لها دواعٍ حقيقية ترسخ في العقول والقلوب ، وربما تغيب الأسباب عدا وحصرها في ضباب الزمن مع كر السنين . لكن الأثر الذي تتركه هذه الأسباب يغوص ويسكن في أعماق ما يمكن تسميته بالوجدان ، سواء على المستوى الفردي للناس أو على المستوى الجماعي للأوطان . وهم يطيعون نداءه الخفي والمستتر والثمين بشكل ما أنهم على حق ، موقنين بطريقة أو بأخرى أنه سلامتهم وسلامهم .

إن بذور "المقدسات : المحرمات" العربية تجاه الصهيونية وإسرائيل تعود في بداياتها وأصولها إلى القرن التاسع عشر . وهو - من أوله إلى منتهاه - واحد من أهم قرون التاريخ سطوة ونفودا على العصور الحديثة اللاحقة له ...

وطوال القرن التاسع عشر - هذا القرن الأكبر والأخطر من كل ما سبقه في التاريخ - كان العالم مشغولاً - (إلى جانب الاختراقات الكبرى في العلوم الطبيعية والإنسانية) - بأربع قضايا محددة استحوذت على اهتمامه وتنازعت فيما بينها :

١ - ظاهرة الوطنية وقد برزت نتيجة للثورة الفرنسية ودفعت شعوب الأرض جميعها إلى البحث عن هويتها ، وحقها في تقرير مصيرها ، وطلب الحرية والنهوض الاجتماعي .

٢ - ظاهرة التسابق إلى المستعمرات والتنافس عليها بين القوى الأوروبية ، وقد علت منها في ذلك الوقت ثلاث هي : الإمبراطورية البريطانية ، والإمبراطورية الفرنسية ، والإمبراطورية الروسية التي راحت توجه جيوشها وأساطيلها ، وشركاتها المالية أو

بعثاتها التبشيرية ، إلى قارات الأرض ، ترفع أعلامها على مصالح أرادتها لنفسها أو شاءت حرمان الآخرين منها .

٣ - المسألة الشرقية ، وقد تمثلت بالدرجة الأولى فى عملية التريص بإرث الخلافة العثمانية ، التى كانت إمبراطورية شاسعة تمركزت فى قلب العالم من شواطئ بحر قزوين إلى شواطئ المحيط الأطلسى ، وضمت أقطارا كثيرة من جنوب أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا . لكن الوهن أصابها ومرضت وعجزت ، وتبهايات كل ممتلكاتها الأوروبية والآسيوية والأفريقية لتكون ميراثا للغالبين الأصحاء القادرين . لكن هؤلاء لم يكونوا توصلوا بعد إلى اتفاق على تقسيم الإرث رغم نفاذهم إلى الأقاليم والقبائل والعشائر والطوائف فى أملاك الخلافة ومن وراء ظهرها . وبالتالي فقد كان قرار الغالبين المستتر هو تأجيل إعلان وفاة رجل أوروبا المريض - حسب التعبير الشائع فى وصف دولة العثمانيين وقتها - حتى يرتب كل واحد منهم نفسه للغنيمة يرثها بأكملها ، أو يحصل لنفسه على حصة الأسد فيها . وبهذا الشكل بقيت الخلافة كيانا لا يسمح له بالموت ، ولا يسمح له بالحياة ، إلى حين تستقر حركة موازين القوة فى أوروبا وبالتالي يطلب كل طرف بين الغالبين نصيبه فى القسمة والإرث .

٤ - المسألة اليهودية ، وهى قضية ديانة توزع أتباعها فى أنحاء الأرض . ثم إنهم كانوا هدف عداة استفحل خصوصا حول مواضع كثافة التواجد اليهودى فى شرق أوروبا وروسيا ، ووقتها كان ٩٠ ٪ من يهود العالم (وعددهم الإجمالى ١٢ مليوناً) يعيشون على تخوم ما بين روسيا وبولندا ، ويتعرضون بين الحين والآخر لغارات دموية تولدها احتكاكات دينية واجتماعية وفكرية اشتهرت باسم الـ Pogrom ، وهى كلمة روسية الأصل تعنى "التدمير المنظم لطبقة أو جماعة" ، وقد التصق استعمالها بتاريخ اليهود فى شرق أوروبا ، وأصبحت من أشهر الكلمات ترددا فى الصحف العالمية طوال القرن التاسع عشر عندما تكررت مذابح اليهود فى روسيا وبولندا .



وكان الفكر الإستراتيجى الأوروبى - النافذ وقتها - هو الذى اجتهد فى محاولة الربط بين هذه العناصر الظاهرة فى القرن التاسع عشر ، وخلط توليفة لمتناقضاتها ، يمكن استغلالها فى البحث عن مخارج سياسية تناسب مصالح ومقاصد القوى والأطراف .

وكان "نابليون بونابرت" - نجم ذلك الزمن من التاريخ العالمى وأزمان بعده طويلة - هو المبادر والسباق إلى الربط والتوليف بين : الوطنية ، والسباق الاستعمارى ، والمسألة الشرقية ، والمسألة اليهودية ، مجتمعة كلها معا فى خدمة استراتيجية سياسية واحدة .

وقد التقط في البداية آخرها ، وهي المسألة اليهودية .

والحاصل أنه قبل "نابليون" كان يهود العالم - ومنذ مأساة الخروج مع المسلمين من الأندلس - موزعين بين أوروبا وشمال أفريقيا . وفى تلك الأيام كان الكلام عن العودة إلى فلسطين نداء يتردد على لسان أحد الحاخامات بين حقبة وأخرى ، وربما مرة كل ثلاثين أو أربعين سنة ، ولم يكن هناك من يأخذ هذا النداء جدا ، أو يعلق عليه بأكثر من أنه حنين يجتر الوهم ، لأن العودة خلط متعسف للأسطورة بالتاريخ ، ثم إنها حتى فى الأساطير مرهونة بإشارات وعلامات لم تظهر بعد على أى أفق .

وفى كل الأحوال فإن "نداء الأسطورة" كان قضية مختلفة عن "المسألة اليهودية" .

فالنداء الأسطوري كان فى حيز الأشتواك . أما المسألة اليهودية فكانت فى حيز الواقعيين الاقتصادى والاجتماعى ، لأن المسألة اليهودية كانت فى صميمها ذلك الاضطهاد الواقع على اليهود فى أوروبا ، سواء هؤلاء الذين استقروا فى الغرب من قديم ، أو هؤلاء الذين تدفع بهم موجات الهجرة بين وقت وآخر هاربين من الشرق لاجئين إلى الغرب .

وكانت موجات الهجرة من الشرق هى النقطة الحرجة فى المسألة اليهودية ، لأن أحدا لم يكن يريد هؤلاء اليهود القادمين هاربين لاجئين من الشرق إلى الغرب . فلا مسيحيو الغرب يريدونهم لأن صدرهم ضيق بالفعل من اليهود فى بلادهم ، كما أن يهود الغرب أنفسهم لا يريدونهم بنفس المقدار وربما أشد ، لأن يهود الغرب استقروا حيث هم ، وقد نجحوا بالكاد فى صرف الأنظار عن وجودهم ، فإذا ظهر من يعتبرونهم "أجلافا" من مهاجرى الشرق اليهود ، أحسوا بالانزعاج من أثر التضارب بين ولائهم لأبناء دينهم ، وبين حساسيتهم لأوضاعهم فى المجتمعات المسيحية التى يعيشون وسطها والتى يحاولون الاندماج فيها بأى شكل ووسيلة .

وكانت فكرة نابليون "العبرية" - ١ - فى ربط وتوليف واستغلال الظواهر البادية مع مقدمات القرن التاسع عشر تتمثل فى عدة خطوات :

١ - استعمال ظاهرة الوطنية فى إيقاظ وعسى يهودى يلتقط فكرة حق تقرير المصير ، ويطلب بوطن قومى لليهود ينقذهم من الشتات ويريحهم - ويريح أوروبا أكثر - من عبء موجات الهجرة المتدفقة من يهود الشرق .

٢ - اللعب على الوتر الدينى اليهودى ، وأساطيره ، لتكون فلسطين - وهى وقتئذ من أملاك الخلافة العثمانية التى يتسابق الكل على إرثها - وطن اليهود الموعود والمختار .

٣ - فإذا نشأت دولة يهودية برعاية فرنسا فى فلسطين ، فتلك إذن نقطة بداية مهمة لخطتها الإمبراطورية فى قلب أملاك الخلافة العثمانية .

٤ - وإذا نجحت هذه التوجهات فإن فرنسا تكون قد بدأت عملية إرث الخلافة ، وتكون حصلت على النصيب الأكبر من التركة قبل أن تنتبه القوى الأخرى وتتحرك . وحتى إذا تحركت فإن فرنسا سوف تكون بالفعل هناك قبل الكل وفي موقع أقوى وأفضل .



إن ملامح الصورة الدولية العامة يومئذ معروفة :

- الصراع الإمبراطوري على أشده بين قوتين اندفعتا إلى البحر الأبيض المتوسط و إلى المحيط الأطلنطي و إلى المحيط الهندي - وهما بريطانيا وفرنسا - بينما القوة الإمبراطورية الثالثة - وهي روسيا - مشغولة بالتمدد في آسيا ، وفي مناهة أن تصل إلى بحر الصين ، وهو مفتوح على المحيط الهادى .

- إن فرنسا تراجعت في السباق مع بريطانيا بعد عصر "الملك الشمس" - "لويس الرابع عشر" - لأن خليفته "لويس الخامس عشر" و"لويس السادس عشر" شغلا عن التوسع كل منهما لأسبابه . أولهما ألتهته مباحج قصر "فرساي" ومغانبه وترفه ، والثانى حاصرته عواصف الثورة الفرنسية التى حملت ألوية الحرية والإخاء والمساواة ، وسحبت ملوك وأمرء البوربون إلى المقصلة .

- إن جنرال الثورة العبقري عاد مرة أخرى مستأنفا حلم "لويس الرابع عشر" ، وآخذا على نفسه مسؤولية التوسع الإمبراطوري الفرنسى ، حتى وان اصطدم بالسلاح مع بريطانيا . وكانت الحملة الشهيرة على مصر - "حملة النيل" كما سماها "بونابرت" - تستهدف غرضين فى نفس الوقت :

◊ احتلال مصر كبداية لعملية إرث الخلافة ، والزحف منها إلى فلسطين والشام .

◊ ثم العمل على قطع طريق المواصلات البريطانية ، وهو يومئذ عقد من اللآلئ حبة بعد حبة ، وآخرها أغلى الجواهر فى التاج البريطانى وهى الهند .

وفى سبيل تحقيق أغراضه لم يتردد "نابليون" أمام الموانع والذرائع .

فعد غزو مصر كان ادعاؤه أنه الصديق الصدوق لخليفة المسلمين العثمانى ، وأنه الحريص على تثبيت سلطانه المهمد من الممالك فى الداخل أو الملوك المسيحيين فى الخارج . ووصل "نابليون" إلى حد ادعاء الإسلام إيمانا - كما قال ! - بصدق وصفاء تعاليمه .

وعندما بدأ "نابليون" زحفه من مصر إلى الشام داخلا من فلسطين ، توقفت جيوشه عند أسوار القدس وعكا ويافا ، وغيرها من حصون المسلمين . وهنا أراح "نابليون" ورقته الإسلامية وأخرج ورقة ثانية يهودية !

إن ورقة "نابليون" الإسلامية - وهى منشوره إلى المصريين عن صداقته للخليفة وعن اعتناقه للإسلام - كانت جاهزة مطبوعة من قبل أن تطلع الحملة الفرنسية من موانئها . وأما ورقة "نابليون" اليهودية فليس واضحا متى بدأ التفكير فيها والإعداد لها . ومن المحتمل أن "نابليون" رتب لها قبل مغادرته لفرنسا ، ولم يشأ أن يعلن عنها كى لا تؤثر على ورقته الإسلامية . لكنه من المحقق أن بعض علماء الحملة الفرنسية بدعوا مبكرا فى الاتصال ببعض حاخامات اليهود فى فلسطين ، مثل "موسى موردخاى" و"جاكوب الجازى" ، وربما غيرهما . وكانت ورقة "نابليون" اليهودية ، التى أظهرها أمام أسوار القدس ، نداء إلى يهود العالم لم يوزع فى فلسطين وحدها ، وإنما جرى توزيعه فى الوقت نفسه فى فرنسا ، وإيطاليا ، والإمارات الألمانية ، وحتى فى أسبانيا ، الأمر الذى يشير إلى أن القضية أكبر وأوسع من ظرف محلى واجهه "نابليون" حينما استعصت عليه أسوار القدس .

كان نداء "نابليون" إلى يهود العالم على النحو التالى :

" من نابليون بوناپرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية فى أفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين .

أيها الإسرائيليون ، أيها الشعب الفريد ، الذى لم تستطع قوى الفتح والظغيان أن تسلبه نسبة ووجوده القومى ، وإن كانت قد سلبته أرض الأجداد فقط .

إن مراقبى مصائر الشعوب الواعين المحايدين - وإن لم تكن لهم مقدرة الأنبياء مثل اشعيا ويوثيل - قد أدركوا ما تنبأ به هؤلاء بإيمانهم الرفيع أن عبيد الله (كلمة إسرائيل فى اللغة العبرية تعنى أسير الله أو عبد الله) سيعودون إلى صهيون وهم ينشدون ، وسوف تعمهم السعادة حين يستعيدون مملكتهم دون خوف .

انهضوا بقوة أيها المشردون فى التيه . إن أمامكم حربا مهولة يخوضها شعبكم بعد أن اعتبر أعداؤه أن أرضه التى ورثها عن الأجداد غنيمة تقسم بينهم حسب أهوائهم ... لا بد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت نير العبودية ، وذلك الخزى الذى شل إرادتكم لألفى سنة . إن الظروف لم تكن تسمح بإعلان مطالبكم أو التعبير عنها ، بل إن هذه الظروف أرغمتكم بالقسر على التخلّى عن حقلكم ، ولهذا فإن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل ، وهى تفعل ذلك فى هذا الوقت بالذات ، وبالرغم من شواهد اليأس والعجز .

إن الجيش الذي أرسلتني العناية الإلهية به ، ويمشى بالنصر أمامه وبالعدل وراءه ، قد اختار القدس مقرا لقيادته ، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة التي استهانت طويلا بمدينة داود وأذلتها .

يا ورثة فلسطين الشرعيين ..

إن الأمة الفرنسية التي لا تتاجر بالرجال والأوطان كما فعل غيرها ، تدعوكم إلى إرثكم بضمائها وتأييدها ضد كل الدخلاء .

انهضوا وأظهروا أن قوة الطغاة القاهرة لم تخمد شجاعة أحفاد هؤلاء الأبطال الذين كان تحالفهم الأخوى شرفا لأسبرطة وروما ، وأن معاملة العبيد التي طالت ألفى سنة لم تغلح في قتل هذه الشجاعة .

سارعوا ! إن هذه هي اللحظة المناسبة - التي قد لا تتكرر لآلاف السنين - للمطالبة باستعادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالم ، تلك الحقوق التي سلبت منكم لآلاف السنين وهي وجودكم السياسي كأمة بين الأمم ، وحكمكم الطبيعي المطلق في عبادة إلهكم يهواه ، طبقا لعقيدتكم ، وافعلوا ذلك في العلن وافعلوه إلى الأبد .
بونابرت "

إن ورقة "نابليون" الإسلامية كانت حيلة سهلة لخداع المصريين ، سواء في ذلك العامة أو العلماء من مشايخ الأزهر .

ولا بد من الاعتراف - لسوء الحظ - أن الخدعة جازت على المصريين في ذلك الوقت بمن فيهم العامة والعلماء ، وربما يغفر لهم جميعا أن ضيقهم بجور الحكام المالك جعلهم على استعداد لحلف مع الشيطان إذا كان ذلك ضروريا للخلاص من أولئك الذين استبدوا بأقدارهم وأرزاقهم ، وعجزوا في نفس الوقت عن حماية ديار الإسلام وديارهم .

ولقد جاء الشيطان إليهم يلبس عمامة ، وصدوقه لأنهم كانوا يريدون تصديقه ، ولأنه لم يكن في مقدورهم ألا يصدقوه .

وعلى أي حال ، فإن ورقة "نابليون" الإسلامية توقفت عند هذا الحد ، ولم تبق منها إلا أوراق وذكريات ، بعضها غريب وبعضها مسل ، تحفل بها ملفات وزارة البحرية في باريس التي حفظت فيها معظم وثائق الحملة الفرنسية على مصر ، وهي ترسم صورة مذهشة للسياسة وللحياة في مصر بينما العالم ينتقل من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر^(١) ، وكلها خليط مثير فيه رؤى استراتيجية بخط "نابليون" ، كما أن ضمنها قصائد

(١) كانت هناك باستمرار عملية بحث عن وثائق الحملة الفرنسية على مصر ، ولحقت طويلة بها وكان هذا الكنز التاريخي قد ضاع واندر ، وكان الظن أنه ربما فرق هذا الكنز عندما كانت الصناديق التي تضم أوراقه =

شعر غزل مكشوف كتبه عدد من الشيوخ غراما وصباة فى بعض ضباط "نابليون" وعيونهم الزرق وشعرهم الذهب !

تكن ورقة "نابليون" اليهودية هى الوثيقة التى تستحق الاهتمام فى السياق التاريخى لأنها الأثر الإستراتيجى الباقى فى المنطقة من تلك الأيام وحتى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين .



إن "نابليون بوناپرت" لم يكن يهوديا ولا كان مواليا لليهود ، والعكس هو الصحيح ، لكن ورقته اليهودية - المتمثلة فى ندائه ليهود العالم من خارج أسوار القدس - لم تكن أكذوبة كما هو الحال فى ورقته الإسلامية . ذلك أن ورقته الإسلامية كانت موجهة إلى كتلة بشرية من سكان مصر ، عددهم فى ذلك الوقت يفوق المليونين ، وفى استطاعتهم إذا قاوموا أن يجعلوا مصر مصيدة لجيوشه وليس رأس جسر ، وهو لهذا مستعد لخديعتهم بأن يكذب عليهم .

وأما ورقته اليهودية فهى حالة مختلفة ، لأن اليهود فى فلسطين ذلك الوقت لم يزد عددهم على ألفين ، وبالتحديد وطبقا لتقرير مرفوع إلى "نابليون" نفسه من مجموعة ضباط استكشاف سبقت جيشه إلى فلسطين ، هو ١٨٠٠ (منهم ١٣٥ فى مدينة القدس) . وهؤلاء

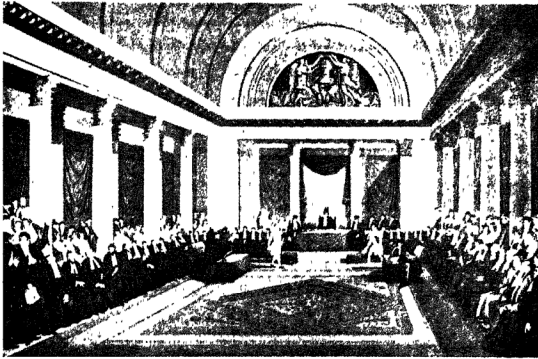
= محولة على ظهر مركب فرنسى من المراكب التى تسلكت عائدة إلى فرنسا بعد فشل الحملة الفرنسية على مصر . وساعد على ترجيح هذا الاحتمال أن الأسطول البريطانى ، بقيادة الأميرال "نلسون" ، كان يترصده السفن الفرنسية المتسللة عائدة إلى مارسيليا محاولة اختراق طوق الحصار البحرى . ولعل الخطأ الذى وقع فيه كثيرون بين الباحثين والدارسين ، أنهم اتجهوا إلى الخرائز التى كان طبيعيا أن تودع فيها أوراق الحملة الفرنسية ، وهى وزارة الخارجية أو وزارة الحربية أو وزارة المستعمرات . ثم خطر ببال أحد الأساتذة المصريين الدقيقين ، وهو الدكتور "أحمد حسين الصاوى" ، أن يلقى نظرة على محفوظات وزارة البحرية الفرنسية ، وإذا الكنز معظمه موجود فى خزائنها . وقد حاول الرجل أن يستلث نظر بعض الجهات الرسمية إلى مساعدته فى توثيق فترة من أهم فترات التاريخ المصرى ، ولم يستمع إليه أحد . ثم تكلفت جهود خاصة بمهمة الدعم وتمويل البحث والتصوير ، وبذل الدكتور "الصاوى" جهدا ممتازا ، وأمكن فى النهاية الحصول على أكثر من عشرين ألف وثيقة من وثائق الحملة الفرنسية على مصر تلقى أضواء كاشفة على الاستراتيجيات للقوى الإمبراطورية فى تلك الفترة ، وكذلك على حياة مصر فى لحظة من لحظات الانتقال الهائلة فى التاريخ .

ليس في مقدورهم - مهما فعلوا لا أن يتصرفوه ولا أن يخذلوه . وهكذا فإن ورقة "نابليون" اليهودية تحتاج إلى تفسير آخر غير التفسير الذى يجوز حيال ورقته الاسلامية .

وإذا لم تكن ورقة "نابليون" اليهودية أكذوبة ، وإذا لم تكن خدعة سياسية مثل ورقته الإسلامية ، فإماذا تكون إذن؟

إن التفسير الصحيح - والحوادث اللاحقة شاهد - هو أن هذه الورقة كانت "رؤية" .

وهى لم تكن "رؤية نبى" ، وإنما كانت رؤية إمبراطور يملك حسا استراتيجيا نابها ويعيسدا .



لوحة مرسومة للمحفل اليهودى الأكبر " سنهدين " الذى رأسه الإمبراطور "نابليون" بعد عودته من حملة مصر وإعلان نفسه إمبراطورا لفرنسا . وقد طرح فيه "نابليون" مرة أخرى مشروعه لدولة يهودية فى قلب الضلع الذى يضم مصر وسوريا . واللوحة مرسومة سنة ١٨٠٧ (أى سنة انعقاد المحفل) . ومن الواضح أن الفنان الذى رسمها نقلها عن "سكتش" (مسودة) أعده أثناء الافتتاح المؤتمر ، ثم عاد إلى مرسمه واستكمل تفاصيلها . ويظهر من المعلومات المتعلقة بهذه اللوحة أنها بيعت بعد انتهاء عصر "نابليون" ، ثم ظهرت فى بعض المجموعات الخاصة . وسنة ١٨٦٠ كانت هذه اللوحة ضمن مجموعة رأسمالى يهودى هو "إسرائيل سولومون" (من أسرة "سولومون" الشهيرة) وقد سمح ابنه بنشرها ، وظهرت مطبوعة لأول مرة سنة ١٨٧١ .

بريطانيا

" تحدثت إليه عن آلام اليهود فلم يسمعي ،
وحدثته عن مصالح بريطانيا فترك كأس
البراندى الذى كان فى يده ولعت عيناه
وبدا يسمعي "

(اللورد "شافتسبرى" فى وصف حديث له مع
"المرستون" رئيس وزراء بريطانيا)

كان "نابليون بونابرت" يعتقد - بدراسة الجغرافيا والتاريخ - أن مصر هى أهم بلد فى العالم ، وقد أصبح مؤمنا، بعد دراسته للاستراتيجيات الإمبراطورية بأن الاعتقاد الذى توصل إليه بشأن أهمية مصر حقيقة لا تقبل الشك ، وقد كسر التعبير عن هذا الاعتقاد والإيمان كثيرا فى تقاريره ومذكراته وأحاديثه ، حتى تلك التى أجراها فى المنفى وهو بعيد فى جزيرة "سانت هيلانة" معزول بمحيطات وبحار عن السياسة وعن الحرب وعن الدنيا بأسرها .

كان الموقع المصرى فى تقديره فريدا :

- معبر مطل على البحر الأبيض النافذ من جبل طارق إلى الأطلنطى متناھيا إلى العالم الجديد فى أمريكا ، ثم هو مطل على البحر الأحمر الذى يمكن وصله بالبحر الأبيض فى أحلامه والذى يتدفق بمياهه جنوبا حتى يدخل إلى بحر العرب عند عدن ، ويمتد إلى المحيط الهندى ثم إلى المحيط الهادى .
- ثم هو بلد مستقر قرب رأس أفريقيا مستند فى الوقت نفسه على كتف آسيا .
- ثم هو أرض تصلح بطبيعتها السهلة ومواردها الزراعية لأن تكون قاعدة مأمونة لجيش كبير يأكل ويسكن ويستعد فى أمان .

● وأخيرا ، فإنه موقع حاكم على طرق التوسع الإمبراطورى خصوصا إلى الهند وما حولها وما وراءها ، وبالتالي فالحصول عليه مقدمة ضرورية لأى قوة تريد أن تتصدى لبريطانيا وتريد أن تتحدى سيطرتها على التجارة وعلى البحار .

لكن "نابليون" لم يكن ينظر إلى مصر وحدها ، وإنما كان يراها فى اتصال غير قابل للانفصال مع السهل السورى الذى يشكل معها زاوية قائمة تحيط بالشاطئ الشرقى - الجنوبي للبحر الأبيض ، وهذه الزاوية القائمة بضمها الجنوبي فى مصر تمتد تأثيرها بالعرض إلى كل الساحل الشمالى لأفريقيا ، وبالطول إلى الجنوب حتى منابح النيل ، ثم إنها بضمها الشمالى فى سوريا تلامس حدود بلاد ما بين النهرين (العراق) وشبه الجزيرة العربية والخليج ، وحتى طرق الاقتراب البرى والبحرى إلى فارس والهند .

وهكذا فإن "نابليون" - شأنه شأن من سبقوه من الفاتحين - لم يكذب يستقر فى مصر حتى راح يمد بصره إلى سوريا ، وحتى تكون الزاوية الجنوبية لشرق البحر الأبيض تحت سيطرته بالكامل . وكان ذلك بالضبط ما فعله فرعون مصر وأباطرة الإغريق وقيصرة الرومان وأكاسرة الفرس . وهو نفسه ما قام به الخلفاء المسلمون فى أعقاب عصر النبوة ، ثم تواصل بعدهم بأمراء المؤمنين من الأمويين والعباسيين ، ثم حفظ دروسه فيما بعد كل حاكم. تولى أمر مصر ابتداء من "أحمد بن طولون" و"صلاح الدين" وحتى ممالك مصر العظام من أمثال "الظاهر بيبرس" و"قلاوون".

أى أنه وعلى طول العصور كان لا بد أن تكتمل الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأبيض لتدخل فى إطار سياسى واحد يجعل كل ضلع منها تأمينا للضلع الثانى .. ضرورة جغرافيا وعبرة تاريخ !

لكن المعضلة فى ظن "نابليون" أن سوريا قريبة بأكثر مما ينبغى من مقر الخلافة فى تركيا ، وقد يكون ممكنا فى يوم من الأيام - طبقا لتقديراته - أن تتصدى دولة الخلافة لمشروعه وتقاتله فى ولايتها السورية ، وتجد فى ذلك عوناً من إمبراطوريات أخرى منافسة له ، كالإمبراطورية البريطانية .

إضافة إلى ذلك فإن "نابليون" - مع اعتقاده وبقينه بأهمية الزاوية التى لا يبدل عنها - كان يخشى إلى جانب الخطر الخارجى من أن الإسلام والعروبة فى كل من مصر وسوريا - ضلعي الزاوية يتدران فى يوم من الأيام - كما حدث من قبل خلال الحروب الصليبية - على صنع قوة ذاتية تتشجع على الانفلات من قبضته ، وقد تواجهه بما لا يتحسب له أو يريده !

وكان ملفتا أنه على امتداد التاريخ ، كان كل من ضلعي الزاوية الاستراتيجية الحيوية فى حالة بحث مستمر عن الآخر بصرف النظر عن متغيرات الظروف ، وأوصاف العصور وصرعاتها فرعونية أو رومانية ، بيزنطية أو إسلامية ، صليبية أو استعمارية !

ومن هذه الحقائق الجغرافية والتاريخية تبلورت الرؤية الاستراتيجية لـ "نابليون بوناپارت"، وتجلت من خلالها "الورقة اليهودية".

وبذلك فإن أحلام "نابليون" فى غزو العالم تبدت فى أول خطوة لها على النحو التالى :

١ - عليه أن يسيطر على الضلع الجنوبى لزاوية البحر الأبيض الشرقية - وهو مصر - وقد نزلت جيوشه إليها .

٢ - وعليه أن يؤمّن سوريا لتكون زاوية جنوب شرق البحر الأبيض تحت سلطته وهو الآن يزحف عليها .

٣ - ولكى يضمن عدم التقاء الضلعين عربيا وإسلاميا ، فإنه يزرع عند نقطة التقائهما ، أى عند مركز الزاوية ، شيئا آخر لا هو عربى ولا هو إسلامى . لكن هذا الزرع لا يمكن خلقه من العدم ، وإنما يحتاج خلقه إلى بذور حتى وإن كانت من جينات حفرات الأنثروبولوجيا بحيث يمكن غرسها فى التربة ، فإذا جرى ريهها وأورق بعضها فحينئذ قد يصعب التمييز بين الأصيل والدخيل ، وبين الطبيعى والهجين .

وهكذا تجيء ورقة "نابليون" اليهودية تصورا للمستقبل ورؤية - ربما لا تتحقق بسرعة - لكنها قابلة للتحقيق فى مستقبل الأيام .. وبها فقد ينشأ وطن يهودى يكون ضمانا إضافيا إذا أمكن ، ويكون عازلا إذا اقتضت الضرورات ! وفى صياغتها فإن صاحبها استخدم مطالب الإمبراطورية ودروس التاريخ وأساطير الأديان القديمة وحولها إلى استراتيجية ، والثابت أن "نابليون" لم يتخل عن تقديراته الاستراتيجية حتى بعد أن اضطر إلى التسلسل ليلا من مصر والعودة إلى فرنسا ، وراح يواصل من باريس صراعه للسيطرة على أوروبا ، إلى حيث تحمله جياده وتصل مرامى مدافعه !

وعندما أصبح "نابليون" إمبراطورا لفرنسا فإن مصر كانت لا تزال فى حساباته أهم بلد فى العالم ، وكانت فكرة الوطن اليهودى العازل بعدها مسئولية عليه ، وهكذا فإنه دعا سنة ١٨٠٧ إلى عقد مجمع يهودى "سانهردان" يحضره كل يهود أوروبا ممثلين فى رؤساء طوائفهم ، إلى جانب مشاهير حاخاماتهم ، ليلم "شمل الأمة اليهودية" على حد قوله ، ثم كان ملفتا أن يكون القرار الذى يحمل رقم ٣ من قرارات المجمع ، قرارا يتحدث بالنص عن :

- "ضرورة إيقاظ وعى اليهود إلى حاجتهم للتدريب العسكرى لكى يتمكنوا من أداء واجبه المقدس الذى يحتاج إليه دينهم" .

ولعل ذلك هو الذى أوحى إلى مفكر سياسى شهير مثل "دولاجار" بأن يكتب كتابه اللافت للنظر : "نابليون والعسكرية اليهودية" !



إن عجلة التاريخ لم يتوقف دورانها . واستطاعت بريطانيا دحر خطط "نابليون" ، وأكمل الدوق "ولنجتون" ما بدأه الأميرال "نلسون" ، أولهما ختم بتدمير جيوش الإمبراطور "نابليون" على سهول بلجيكا (معركة "واترلو") ، وثانيهما استفتح بتدمير أسطول الجنرال "نابليون" عند مصب النيل (معركة "أبو قير") . لكن الرؤى الاستراتيجية الواسعة للفاتحين الكبار لا تموت بموتهم ، وإنما تبقى في حافظة التاريخ بعدهم تنتظر غيرهم ممن يجدون الجراءة والجسارة على استعادتها من جديد جزئيا أو كليا .

وهكذا فإنه بعد سنوات قليلة من الفوضى والارتباك استقر حلم جمع الزاوية الشرقية الجنوبية للبحر الأبيض بضعليها المصري والسوري في يد "محمد على" والى مصر الكبير . والظاهر أن "محمد على" - بعد استقرار الأمر له في مصر - توصل بحسه إلى الضرورات التي تجمع بينها وبين سوريا ، ومن المحتمل أن الفكرة وصلت إليه بوحى مباشر أو غير مباشر من "سليمان باشا الفرنساوي" الذي كان أحد ضباط "نابليون" ثم أصبح فيما بعد رئيسا لأركان حرب "إبراهيم" (باشا) ، ابن "محمد على" وقائد جيوشه !

وربما أن الذى أضافته تجربة "محمد على" إلى الرؤية الاستراتيجية العامة للزاوية الحيوية - مصر وسوريا - هي أن "محمد على" نجح في تأسيس دولة عصرية مصرية وعربية قادرة على أسباب القوة ، وقادرة على أسباب الوحدة في العالم العربى .

والواقع أن "محمد على" لم يدخل سوريا غازيا ، وإنما دخلها وسط علامات نهضة وطنية سورية تلاقت طموحاتها مع نموذج "محمد على" ، ودفعتها قوة الأشياء - وبينها التاريخ - إلى وضع العلاقة بين مصر وسوريا في وضع متميز . وربما أن عصر الوطنية - الذى حاول "نابليون" أن يستغله لحل المسألة الشرقية بالمسألة اليهودية - كان فاعلا على الناحية الإسلامية العربية دون حاجة إلى تليقات إمبراطور فرنسى يتقود جيوشا غريبة توجهها خطط إمبراطورية مسلحة .



لقد أخذ رئيس وزراء بريطانيا اللورد "المارستون" عن إمبراطور فرنسا "نابليون" وتعلم منه ، وكانت تلك دائما ميزة بريطانيا في فترة صعودها .. تحفظ الدرر من أعدائها وتطبق ثقافتهم بأفضل منهم .

كانت البرتغال هي السابقة على الطرق البحرية بين القارات ، وجرت بريطانيا وراءها ولحقتها وسبقتها . وكانت أسبانيا هي السابقة إلى استعمار العالم الجديد في أمريكا ، وجرت بريطانيا وراءها ولحقتها وسبقتها . وكانت فرنسا - "نابليون" - هي السابقة نحو مصر والوادية - في العصر الاستعماري - بأهمية الزاوية الاستراتيجية التي تجمعها مع سوريا ، وجرت بريطانيا وراءها ولحقتها وسبقتها !

ويمكن القول إن "المارستون" تبنى بالكامل رؤى "نابليون" ، وأمسك أكثر بإمكانياتها ، وراح يمهّد الأرض لتحقيقها لاحقا بالعدو الفرنسي وسابقا له .

كان "المارستون" - شأنه شأن ساسة جيله في ذلك الوقت - يعرف ما فيه الكفاية عن المسألة اليهودية . وبالطبع فإنه كوزير لخارجية بريطانيا ثم رئيس لوزرائها كان مشغولا بالمسألة الشرقية ، لكن أوراقه لا تظهر أنه ربط بين المسألتين إلا بعد أن قام به "نابليون" .

ويبدو أن "المارستون" اكتفى ذلك الوقت بهزيمة الخطط الفرنسية واطمأن ، وإن كانت فكرة الوطن القومي لليهود قد طرحت عليه من بعض البروتستانت الذين رأوا فيها تحقيقا لنبوءة العهد القديم .

وإذا كانت هذه الدعاوى التبشيرية قد وصلت إلى سمع "المارستون" ، فليس مؤكدا أنها وصلت إلى عقله . وكانت تلك هي المهمة التي يجب أن يتولاها أحد ، وبالفعل تولاها اللورد "شافتسبري" .

كان اللورد "شافتسبري" سهرا قريبا لـ "المارستون" ، وفي الوقت ذاته صديقا مقربا من اللورد "روتشيلد" وعائلته - وهم بين أكثر يهود الغرب الأغنياء والمأزومين من موجات هجرة يهود الشرق إلى غرب أوروبا ، وأشدّهم حماسة في العمل على "تصدير الفائض" منهم إلى فلسطين - وقد بدأ "شافتسبري" محاولاته لإقناع "المارستون" بالدعاوى المقدسة ، ثم وجد أن الأساطير القديمة عاجزة فيبدأ يضيف إليها ذرائع سياسية يستطيع رئيس وزراء بريطانيا أن يتفهمها ويستوعبها .

وكتب "شافتسبري" في يومياته - ١٤ يونيو ١٨٣٨ - ما نصه :

" أمس تناولت العشاء مع المارستون ، ورحت بعد العشاء أحدثه عن مأساة اليهود وهذابهم ، وكان يستمع إلى وعيناه نصف مغمضتان يمسك بيده كأس براندى يرشف منه ما بين وقت وآخر .

وعندما تركت حديث المأساة اليهودية ورحت أحدثه عن المصالح والمزايا التجارية والمالية التي تنتظر بريطانيا في الشرق ، لمعت عيناه وتبدى اهتمامه وترك كأس البراندى على المائدة بجانبه وراح يسمعي . "

إن الوثائق البريطانية فى تلك الفترة حافلة بالشواهد على تطور فكر رئيس وزراء بريطانيا حتى وصل إلى تحديد ثلاثة أهداف للسياسة البريطانية فى الشرق الأوسط ، وحتى راح يبنى وراء هذا الفكر تحالفا من القوى الأوروبية الكبرى تؤيده قبل أن يضيع إرث الخلافة على الجميع .

كانت الأهداف الثلاثة ، وهى ظاهرة بجلاء فى الوثائق البريطانية من ذلك العصر ، على النحو التالى :

١ - إخراج "محمد على" من سوريا لفق ضلعى الزاوية المصرية - السورية .

٢ - حصر "محمد على" داخل الحدود المصرية وراء صحراء سيناء ، وتحويل هذه الصحراء إلى نوع من "سداة الفلين" تقفل عنق الزجاجة المصرية التى يمثلها وادى النيل (والتشبيه من خطاب لـ "روتشيلد" موجه إلى "المارستون" بتاريخ ٢١ مايو ١٨٣٩) .

٣ - قبول وجهة النظر القائلة بفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود إليها وتشجيعهم على إنشاء شبكة من المستعمرات الاستيطانية فيها ليكون منها ذات يوم عازل يحجز مصر عن سوريا ، ويمنع لقاءهما فى الزاوية الاستراتيجية الحاكمة !

وكانت أهداف "المارستون" تلقى تأييدا ومساندة من اللورد "ولينجتون" قائد الجيوش البريطانية وقاهر "نابليون" فى "واترلو" . ومن الملاحظ أن كثيرا من التقارير فى الوثائق البريطانية تشير إلى أن "ولينجتون" هو صاحب نظرية مواجهة "محمد على" على ثلاث مراحل: إخراجه من سوريا ، واحتواؤه فى مصر ، وإنشاء عازل حاجز بين البلدين .

محمد على

لليمامة عشها وللعلمب كهفه "

(الشاعر البريطاني اللورد "بايرون" فى إحدى
أغانيه العبرية)

مع بداية القرن التاسع عشر كانت الأجواء فى بريطانيا معبأة لمعركة تصفية الخلافة العثمانية . فقد بدأ أن هذه تركة حان موعد إرثها . ومضت السياسة تبلور خططها ، والقيادات العسكرية ترسم خرائطها ، وحتى الأدب والشعر دخلوا ساحة المعركة دون أن يعنى ذلك أن أوامر صدرت للأدباء والشعراء بأن يدخلوا ، وإنما الذى يحدث عادة أن المتأخر العام السائد فى أى بلد من البلدان فى لحظة معينة من حياته يمد تأثيره على كل شىء من المدفع إلى المسرح ومن القنبلة إلى القصيدة !

إن معركة الهجوم على دولة الخلافة بدأت - وكان ذلك منطقيا - بهجمات متواصلة على الممتلكات الأوروبية للدولة العلية بمطلب تحرير المسيحيين من أسر الخليفة العثماني المسلم . وفجأة دخلت الورقة اليهودية ، بريطانيا هذه المرة بعد أن كانت فرنسية . وبما أن اليهود كانوا يعيشون فى سلام باستمرار تحت حكم السلطان العثماني متفرقين فى ممتلكاته وقد آوت كثيرين منهم بعد الخروج من الأندلس سويا مع المسلمين ، فإن تحرير بلد يهودى لم يكن واردا . لكنه فى مناخ بدايات القرن التاسع عشر راحت فكرة إنشاء وطن قومى لليهود تأخذ حيزا يزيد كل يوم . وبالنسبة لشاعر مثل "بايرون" فإن قصائده عن اليونان ما لبثت أن أفسحت طريقا فى إلهامه لمجموعة القصائد التى سماها "الأغاني العبرية" ، وأولها قصيدته المعروفة :

" لليمامة عشها ، وللعلمب كهفه

ولكل شعب أرضه إلا اليهودى

فليس عنده غير قسيه "

لم يكن الشعر حتى عند "بايرون" بعيدا عن السياسة . فالسياسة (توسعية عسكرية ، أو اقتصادية أو مالية ، أو استيطانية عنصرية في هذا العصر) كانت ملء الأجوأ . ومن الطبيعي أن الشواغل العامة لا يمكن أن تكون بعيدة عن إلهام الشعر ، حتى وإن كان اقتراب هذا الإلهام من السياسة غير مباشر ، وبالشعور دون التفكير المقصود والمنظم .

إن الزعيم الصهيوني "ناحوم سوكلوف" رفيق "هيرتزل" في فكرة تأسيس الدولة كتب في مذكراته يقول إنه فكر طويلا وتأمل في الأسباب التي دعت إنجلترا إلى التحمس للمشروع الصهيوني في فلسطين ومساندته . وقال في مقدمة هذه المذكرات :

"إنني سألت نفسي كثيرا عن أسباب تأييد إنجلترا لحركتنا وتوصلت إلى أربعة أسباب أرتبها كما يلي :

- ١ - الطابع الإنجيلي للشعب الإنجليزي .
 - ٢ - تأثير الإنجيل في الأدب الإنجليزي .
 - ٣ - محبة فلسطين عند الإنجليز .
 - ٤ - السياسة الإنجليزية في الشرق الأدنى طوال القرن التاسع عشر .
- ومن البديهي أن الأسباب الثلاثة الأولى تنتمي إلى عالم التأليف والإنشاء ، وأما السبب الرابع فهو وحده السبب الذي ينتمي إلى عالم الحقائق والمصالح .
- وكانت أهم مصالح إنجلترا في ذلك الوقت هي ضرب "محمد علي" باخراجه من سوريا واحتوائه في مصر - وخلق عازل حاجز بين مصر وسوريا .



في نهاية سنة ١٨٣٨ كتب قائد الجيوش البريطانية - وقاهر "نابليون" - اللورد "ولنجتون" تقريرا إلى اللورد "المارستون" يقول فيه ملخصا أحوال الشرق الأدنى كما يلي :

"في هذا العام نشبت أزمة خطيرة بين مصر وتركيا نتيجة لتناقضات وصراعات سببها وإلى مصر . فقد استطاع "محمد علي" في عشر سنوات أن ينشئ أسطولا وجيشا يفوقان كل ما يحتاجه للضرورات الشرعية لحكومته . واستطاع بتصرفات متمسمة بالطغيان والاضطهاد ضد شعبه أن ينشئ جيشا في حجم ليس له ما يبرره . فقد جند مائة ألف رجل وحشدهم ضد سيده الخليفة العثماني ، ورمى جانباً قناع الولاء الذي يتظاهر به ، وأعلن أمام قناصل الدول في مصر أنه يريد إعلان استقلال مصر ، كما أنه يطالب بضم سوريا . ونجح "محمد علي"

فعلا فى أن يشن حربا ناجحة ضد الخلافة ، وتقدم بجيوشه حتى "نصيبين" على الحدود التركية السورية . ولم تقتصر قوة "محمد على" على جيشه البرى ، وإنما تمكن أسطوله أيضا من هزيمة الأسطول التركى . وخاف قائد الأسطول التركى بعد هزيمته أن يعود إلى استانبول ويلقى عقابه ، وهكذا قرر بعمل من أعمال الخيانة أن ينضم بجيشه إلى دكتاتور مصر المنتصر ، وأخذ أسطوله إلى الإسكندرية ووضع سفنه - وعليها عشرون ألف بحار - تحت تصرف "محمد على" . إن هذه الأوضاع تتطلب تصرفا سريعا من الحكومة الإنجليزية كما تتطلب تدخلًا عاجلا يتكفل بإعادة "الباشا" الذى يتصور نفسه لا يقهر إلى عقلسه وإلى الخضوع والطاعة للسلطان .

إن "المارستون" لم يكن يحتاج إلى أكثر من هذا لكى يقتنع بضرورة العمل وبأسرع ما يمكن أمام القوة الجديدة البارزة فى مصر . وكان أكثر ما ضايقه أن "محمد على" بأسطوله المصرى الأصلى ، وبالأسطول التركى الذى انضم إليه ، يمكن أن يصبح قوة مؤثرة فى البحر الأبيض وحول شواطئه ، فهو يستطيع إنشاء دولة عربية قوية فى مصر ، أو يستطيع أن يزحف إلى استانبول لتجديد شباب الخلافة العثمانية ، وفى الحالتين يخلق قوة تتصدى للمحاولات الأوروبية لاقتسام تركية العثمانيين ، وهذه كلها أمور لم تكن السياسة الإنجليزية على استعداد لقبولها . وهكذا نشط "المارستون" يحشد تحالفا ضد "محمد على" تنضم فيه إلى إنجلترا كل من روسيا والنمسا وبروسيا . وكان أن أعلن هذا التحالف فرض حصار على الموانئ المصرية وعلى موانئ الشام . وفى أجواء الحصار بدأ العملاء السريون لبريطانيا يثيرون الفتن بين الطوائف والأقليات فى الشام مستغلين الظروف الاقتصادية التى نتجت عن الحصار ، خصوصا وأن أسطول "محمد على" (المصرى والتركى) تعرض لغارة بحرية ساحقة فى خليج "نافارينو" . وكانت الخطوة التالية هى قيام الأساطيل الإنجليزية والروسية والنمساوية والبروسية بتركيز مدافعها على مواقع وطرق مواصلات جيوش "محمد على" فى الشام ، حتى يضطر إلى التراجع أو تنقطع قواته فى الشام عن قواعدهما فى مصر !



فى هذه الظروف بدت هزيمة "محمد على" محققة ، وأصبح محتما عليه أن ينسحب من سوريا ويدعم موقعه فى مصر إذا استطاع^(١٦) . وكان الموقف فى الشرق الأدنى كله معقدا.

(٢) بعد نحو قرن ونصف قرن من الزمان كان "جمال عبد الناصر" أمام تجربة مشابهة فى خطوطها العامة لذلك الموقف الذى واجهه "محمد على" ، وذلك عندما تكاثفت قوى عديدة دولية واقليمية على ضرب تجربة الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٦١ .

وكانت ورقة "نابليون" اليهودية تطرح نفسها بإلحاح مستمر على السياسة الإنجليزية في هذه المنطقة الواقعة في قلب العالم . وتداخلت العناصر والاعتبارات حتى أصبحت معضلة ، ف "بالمرستون" لا يريد موت الرجل المريض الآن ، كما أنه لا يريد له العافية في نفس الوقت. ويلخص الزعيم الصهيوني "ناحوم سوكولوف" هذه المعضلة في مذكراته على النحو التالي بالنص :

- ١ - إن السلطان وحده وبغير مساعدة لا يملك القوة الكافية للاحتفاظ بسوريا .
- ٢ - إن مصر لا حق لها في سوريا إلا إذا خشيت من خطر يجسىء إليها عن طريق تركيا .
- ٣ - إن مصر لها الحق في الاستقلال إذا استطاعت أن تحصل عليه .
- ٤ - ولكن عودة سوريا لتكون جزءا من تركيا سوف تظل باستمرار تهديدا لمصر .
- ٥ - وإذا ظلت سوريا جزءا من مصر فذلك سوف يجعل تركيا غير آمنة .
- ٦ - وإذا أحست تركيا بعدم الأمان فذلك سوف يهدد السلام في أوروبا ، ونتيجة لذلك فمن الضروري إنشاء كيان عازل يفصل بين مصر وتركيا ويبقى كلا منهما في مكانه ويمنع أيهما من أن يصبح أقوى مما ينبغي !!"

ويستطرد "سوكولوف" من هذا السياق إلى أن تلك كانت الفرصة الذهبية أمام الحركة اليهودية لكي تملأ هذا الفراغ وتطالب "ببعث إسرائيل من جديد" ، فهذا هو الحل للمشكلة اليهودية ، وجزء من الحل بالنسبة للمسألة الشرقية لأنه يؤجل طرح مسألة خلافة الدولة العثمانية إلى موعد لاحق يكون الجميع قد استعدوا له !

وكان ذلك تقريبا هو المنطق الذي تبناه رئيس وزراء بريطانيا اللورد "بالمرستون" . ففي ١١ أغسطس ١٨٤٠ كتب إلى سفيره في استانبول اللورد "يونسونبي" بتعليمات جاء فيها ما يلي :

"عليك أن تقنع السلطان وحاشيته بأن الحكومة الإنجليزية ترى أن الوقت أصبح مناسباً لفتح أبواب فلسطين أمام هجرة اليهود إليها . لقد حان الوقت لكي يعود هذا الشعب المشرى إلى أرضه التاريخية . إن السلطان وحاشيته قد لا يفتنمان بهذا المنطق الأخلاقي ، ولذلك عليك أن تجعلهما يدركان أن اليهود في العالم يملكون ثروات ضخمة ولديهم كنوز من المال وفيرة . وإذا حصلوا على حماية السلطان فسوف يكون في مقدوره أن يقنعهم بمساعدته ، وهم بلا شك سوف يقدرّون عطفه عليهم .

عليك أن تذكر السلطان وحاشيته بأنه يقوم الآن بين اليهود المبعثرين في كل أوروبا شعور قوى بأن فرصتهم في العودة إلى فلسطين آخذة في الاقتراب . ومن المعروف جيدا أن يهود أوروبا يمتلكون ثروات كبيرة ، ومن المؤكد أن أي قطر يختاره اليهود ليستوطنوا فيه سوف يحصل على فوائد عظيمة من ثروات هؤلاء اليهود . فإذا عاد الشعب اليهودي تحت حماية ومباركة السلطان إلى فلسطين فسوف يكون ذلك مصدر ثراء له ، كما أنه سوف يكون حائلا بين "محمد على" أو أي شخص آخر يخلفه وبين تحقيق خططه الشريرة في الجمع بين مصر وسوريا وتهديد الدولة العلية .

وحتى إذا لم يؤد هذا التشجيع الذي يمنحه السلطان لليهود إلى استيطان أعداد كبيرة منهم في فلسطين ، فإن إصدار قانون يعطيهم حق الاستيطان سوف يعمل على نشر روح من الصداقة تجاه السلطان بين جميع يهود أوروبا ، وسوف ترى الحكومة التركية على الفور أنها كسبت أصدقاء أقوياء ومفيدين بقانون واحد من هذا النوع .

وفي رسالة تالية بتاريخ أول ديسمبر ١٨٤٠ يكتب "المارستون" إلى سفيره في استانبول "أن يسمى لاقتناع حاشية السلطان والسلطان نفسه بأن "محمد على" قد يحاول مرة أخرى ، وإذا تركت له الفرصة فإنه سوف يعود مرة أخرى إلى دمشق ويعلم فيها تأسيس خلافة جديدة تعيد ذكريات الخلافة الأموية ، ويدعو العرب منها إلى إنشاء إمبراطورية كبيرة تجمعهم وتؤثر على الموازين في الشرق الأدنى والبحر الأبيض ، وسوف تتكفل هذه الإمبراطورية إذا قامت بتهديد تركيا وربما إنهاء وجودها كدولة . والحل السريع الممكن هو إقامة عازل بين الدولة العثمانية وبين طموحات "محمد على" أو خلفائه ، وعلى السلطان وحاشيته أن يدركا أن مطامع "محمد على" لا تقتصر فقط على شرق البحر الأبيض وإنما تمتد مطامعه أيضا إلى البحر الأحمر وحتى عدن لكي يؤكد سيطرته الإمبراطورية . إن العازل الذي يمكن التفكير فيه هو توطين اليهود في فلسطين ، لأن ذلك يجعل منهم شوكة في خاصرة "محمد على" تمنعه من تهديد تركيا من ناحية ، كما تردعه عن العريضة في البحر الأحمر كما يحلم . إن الحكومة الإنجليزية سوف تكون مستعدة إذا ما قبل السلطان بمشورتها أن تضع المستعمرات اليهودية في فلسطين تحت حمايتها لكي يكون ذلك تحذيرا دائما لـ "محمد على" حتى يرتدع عن تهديد الدولة العلية ."

ثم يعود "بالمستون" بعد شهرين فيكتب إلى سفيره في تركيا :

"عليك أن تلح على السلطان أنه سوف يستفيد فائدة كبرى إذا ما قام بإغراء وتشجيع اليهود المبعثرين في أوروبا بالذهاب والتوطن في فلسطين . إن السلطان سوف يدرك أن اليهود في فلسطين سوف يطلبون نوعا من الأمان الحقيقي والملموس ، ولا ترى الحكومة الإنجليزية مطالبته بأن يتحمل عبء هذا الأمان ، ولذلك فنحن نقترح أن يكون في استطاعة هؤلاء اليهود أن يعتمدوا على حماية إنجلترا ، وأن يكون من حقهم أن ينقلوا شكاوهم إلى الباب العالي عن طريق السلطات الإنجليزية ."

ومن المثير للتأمل أن عدد اليهود في فلسطين في ذلك الوقت كان ٣٢٠٠ نسمة .

كانت لندن تمشي على خطأ باريس ، وكان "بالمستون" يقتفي أثر "نابليون" .

ومن سوء الحظ أن الذين يعنيههم الأمر في المنطقة لم يكونوا واعين لما يدبر لهم .



بالرستون

” بريطانيا تريد جمهورية يهودية ،
وفرنسا يجب أن تصر على مملكة مسيحية
عاصمتها القدس “
(الشاعر الفرنسي ”الفونس دى لامارتين“
فى خطاب أمام مجلس النواب الفرنسى)

فرضت القوى الأوروبية على ”محمد على“ (باشا) بعد هزيمة سنة ١٨٤٠ معاهدتين ،
أولاهما خاصة بحقه فى ولاية مصر ووراثتها فى خلفائه من بعده ، وكانت أهم بنودها
ثلاثة بالترتيب التالى :

- ١ - وقف عملية التصنيع الكبيرة التى كان مندفعاً إليها .
- ٢ - تقليص حجم الجيش المصرى إلى الحد الكافى لحفظ الأمن داخل مصر .
- ٣ - فتح مصر للتجارة الدولية بدون عوائق أو قيود .

وأما المعاهدة الثانية التى فرضت عليه ، فقد كان غريباً أن يكون عنوانها ”معاهدة لنسدن
لتهدئة الأحوال (Pacification) فى سوريا“ . وكان ظاهر نصوصها تحقيق خروج ”محمد
على“ من سوريا . وفى حقيقة الأمر فقد كانت هذه هى المعاهدة التى تمهد المسرح لهجرة
يهودية واسعة إلى فلسطين ، ولتحقيق المطلب الأساسى فى إرث ممتلكات الخلافة العثمانية
فى الشرق ، وبالتحديد فى تلك الزاوية الاستراتيجية الهامة المحيطة بشرق البحر الأبيض
والتي تمثلها مصر وسوريا .

وفي هذه المرحلة فإن المذكرات الشخصية للساسة في خلوتهم تكشف من الحقائق أكثر مما تكشفه أوامرهم إلى سفرائهم ووزرائهم . وربما أن مذكرات اللورد "شافتسبري" - صهر رئيس الوزراء "بارستون" وأقرب الأصدقاء إليه - هي في ذلك الوقت من أكثر الوثائق تعبيراً عن النوايا والخطط والتحركات . ويوم ٢٤ أغسطس ١٨٤٠ كتب اللورد "شافتسبري" في مذكراته ما يلي :

"افتتاحية جريئة التاييمز التي فرغت من قراءتها الآن تثير مخاوفي ، كما أنها تسعدني في نفس الوقت . تفلقني لأنها قد تكون كشفاً مبكراً عما نريد تحقيقه ، وقد يكون في ذلك ما يستعدى قوى وعناصر كثيرة ضد المشروع في وقت لا يزال فيه هذا المشروع يحتاج إلى جهد كبير لتعزيز إمكانية وفرصة تنفيذه . لكنها تسعدني من ناحية أخرى لأنها تتحدث بصراحة عن أن اتفاقية لندن لتهدئة الأحوال في سوريا تمهد الطريق لعودة اليهود إلى وطنهم في فلسطين ، وهذا انتصار لأفكار وخطط ناقشناها واقتنعنا بها .

قال لي البارستون إنه كتب إلى اللورد بونسونبي - سفيرنا في استانبول - يطلب إليه أن يفتح خطاً مباشراً مع رشيد باشا لكي يبذل جهده مع السلطان في إقناعه بتجسيع هجرة اليهود إلى فلسطين ، وفي طمأننته إلى قدرتنا على حمايته هناك ."

وفي يوم ٢٥ سبتمبر ١٨٤٠ كتب اللورد "شافتسبري" في مذكراته يقول :

"بدأت في إعداد مذكرة لبارستون عن مشروعنا . لاحظت أنني استعملت كلمة "استدعاء (recall) اليهود إلى وطنهم" ، ويخطر لي أن كلمة "استدعاء" قد تكون قوية بآكثر مما هو لازم، ومن الأفضل تغييرها إلى كلمة "السماح" (permission) . إن من المهم جداً أن يكون لدى رئيس الوزراء مخطط واضح للعمل .

مقالة التاييمز اليوم ممتازة ، فهي تتحدث عن مشروعنا لزراعة الشعب اليهودي في أرض آباءه تحت حماية القوى العظمى الخمس ."



وفي ٥ أكتوبر ١٨٤٠ يكتب اللورد "شافتسبري" في مذكراته فيقول :

"نحتاج إلى معلومات أكثر حول عدد من المسائل المهمة فيما يتعلق بعودة اليهود إلى فلسطين :

- ١ - ما هو شعور اليهودى العادى تجاه مسألة العودة إلى الأراضى المقدسة ؟
 - ٢ - هل يمكن أن يعود إلى فلسطين هؤلاء اليهود الذين يملكون ثروات وعقارات ، وهل سوف يحملونها معهم إلى هناك ؟ وكيف يتمسرون إمكانية توفير الحماية لهذه الأموال والممتلكات ؟
 - ٣ - فى أى مدى زمنى يستطيع اليهود أن يعودوا إلى فلسطين ؟
 - ٤ - هل يعودون على نفقتهم دون حاجة إلى أى شىء آخر سوى حماية الأشخاص والممتلكات؟
 - ٥ - هل يرضون بأن يعيشوا تحت قوانين الدولة التى تحكم فى الأرض المقدسة كما يجدونها مع توفير ضمان دولى لهم تقدمه الدول الأوروبية ؟
- إننا نحتاج إلى إجابات عن هذه الأسئلة لكى نستطيع أن نمشى فى مشروعنا بخطى واقعية ثابتة ."

كان مجمل الظروف فى أوروبا ذلك الوقت يجيب فى الواقع على كل الأسئلة التى طرحها اللورد "شافتسبرى" فى يومياته . وقد تعرض لها اللورد "ليندساي" فى مذكراته عن رحلاته إلى مصر والأراضى المقدسة . ويمكن استخلاص ما توصل إليه فى عدة استنتاجات تظهر واضحة فى تقرير بعث به إلى رئيس الوزراء "المرستون" ، ويمكن ترتيبها على النحو التالى :

- ١ - إن الأرض المقدسة ليست فيها قاعدة يهودية كافية تستطيع أن تتحمل عبء هجرة يهودية مؤثرة ، على فرض أن هذه الهجرة كانت جاهزة .
- ٢ - إن يهود الشرق (يهود مصر وسوريا وتركيا بالدرجة الأولى) ليسوا متحمسين للعودة إلى فلسطين ، ويخشون أن كثرة الحديث عن هذه العودة سوف تعرضهم حيث هم لمشاكل لا قبل لهم بها .
- ٣ - إن غالبية بين اليهود لا تريد أن تذهب إلى فلسطين لكى تجد نفسها تحت حكم إسلامى يتمثل فى دولة الخلافة التى استعادت الحكم فى سوريا بعد هزيمة "محمد على" .

٤ - إن الاستعداد للهجرة يمكن أن يقتنع به يهود الشرق (شرق أوروبا) ، ولكن اقتنصار الهجرة عليهم سوف يجعل من فلسطين "جيتو" آخر (أى حارة أو حى يهودى آخر) من اليهود الشرقيين تحت حكم استانبول .

٥ - إن اليهود الأقرب إلى تقبل فكرة الهجرة هم من الشيوخ الذين أتاحت لهم قراءة "التلمود" ودراسته ، وأما شباب اليهود فإن اتجاههم ينزع عموماً إلى الاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها الآن ، وحيث ألفوا معيشتهم ، وحيث يأملون أن يؤدي اندماجهم في هذه المجتمعات إلى ممارسة حياتهم مستقبلاً دون تمييز ضدهم أو اضطهاد .

٦ - إن اليهود عموماً - شيوخاً وشباباً - لا يعرفون ما فيه الكفاية عن فلسطين ، وليسوا واثقين من أن أحوالها تسمح لهم باستيطانها ، وهم في أغلبهم يعتبرون أن أرض صهيون الجديدة هي أمريكا وليست فلسطين .

٧ - إنه لاحظ أن كثيرين من حاخامات اليهود أنفسهم ، على عكس أغنياء اليهود في أوروبا ، ليسوا متحمسين لعودة اليهود إلى فلسطين . ومن منظورهم التوراتي فإن هذه العودة لا يمكن أن تبدأ إلا بظهور المسيح المخلص الذي يتولى قيادة شعبه إلى هناك . وهذا المسيح لم يظهر بعد .

٨ - إنه يخشى أن كثرة الحديث عن العودة الآن قد تنبه أطرافاً في دولة الخلافة ، وتدعوها إلى مقاومة المشروع في وقت لم يستكمل فيه أسباب قوته .

٩ - إنه من ناحية عملية لا يوجد تنظيم يهودي جاهز يستطيع أن يقود شعبه إلى هذه العودة . وبالتالي فقد يكون من الأفضل لنجاح المشروع أن ينتظر ظروفًا أفضل من الظروف الحالية ويكون اليهود فيها قد أنشئوا تنظيمهم ومؤسساتهم التي تتحمل بمسئولية عملية العودة.

ومن المفارقات أن تعليق رئيس الوزراء البريطاني على هذا التقرير كان قوله طبقاً للورد "شافتسبري" :

"يظهر أنه من السهل أن تقتلع اليهود من الـ "جيتو" (حارة اليهود) ولكنه ليس من السهل أن تقتلع الـ "جيتو" من اليهود ."



وكانت فرنسا تتابع عن بعد مشروعات وخطط "بالمرستون" . في باريس - حتى بعد هزيمة "نابليون" - ما زالت تجتري بعض خططه في المشرق على الأقل في كلامها ، كما أنها في مرحلة من المراحل وقفت وراء "محمد علي" وأيدته . وربما أخطر من ذلك فإن فرنسا لم تكن نسبت كل أحلام الحروب الصليبية ، لكنها وهي تتابع جنحت مشاعر كثيرين فيها - ولو بمجرد العداء لبريطانيا ولكل شيء تقوم به - إلى سياسة مختلفة . وكتب السفير الإنجليزي في باريس إلى رئيس الوزراء "بالمرستون" خطاباً يقول له فيه :

”هناك مشاعر بالشك تتزايد في باريس إزاء مشروعات إنجلترا في الشرق الألباني . وشهد مجلس النواب الفرنسي مناقشات حادة حول هذا الموضوع . ومن بين الذين تكلموا فيه المسيو ”لامارتين“ (يقصد الشاعر الشهير ”الفونس دي لامارتين“ ، وكان في ذلك الوقت عضواً في مجلس النواب الفرنسي) . إن المسيو ”لامارتين“ وقف يقول : ”إنه من الأولى لفرنسا أن تفكر في إقامة دولة مسيحية على منابع الأردن شاملة لجبل لبنان بشرط أن تكون القدس عاصمتها . وإذا استطاعت فرنسا أن تحقق هذا الحلم فإن ذلك يكفيها مجداً وعظمة عن أي بقعة أخرى في الأرض . إن اللورد بالمستون يفكر في إقامة جمهورية يهودية ، فلنطلب إليه أن يختار مكاناً آخر يحقق فيه ما يحلم به . ولكن فرنسا يتحتم عليها أن تسعى وأن تصمم على قيام مملكة مسيحية عاصمتها القدس .“ !

كانت هذه التصورات كلها بذوراً تحملها الرياح إلى منطقة سواحل شرق البحر الأبيض ووديانه وسهوله ، وشعوبه وممالكه .

● من ناحية كانت هذه بذور استراتيجيات إمبراطورية – اقتصادية سياسية عسكرية – استخدمت كل شيء حتى الأساطير الدينية .

● ومن ناحية أخرى كانت هذه بذور ”مقدسات : محرمات“ سوف تنشأ يوماً إذا استيقظت المنطقة وعادت طرفاً في صنع التاريخ ، وليس لعبة في يد هؤلاء الذين يعطون للقوة حقاً وحيداً في صنعه !

إن أهل المنطقة المعنية : مصر وسوريا وفلسطين ، لم يتصل بهم أحد في ذلك الوقت ولا سمع رأيهم ، ولم يفاوضهم طرف أو يشركهم في رسم الخرائط وتخطيط الحدود .

فالرياح في العادة لا تسأل الأرض التي تلقى عليها أحمالها من البذور – أو غيرها مما تحمله – عن شعورها أو فكرها أو مطلبها ، وإنما هي قوة واحدة عاتية ترمى بما عندها ، وأرض رخوة موحلة تتلقاه سواء أزدت أو لم ترد !

وكانت تلك هي البداية لاستراتيجية عظمى ، شديدة الأساس ، بعيدة النظر ، ترسم لنفسها ما يناسب هواها !

الفصل الثانی

خريطة تبحت عن أرضها!

” إذا كان من الخطأ
تصوير التاريخ وكأنه مؤامرة ، فالأشد تورطاً في
الخطأ تصويره وكأنه مصادفة ”

روتشيلد

” أنتم طردتم محمد علي من الشام
ولكنكم تركتم وراءه فراغا لم يملأه أحد “
(البارون ”روتشيلد لرئيس وزراء بريطانيا)

من الصعب نسبة استراتيجية كاملة لإمبراطورية بأسرها إلى عنصر واحد أو إلى مطلب بعينه . فمن الطبيعي أن العناصر تتعدد وتتقابل وتتقاطع بحيث يخرج منها تصور إستراتيجي واسع تتواصل عملية ترتيبه على مراحل تتفاعل مع متغيرات الظروف . وبالتالي فإنه من التعسف افتراض أن الهدف الوحيد للسياسة البريطانية في المشرق كان تحقيق الفصل بين مصر وسوريا ، وزرع وطن قومي لليهود فاصلا بينهما عند نقطة الاتصال بين ضلعي الزاوية الاستراتيجية الكبرى في جنوب شرق البحر الأبيض .

كانت هناك عناصر أخرى بالتأكيد ، منها مطالب تأمين خطوط المواصلات الإمبراطورية مع الهند ، ومنها مطالب السيطرة على طرق التجارة البحرية ، ومنها مطالب الصراع على البحر الأبيض والبحر الأحمر ، ومنها مطالب لندن في تأكيد مركزها المالي والتجاري الحاكم . ومع ذلك فإن هذه المطالب كلها ، وهي حقائق واقعة ، لا تنفي أنه في تلك الفترة من منتصف القرن التاسع عشر كان فصل مصر عن سوريا - وإنشاء عازل بينهما - مطلباً من أهم وأعز مطالب السياسة البريطانية . وهذه عملية تواصلت خطاها ظاهرة وواثقة على خط ممتد من معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ وحتى صدور ”وعد بلفور“ سنة ١٩١٧ .

وفي أعقاب توقيع معاهدة سنة ١٨٤٠ مباشرة كانت الخطوة البريطانية الأولى هي تمهيد الأرض في سوريا أخذاً في الاعتبار أن فلسطين في ذلك الوقت كانت بأكملها ولاية من ولايات الشام .

وكانت أول حركة قام بها رئيس وزراء بريطانيا "بالمرستون" هي إرسال منشور سرى إلى كل قنصلا إنجلترا في دمشق وحلب والقدس وبيروت وحيفا يقول فيه بالنص ما يلي :

"إننا خرجنا بعد هزيمة محمد علي وإخراجه من الشام (Levant) ونحن والأتراك حليفان وبيننا تعاون لا بد أن نحرص عليه ، ونحن لن نخذلهم في أمره . ولكن ذلك لا يجب أن ينعنا من تنفيذ ما تقتضيه سياساتنا في المنطقة .

إن الأتراك يعرفون ما ينبغي عليهم عمله تجاه اليهود في هذه المنطقة ، ولكنه من المتعين علينا أن نتابع ذلك بجهود منظم هدفه أن نتأكد من أن اليهود لا يتعرضون هناك لأي تمييز ضدهم أو اضطهاد . ونحن مطالبون الآن بأن نجعل اليهود يثقون بنا ، وأن يتأكدوا أن حكومة إنجلترا تعتبر نفسها مسئولة عن سلامتهم وراغبة في حمايتهم ومصمة على ذلك .

إنني أرى أنه من الضروري أن يكون هذا التمهيد معروفا لكل اليهود في الشام ، بمن في ذلك اليهود من رعايا دول أخرى غير إنجلترا . ولا بد أن يعرف اليهود النمساويون أو الفرنسيون ، أو الأوروبيون بصفة عامة ، أنه يحق لهم أن يلجئوا إلى القنصل البريطاني لحمايتهم في حالة تقصير قنصل دولهم الأصلية عن توفير هذه الحماية . فكلهم يجب أن يستقر في وعيه أن إنجلترا هي حامية اليهود ."

وبالفعل فإن توجيهات "بالمرستون" - كما وردت في منشوره - بدأ تنفيذها في الشام بهمة استعدت أن يقوم حاخام القدس - باسم سكانها اليهود - بإرسال حجاب واق من الشر إلى الملكة "فيكتوريا" ، وقد سلم لها الحجاب فعلا سنة ١٨٤٩ ، وجرى ذلك في أعقاب مؤتمر يهودى صغير عقد في لندن برعاية عائلة "روتشيلد" ، وانتهى إلى إعلان مطلبين :

١ - إعلان قبول "يهود العالم" - !! - للحماية الإنجليزية لهم حيثما كانوا .

٢ - التوجه بالرجاء للحكومة الإنجليزية بأن تسهل لليهود استعمار فلسطين على نمط ما يحدث في مناطق أخرى .

وكان المقصود بهذه الإشارة إلى "مناطق أخرى" هو حركة الاستيطان الأوروبى الدائرة وقتها على قدم وساق في جنوب أفريقيا وأستراليا وكندا . فقد كان ذلك عصر الهجرات الاستيطانية المسلحة ، وكان اليهود يطلبون المعاملة بالمثل فيما يتعلق بفلسطين .

ويكتب اللورد "شافنسبرى" في مذكراته :

"ذهبت ومعى البارون روتشيلد لمقابلة بالمرستون . وكان روتشيلد مؤثرا إلى أبعد درجة وهو يقول للبارون مشيراً إلى خريطة كانت أمام رئيس الوزراء :

"إنكم طردتم محمد علي من هنا" (مشيرا إلى الشام - Levant) "ولكنكم تركتم بعده فراغا . إن الأتراك عادوا إلى الشام بعد رحيل محمد علي ، وكل الناس يعرفون أن السلطان مهزوم وأنه ما كان يستطيع العودة إلى دمشق إلا بفضل قوتكم . ولذلك فحكمه في الشام ضعيف ، والأحوال فوضى ، والطوائف تتناحر ، وهناك فراغ لا شك فيه" . ثم وصل روتشيلد إلى الذروة الدرامية في حديثه حين قال لرئيس الوزراء : "إنكم خلعتكم من هنا قوة شريرة ، لكنها كانت مسيطرة وقادرة على ضبط الأمور . والآن يتحتم عليكم أن تضعوا بدلا من ذلك قوة أخرى تسيطر وتضبط الأمور ولا تكون شريرة ... وطن قومي لليهود" .



كان رئيس وزراء بريطانيا يتلقى تقارير عن الأحوال في سوريا من مصادر مختلفة كان بينها السير "موسى مونتيفيوري" ، وهو شخصية بريطانية معروفة في ذلك الوقت بنشاطها في مجال الجمعيات الخيرية . وقد تكررت رحلاته إلى الشرق ، بما فيها سبع زيارات لفلسطين . وكان الهدف الواضح لاهتمام "مونتيفيوري" بالشرق هو العمل على فتح أبواب هجرة اليهود إلى فلسطين ، متأثرا في ذلك الوقت بمناخ عام اتسع تأثيره في لندن .

وفي أول زيارة لـ "مونتيفيوري" إلى المنطقة ، سئحت له الفرصة لأن يقابل "محمد علي" (باشا) في مصر وأن يتحدث إليه في موضوع هجرة اليهود إلى فلسطين ، وكانت في ذلك الوقت تحت حكمه ... ولاية من ولايات سوريا . وكان رد "محمد علي" - طبقا لكتابات "مونتيفيوري" ولليوميات المنظمة التي كانت تكتبها زوجته - : "إنه شخصا يتفهم ما يسمعه من السير موسى (مونتيفيوري) ، ويتعاطف مع ما يعاني منه اليهود في أوروبا ، لكن القرار في شأن فتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود إليها هو أمر يتصل بسلطة الخليفة العثماني" .

ويمكن استنتاج أن والي مصر الذكي راودته الشكوك حول حقيقة ما يعرض عليه ودوافعه الخفية . وبالتالي فإنه أحال الأمر - عكس تصرفه في مسائل كثيرة - إلى الباب العالي في استانبول . لكنه ليس هناك دليل قاطع في كل وثائق تلك الأيام على أن "محمد علي" رأى القصد مبكرا ، وحاول أن يتوقاه محيلا قراره إلى استانبول .

وبعد هزيمة "محمد علي" فإن "مونتيفيوري" وغيره لم يعد أمامهم غير التركيز على لندن ، خصوصا وأن أبواب استانبول أصبحت مواربة ، لا هي مقفولة ولا هي مفتوحة ، لأن الضغوط اليهودية حاولت أن تستغل هزيمة "محمد علي" وتدفع بموجات هجرة مؤثرة من أوروبا إلى فلسطين . وذلك أدى إلى إحراج السلطان الذي عاد إلى دمشق ضعيفا - كما

وصفه "روتشيلد" في حديثه إلى "المرستون" - وبسبب هذا الضعف فإن السلطان وقع تحت ضغوط عناصر في بلاطه تتخوف من هجرة اليهود إلى فلسطين على نطاق واسع ، وكانت وراء هذه الضغوط إحياءات إسلامية ، كما كان وراءها تأثير علاقات بين رجال بلاطه وبين كثيرين من الحكام والعلماء العرب والمسلمين في الشام نفسها .

وعاد "مونتيفيوري" من إحدى رحلاته إلى المنطقة ليقابل "المرستون" ويقول له (طبقا لمذكرات ليدى "مونتيفيوري") : "إنه لاحظ أثناء زيارته لاستانبول أن حماسة الباب العالي لليهود بردت تحت تأثير عناصر متعصبة تحيظ به . وقد حاولت إفهامهم أنه لا داعي لقلقهم ، فليس كل يهودى على الأرض مستعدا للذهاب إلى فلسطين أو راغبا فى ذلك . وبالتالي فليس للسلطان أن يخشى من ظهور ملايين من اليهود على شواطئ فلسطين . إن ما تريده أبسط من ذلك وأهون . فنحن لا نريد إلا أن يكون اليهود - مثلهم مثل الإنجليز والهنجاريين والألمان واليابانيين - أصحاب بلد يمكن أن يصبح ملكا لهم ، وعاصمته هى القدس ."

ومع مطالع الخمسينات من القرن التاسع عشر كانت الحمى اليهودية فى إنجلترا قد بلغت مداها ، فى تناسق وتناغم ملحوظين مع موسيقى المارشات العسكرية التى ترافق التوسع الإمبراطورى البريطانى عبر البحار . وفى هذه الفترة نشر الدكتور "توماس كلارك" ، وهو أحد أبرز أساتذة التاريخ فى جامعة "أكسفورد" ، كتابه الشهير بعنوان "فلسطين لليهود" . وترافق ذلك مع نشر المجموعة الكاملة للأغاني العبرية التى كتبها الشاعر الإنجليزى الكبير اللورد "بايرون" ، وذاعت بينها قصيدة جديدة تقول :

"اطلع أيها الإله العظيم ودع قدرتك تتجلى

وارسل أشعتها مضيئة ودافئة على أبناء يعقوب

وأعد فلولهم التائهة إلى أرضهم الموعودة هناك

وأهدم لكى يذهبوا إلى فلسطين فهى وطنهم"

لم يكن الساسة المنمكوفن فى بناء الإمبراطورية من أمثال "المرستون" ، أو الراسماليون اليهود الراغبون فى تصدير يهود الشرق إلى فلسطين للتخفيف عنهم من أمثال "روتشيلد" ، ولا العسكريون المطالبون بفصل مصر عن الشام وحجز القوة المصرية فى أفريقيا من أمثال "ولنجتون" ، ولا المحسنون من أمثال "مونتيفيوري" ، ولا الشعراء من أمثال "بايرون" ، هم وحدهم الذين يدفعون الأمور فى اتجاه فتح أبواب فلسطين أمام هجرة اليهود ، ولكن الحوادث نفسها راحت تزيد من ضغطها بما يساعد هذا الاتجاه . ففى تلك الفترة (١٨٥٤) قامت الحرب فى شبه جزيرة القرم ، وأدت معاركها إلى تدفق عشرات ألوف

من يهود البلقان مهاجرين ينشدون مساعدة أبناء دينهم في أوروبا الغربية . وهكذا بدأت ضغوط الحوادث تضيف قوتها إلى ضغوط الاستراتيجيات الكبرى الإمبراطورية والعسكرية والمالية ، فضلا عن أحلام المحسنين وأوهام الشعراء .

كانت الحوادث أيضا قد دفعت إلى القمة في بريطانيا بجيل جديد من الساسة الإنجليز لم يكونوا أقل حماسة للمخططات القديمة من أسلافهم . ففي ذلك الوقت راح يتناوب على رئاسة الوزارة في إنجلترا اثنان من الساسة هما "جلادستون" - البروتستانتى - و "دزرائيلى" الذى كان أول وآخر يهودى يتولى رئاسة الوزارة فى بريطانيا . وكان كلاهما صهيونيا :

أولهما ("جلادستون") صهيونى بالمعنى المسيحى للكلمة . أى هؤلاء الذين يؤمنون دينيا بحرفية ما جاء فى العهد القديم عن "عودة اليهود" إلى فلسطين .

والثانى ("دزرائيلى") صهيونى بالمعنى اليهودى الذى أصبحت يهوديته - رغم إنجليزيته - جصرة تحت الرماد فى أعماقه .

وكان "دزرائيلى" الذى مارس فى بداية حياته هواية الكتابة والأدب ، قد أفشى مكنونات سره على السنة أبطال رواياته . فقد ورد على لسان أحد هؤلاء الأبطال مثلا قوله : "إن إنجلترا أكبر بكثير من أن يحولها بعض ساستها إلى مكتب محاسبات تجارى كبير .. إنجلترا لها قلب ولها ضمير ، ولهذا فهى تقف مع اليهود مدركة أن الله ذاته يحارب من أجل بعث إسرائيل ."

ولم يترك "دزرائيلى" جمرته تحت الرماد تتوهج على مواقف أبطال رواياته فقط ، وإنما ذهب يوما - طبقا لكتاباتة - يقول لـ "جلادستون" - منافسه فى رئاسة الوزارة وقتها - وكانت قوافل اليهود اللاجئين من حرب القرم فى البلقان تصل إلى عواصم أوروبا الغربية - ما نصه :

"أريدك أن تعرف أن الدول التى أحسننت إلى اليهود هى وحدها التى تقدمت وازدهرت" .

ولم يكن الأمر بالنسبة للثنتين - "جلادستون" أو "دزرائيلى" - قاصرا على الإيحاءات الدينية فقط ، وإنما كان كلاهما استعماريًا من الدرجة الأولى .

ثم إن كليهما فى ذلك الوقت بدأ يحس بالمنافسة مع فرنسا التى خرجت من دوامات الثورة الفرنسية وعواقب قيام إمبراطورية "نابليون" وسقوطها ، ومشاكل عودة "البروبون" ثم فشلهم ، إلى حكم "نابليون الثالث" الذى بدأ يستجمع خيوط دور فرنسى بدأت أسداؤه تسمع فى مصر بالتحديد .

كان "نابليون الثالث" هو الذى أعطى رعايته لمشروع حفر قناة السويس . وكانت زوجته الإمبراطورة "يوجينى" هى التى ركبت مع الخديو "إسماعيل" على السفينة المحروسة التى تقدمت قافلة العبور الأولى فى هذه القناة سنة ١٨٦٩ .

وبدا واضحا لكل من "جلادستون" و"دزرايلى" أن النفوذ الفرنسى فى مصر يتزايد فى عصر الخديو "إسماعيل" . وكان ذلك صحيحا إلى حد كبير ، وأن لم يكن سببه قصداً فرنسياً بقدر ما كان سبباً عملياً نشأ من حقيقة أن عشرات من المبعوثين إلى فرنسا فى عصر "محمد على" عادوا إلى مصر وراحوا يشغلون أهم المواقع فى إدارتها ، متأثرين بالطبع بكل ما تعلموه فى جامعات فرنسا ، وبكل مكتسبات ثقافتهم من الحياة فى باريس .

لكن "جلادستون" و"دزرايلى" كليهما كانت له وجهة نظر ومقاصد وخطط أخرى ، تربط ما يجرى فى مصر بما يجرى فى الشام ، خصوصاً وأن ذلك العصر شهد - أيضاً - تدفق آلاف من نخب الشام الفكرية والفنية إلى مصر هرباً من الاضطهاد العثماني فى أوقات ضعفت فيها هيبة الدولة وسلطانها ، ومن ثم عوضت عن ذلك بالبطش والعنف .

وبلغت النظر هنا فيما تقوله الوثائق الفرنسية - أن "نابليون الثالث" - إمبراطور فرنسا - طلب من موارنة لبنان - وهم جزء من الشام - أن يساهموا قبل غيرهم فى أسهم شركة قناة السويس لأن لهم مصالح متشابهة مع مصر .

وفى هذه الأجواء فقد كان وارداً ومحتملاً لأسباب كثيرة ، عديدة ومتشعبة ، أن تعود صلات مصر بالشام فتتجدد على نحو أو آخر .

وعادت السياسات القديمة تمارس مطالبها بقوة دفع جديدة ، وتركز هذه المرة على مصر .

دزرائيلي

"الذهب جاهز لإتمام الصفقة بأسرع ما
يمكن"
(البارون "روتشيلد" لـ "دزرائيلي")

إذا كان من الخطأ تصوير التاريخ على أنه مؤامرة ، فالأشد تورطاً في الخطأ تصويره على أنه مصادفة . والواقع أن التاريخ أفكار وخطط وإرادات أسمى وشعوب وأفراد ، وصراعات مصالح وقوى تطلب التفوق والغلبة ، وتسعى للمعرفة سعيها للغائدة .
إن سلسلة الحوادث الكبرى التي وقعت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في مصر وحوولها ، وبالذات في فلسطين ، تصعب نسبتها إلى عبث المصادفات .

● سنة ١٨٧٥ قام "دزرائيلي" بمساعدة "روتشيلد" بشراء الحصة المصرية في شركة قناة السويس . وبدأت القصة حينما عرف "هنري أوبنهايم" - وهو مالى يهودى من دائتى الخديو "إسماعيل" - أن و إلى مصر يريد أن يبيع أسهمه في شركة قناة السويس وأنه يبحث عن مشتر يأخذها سرا ويدفع ثمنها نقدا ، فهو يخشى أنه إذا عرف دائئوه برغبته مبكراً ، وإذا تم تحقيق هذه الرغبة بوسائل بنكية ، فإن هؤلاء الدائئين - وهم كثير - سوف يسبقونه بالحجز على ما قد يتحصل عليه من الصفقة . وسع مالى يهودى آخر (وصاحب جريدة في نفس الوقت) هو "جرينود" بالقصة من "أوبنهايم" ، وكان أن توجه على الفور إلى وزير خارجية إنجلترا - اللورد "ديريسي" وقتها - وأبلغه بما سمع ، وأخذته وزير الخارجية معه فوراً إلى مكتب رئيس الوزراء "دزرائيلي" معتبراً أن هذه فرصة لإنجلترا تضع فيها موطئ قدم في مصر .

روح "دزرائيلي" يفكر بسرعة ، والمعضلة أمامه هي رغبة الخديو في اتمام البيع سرا والحصول على الثمن نقدا . فهو من هذين الشرطين لا يستطيع أن يعرض الصفقة على البرلمان . ولم يطل تفكير "دزرائيلي" ، فقد وجد الحل بسرعة ، وبعث بسكرتيره الخاص اللورد "راوتون" ليحيى له بالبارون "روتشيلد" . وطلب "روتشيلد" من اللورد "راوتون" مهلة أيام يدبر فيها الأمر .

كان المبلغ المطلوب أربعة ملايين جنيه ذهباً ونقداً وعدا . وكان رئيس الوزراء يدرك أنه حتى "روتشيلد" لا يحتفظ بمثل هذا المبلغ جاهزاً في خزينته ، كما أنه لا يملك أن يتصرف في هذا الحجم من المال دون اتفاق فروع الأسرة كلها (فى فرنسا وألمانيا) . وبرغم ذلك فإن "دزرائيلي" فوجيء في الصباح التالي بوصول "روتشيلد" إلى مقره مبكراً يطلب ايقاظه من نومه ليبلغه أن "الذهب جاهز لاتمام الصفقة بأسرع ما يمكن" قبل أن يغير خديو مصر رأيه أو يتسرب سر الصفقة إلى آخرين .

وتدافعت أمواج متلاحقة في مجرى قناة السويس فاضت على ما حولها عبر سيناء :

● سنة ١٨٧٧ - بعد ما لا يزيد كثيراً عن سنة واحدة من شراء بريطانيا حصة الخديو في قناة السويس - كانت أسرة "روتشيلد" تمول إنشاء أول مستعمرة استيطانية لليهود في فلسطين على مساحة ٢٢٧٥ فداناً ، وهي مستعمرة "بتاح تكفاه" .

● في نفس السنة كانت الحكومة الإنجليزية تطلب من السلطان السماح له بإنزال قوات عسكرية في قبرص لأن تلك ضرورة عسكرية لمراقبة ما يجري في سواحل الشام عن بعد ، وذلك تطبيقاً لاتفاقية "المساعدة" الإنجليزية التركية التي عقدت بعد انتهاء حرب القرم ، والتي تعهدت إنجلترا للسلطان بمقتضاها أن تحمى ممتلكاته الشرقية . وكانت قبرص هي الموقع المثالي لمراقبة ومتابعة ما يجري في كل من مصر وسوريا .

● وسنة ١٨٨٢ تذرعت الحكومة الإنجليزية بوجود قلاقل في مصر (ثورة "عرابي") ، واتخذ مجلس الوزراء الإنجليزي قراراً يخول قائد القوات البريطانية اللورد "ويلسلي" باحتلال مصر وقمع الثورة العرابية . (وكانت التكاة التي استند عليها القرار البريطاني هي خروج "عرابي" باشاً عن طاعة خديو مصر ومن ثم حقوق السلطان) .

● في نفس السنة - سنة الاحتلال البريطاني لمصر - قام البارون "ادموند روتشيلد" بتنظيم أول هجرة جماعية يهودية إلى فلسطين ، وبهذه العملية فإن تعداد اليهود في فلسطين ارتفع من ثمانية آلاف إلى ٢٤ ألفاً .

وفي نفس الوقت كانت أسرة "روتشيلد" قد بدأت في جمع تبرعات ومساهمات طائلة لشراء أراض في فلسطين ، وكانت الواجهة الظاهرة لهذه العملية مؤسسة للاستثمار في الأرض الزراعية في المشرق .

• بلغت النظر بشدة في السنوات التالية مباشرة للاحتلال البريطاني ، حجم الزيادة التي طرأت على حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وتسارع إنشاء المستعمرات للمستوطنين القادمين . وفى ظرف عشر سنوات من احتلال الإنجليز لمصر تم إنشاء المستعمرات التالية :

- مستعمرة "كاترا" على مساحة ٥٠٠ فدان .
- مستعمرة "ريشون ليزيون" على مساحة ١١٨٠ فدان .
- مستعمرة "روش بينا" على مساحة ٣٨٠٠ فدان .
- مستعمرة "زيشرون جاكوب" على مساحة ١٨٥٠ فدان .
- مستعمرة "وادي الشانين" على مساحة ١١٨٠ فدان .
- مستعمرة "ايكرون" على مساحة ١٢٧٥ فدان .
- مستعمرة "كاستينا" على مساحة ٥٥٠ فدان .
- مستعمرة "روهوبوت" على مساحة ١٣٠٠ فدان .
- مستعمرة "أرتوف" على مساحة ٤٦٠ فدان .
- مستعمرة "أم الديشمال" على مساحة ٢٥٣ فدان .
- مستعمرة "الشويحة" على مساحة ٨٥١ فدان .
- مستعمرة "معاليه" على مساحة ٩١٠ فدان .
- مستعمرة "مشار هايردن" على مساحة ٢٣٠ فدان .
- مستعمرة "عين زيتون" على مساحة ٥٠٩ فدان .
- مستعمرة "ميتولا" على مساحة ١٣٥٠ فدان .
- مستعمرة "بن شيمين" على مساحة ٢١٠ فدان .
- مستعمرة "ملهامى" على مساحة ١٣٥٠ فدان .
- مستعمرة "عية" على مساحة ٢٧٥٠ فدان .
- مستعمرة "الخضيرة" على مساحة ١٧٥٠ فدان .
- مستعمرة "كيغار سابه" على مساحة ٤٦٠ فدان .

وإضافة إلى ذلك فقد ظهرت عشرات المستعمرات الأصغر حجما ، وكان بينها مستعمرة "بن يهودا" على مساحة ٣٥٠ فدانا ، وكان موقعها في شرق الأردن . أى أن خطة الاستيطان اليهودى كانت تشمل الأردن غربا وشرقا .

● سنة ١٨٩١ أنشأ البارون "دى هيرش" (مالى يهودى آخر) بالتعاون مع البارون "روتشيلد" مؤسسة للمشروعات الزراعية برأسمال قدره ٢ مليون جنيهه استرلينى ، وشارك فى المشروع مالى يهودى ثالث هو السير "ارنست كاسل" الذى أبدى اهتماما ملحوظا بالمشروعات الزراعية فى مصر ذاتها ، وأنشأ شركة "وادي كوم أمبو" التى تملك مساحات شاسعة من الأراضى قرب مدينة "كوم أمبو" فى صعيد مصر .

ومن الظاهر أن تسلسل الوقائع كان أكثر تماسكا من أن ينسب للمصادفات .



وكان ذلك هو المسرح الذى ظهر عليه رجل قدر له أن يلعب دورا كبيرا فى الحركة الصهيونية : "ثيودور هيرتزل" وهو صحفى مولود فى فيينا نال قدرا من الشهرة واتصل بالمسألة اليهودية عن طريق جمعيات ومنظمات فكرية وثقافية تعنى بالمسألة اليهودية ، وتعمل من منظور إنسانى فى الظاهر لتسهيل هجرة أعداد من يهود الشرق إلى فلسطين .

ولم يكن "هيرتزل" وحيدا فى ميدانه ، فقد سبقه وأحاط به جمع لا يستهان به من المفكرين والدعاة اليهود الذين رأوا الفكرة مثله ، وإن لم يقدروا على تحديدها والتبشير بها صراحة وعلنا .

● ومثلا فإن "موزس هيس" كتب فى ذلك الوقت كتابه "روما والقدس" ليقول فيه ما مؤداه :

"إننى أشعر كيهودى أننى أنتمى إلى شعب بائس ، سيئ الحظ ، محتقر ومشتت بين أمم العالم . إن اليهود فى بعض البلاد يهربون من يهوديتهم . وفى ألمانيا يحاول اليهود أن يخلعوا عنهم كل ما يشير إلى أنهم يهود . والشعوب الأوروبية كلها تشعر أن اليهود غرباء عندهم . وسيظل اليهود دائما غرباء بين الأمم."

- ومثلاً فإن "ليو بنسكر" في كتابه "التحرر الذاتي" راح يقول :

"يجب أن نجد وطننا لهذا الشعب حتى نكف عن التجوال في العالم . وليس من الضروري أن نحلم باستعادة أرض يهودا القديمة ، فلا داعي لأن نربط أنفسنا بالمكان الذي تحطمت فيه حياتنا السياسية وتوقفت . ليس من الضروري أن يكون هدفنا استعادة الأرض المقدسة ، وإنما من حقنا أن نطالب بأرض . أية أرض . أى قطعة من الأرض تكفى لإخواننا من البؤساء . قطعة أرض تكون ملكاً لنا ولا يستطيع أحد أن يطردنا منها ."

- ومثلاً فإن "توماس كلارك" بدأ يقترب أكثر من صميم الموضوع حينما قال في كتابه "الهند وفلسطين" (رابطاً بوضوح بين الالئتين) :

"إذا كانت الضرورة تقضى بالإبقاء على مملكة تركيا كدولة محايدة وآمنة على حدودها ، فمن المؤكد أن زهاب اليهود إلى فلسطين تحت حماية بريطانيا يمكن أن يعطى لتركيا هذا الحياد وهذه السلامة . إن بريطانيا تعتمد على التجارة كحجر زاوية في عظمتها . وأفضل وأقرب مكان إلى حركة التجارة العالمية يمر عبر النقطة التي تلتقي عندها القارات الثلاث الكبرى . وبما أن اليهود يؤلفون شعباً تجارياً فى الأصل ، فإنه ليس هناك أكثر ملاءمة ولا منطقاً من زرعهم على طول ذلك الطريق العظيم للتجارة طوال كل العصور . إن سوريا يجب أن يوجد فيها شعب تجارى ، ولن تصبح سوريا فى أمان إلا عندما تصبح فى أيدي شعب شجاع مستقل يزخر بالحيوية . وهذه الأوصاف تنطبق على اليهود ."

- ومثلاً فإن "إدوارد لودفيج ميدفورد" (وهو دبلوماسى إنجليزى غير يهودى) ، كتب فى نفس الفترة ما أسماه بالنيابة عن اليهود لإنشاء كومونولث بريطانى فى الشام" ، اقترب فيه أكثر وأكثر من صميم الموضوع فقال :

"إن فلسطين إذا ما أخذنا فى الاعتبار مساحتها ، تبدو صغيرة ولا تتسع لكل اليهود . وقد تنشأ مشاكل بسبب هجرة مستوطنين كثيرين . لذلك يستحسن قبل القيام بتوسيع نطاق الاستيطان فى فلسطين أن يتم أعداد البلاد كلها لاستقبال شعبها الجديد . ويمكن إقناع الحكومة العثمانية بتهجير كسل السكان "المحمديين" وتوطينهم فى المناطق الشاسعة الخالية من شمال العراق (١) حيث يستطيعون امتلاك أرض أفضل من تلك الأرض التى سوف يتركونها وراءهم ."

(١) تجدد الحديث عن التهجير إلى شمال العراق بعد حرب الخليج سنة ١٩٩١ . وكان التهجير أيضا للاجئين من الفلسطينيين الوجوديين فى بعض أجزاء الأرض المحتلة وفى لبنان أيضا .

لكن "هيرتزل" - خلافا لهؤلاء جميعا - توجه إلى صميم الهدف مباشرة !

وربما ساعد "هيرتزل" على التوجه المباشر إلى الهدف أن هجرة موجات من اليهود إلى فلسطين لم تعد خافية على أحد . ثم إن عواقبها بدأت تلتف الأنظار على الأرض .

فقد بدأت المشاكل فعلا بين المستوطنين اليهود المتدفقين على فلسطين وبين السكان العرب الأصليين . ولقّنت هذه المشاكل نظر كثيرين ، وبينهم عدد من المهاجرين اليهود أنفسهم . وكتب "أحاد هاعام"^(٢) فيما يكاد يكون تحذيرا مبكرا من شكل ما هو قادم .. يقول:

"لقد اعتدنا على التفكير والتصرف وكأن جميع العرب قسوم بدائيون يعيشون في الصحراء ولا يرون ولا يفهمون حقيقة ما يجري حولهم . وهذا خطأ فادح لأن العرب ، وخاصة سكان المدن منهم ، يرون ويفهمون ما نفعله في فلسطين . وإذا كانوا لا يقابلون عملنا بفعل مضاد ويتظاهرون بأنهم لا يلاحظون شيئا ، فذلك لأنهم في الوقت الحاضر لا يرون فيما نفعله الآن تهديدا لمستقبلهم . ولكن إذا ما تطورت الأمور وبدأ زحفنا الكبير على فلسطين ، فإن العرب لن يتخلوا عن مواقعهم بسهولة . إن المستوطنين اليهود الجدد في فلسطين كانوا عبيدا في التيه ، وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية بلا حدود ، بل وسط حرية لا رادع لها . وقد أحدث هذا التحول المفاجئ في نفوسهم ميلا إلى الاستبداد كما هي الحال حين يصبح العبد سيادا . وهم يعاملون العرب بكثير من العداء والشراسة ، ويمتهنون حقوقهم بصورة فجأة وغير مقبولة ، ثم يوجهون لهم الإهانات دون مبرر كاف ، ويفتخرون بما يفعلون . يتصرفون وكأن العرب كلهم همج متوحشون يعيشون كالحیوانات دون فهم لحقيقة ما يجري حولهم."

وكان لا بد لأحد أن ينزع الستائر والأغطية ، وأن يفصح بعبارة صريحة وفعل مباشر ، لأن الحركة لا تقدر على الوقوف طويلا عند منتصف الطريق ...

وكان هذا دور "ثيودور هيرتزل" .

(٢) "أحاد هاعام" تعنى في العبرية "أحدا من الناس" ، وكان ذلك اسم القلم لواحد من أبرز الكتاب والمفكرين اليهود ، وأوسعهم نفوذا في ذلك الوقت ، واسمه الحقيقي "آثر زفي جينزيرج" .

هـيرتزل

" سليل الفراعنة الذين اضطهدونا يطلب
مساعدتي أنا اليهودى ! "
("هيرتزل" بعد لقائه بـ "مصطفى كامل" باشا)

كانت ميزة "هيرتزل" على كل الآخرين فى زمانه أنه استطاع استيعاب مجمل الظروف الاستراتيجية ، ورأى أن اللحظة مناسبة لكى يتخلى العمل اليهودى عن سواتره^(٣) بما فى ذلك التبشير والهجرة الخيرية ، وأن يدخل مباشرة - وبقوة - إلى عالم الحقائق السياسية .

(٣) من المفارقات التى تستحق التأمل ، أن كل ما قبل ما قبل من الوعد المقدس بفلسطين لليهود لم يثبت علميا ، وهو على حد تعبير الأستاذ "نورمان كانتور - " أكبر كتاب التاريخ اليهودى - : " شىء ينتمى إلى عالم الأدب أكثر مما ينتمى إلى عالم الدين ". وفى دراسته الهامة عن التاريخ اليهودى بعنوان " السلاسل المقدسة " ، يستشهد " كانتور " بخلاصة توصل إليها الأستاذ " روبرت ألتر " أستاذ الديانة اليهودية فى جامعة " بيركلى " (كاليفورنيا - الولايات المتحدة) يقول فيها : " إن التوراة المتداولة الآن يجب قراءتها بعيون الأدب وليس بعيون التاريخ أو الدين"^١

ويضيف " ويليام داريمبل " فى كتابه عن القدس بعنوان " المدينة المسحورة " ، تفاصيل موثقة عن الجهد الذى بذلته الدولة الإسرائيلية من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٩٥ ، فى التلقيب عن آثار تدل على تاريخ يهودى فى فلسطين يمكن الإشارة إليه وأشهاره فى وجه المشككين فى القصة الأسطورية . ويعطى " داريمبل " مثلا لذلك قصة التلقيب عن بقايا هيكل سليمان ، ويقول : " كان تقدير العلماء الإسرائيليين أن موقع الهيكل قريب من أسوار مسجد قبة الصخرة ، وبدأت الحفريات واستمرت رغم اعتراضات اليونسكو (منظمة الثقافة والعلوم التابعة للأمم المتحدة) ، وعثرت البعثات الإسرائيلية على بقايا معالم أعلنت عنها وهلت لها ، ثم اضطرت إلى تغطية الاكتشاف كله بستائر من الصمت ، لأن البقايا التى عثر عليها لم تكن إلا آثار قصر لأحد الملوك الأمويين ، وهو أمر يدهش الدعاوى اليهودية من الأساس ويكشف أنه ليس هناك ماضى يبنى عليه حاضر ومستقبل ! "

وكان تعليق العالمة اليهودية الشهيرة الدكتورة "شولاميت جيفا" - أستاذ الدراسات اليهودية فى جامعة تل أبيب - قولها بالنص : " إن علم الآثار اليهودى أريد له تمسك أن يكون أداة للحركة الصهيونية ، تخلق بواسطته صلة بين التاريخ اليهودى القديم والدولة اليهودية المعاصرة ". وذلك يتفق تماما مع دراسة للأستاذ " كيث ويتلم " نشرها بعنوان يغنى عن كل شىء : " اختراع التاريخ اليهودى القديم وخلق التاريخ الفلسطينى كله ! "

وافتتح "هيرتزل" دوره الخطير بنشر كتيب تحول فيما بعد - وعندما توسع فيه كاتبه - إلى دستور للحركة الصهيونية ، وقد نشره بعنوان "الدولة اليهودية" ، وأحدث نشره أصداء كبيرة بين اليهود وإن كان كثيرون منهم قد اعتبروا أفكاره وقتها نوعا من الخيال السياسى.

كان منطق "هيرتزل" كما تبدى فى كتابه بسيطا إلى درجة تبعث على القلق :

- ١ - اليهود لن يندمجوا فى المجتمعات الأوروبية .
 - ٢ - الذين سوف يندمجون هم أغنياء اليهود فقط ، فهؤلاء وحدهم هم الذين تقبل المجتمعات الأوروبية اندماجهم فيها .. وهؤلاء لن يهاجروا .
 - ٣ - اليهود الفقراء القادمون من الشرق سوف يكونون مصدر إزعاج وقلق لليهود الأثرياء الذين استقروا فى غرب أوروبا .
 - ٤ - إن اليهود عندما تهوى بهم الظروف يصبحون من البروليتاريا الثورية . لكنهم عندما ينهضون تنهض معهم قوة المال الرهيبة .
 - ٥ - إن أغنياء اليهود فى أوروبا الغربية هم الذين يجب أن يدفعوا تكلفة هجرة فرائهم خارج أوروبا .
 - ٦ - فلسطين هى المكان الوحيد الذى يستطيع اليهود أن يذهبوا إليه . فمجرد ذكر اسمها يثير عند الشعب اليهودى ذكريات تاريخية تقدر على الهامة وتحريكه .
- كان ذلك منطق "هيرتزل" الفكرى ، وكانت ثناياه تحمل رسائل مبطننة هدفها طمأنة أغنياء اليهود وطمأنة القوى الأوروبية أيضا . وزاد عليه "هيرتزل" بخطة عمل تقوم على ثلاثة محاور:
- محور يتجه إلى السلطان صاحب الولاية الاسمية على فلسطين ويوصفه خليفة للمسلمين .
 - ومحور يتجه إلى بريطانيا التى تقدمت نشيطة وقوية وسابقة للآخرين نحو إرث ممتلكات الخلافة فى الشرق .
 - ومحور يتجه إلى مصر لاعتبارات استراتيجية أدركها "هيرتزل" واستوعبها من متابعتة للسياسة الإمبراطورية البريطانية ودراسته لها .



على المحور العثماني كانت خطة "هيرتزل" أن يشتري فلسطين من السلطان . وتلك خطة تكشفها يوميات "هيرتزل" وتشرح مقاصده فيها بوضوح لا تشوبه ظلال .

ويتاريخ ١٥ يونيو ١٨٩٦ يكتب "هيرتزل" في يومياته قائلا :

"سوف نقدم للسلطان ٢٠ مليون جنيهه استرليني لاصلاح الأوضاع المالية المتدهورة في تركيا ، منها مليونان بدل فلسطين ، والباقي وقدره ١٨ مليوناً يمكن استخدامه في تحرير تركيا من الحماية الأوروبية وشراء سندات ديونها ."

وأثناء زيارة بعد شهرين لاستانبول يكتب "هيرتزل" في يومياته :

"التقيت اليوم مع جاويد بك وهو ابن الصدر الأعظم خليل رفعت باشا . رتبنا الأمور مع جاويد بك (قدم له رشوة فى الغالب) . جاويد بك مستعد لتفهم مشروعنا والمساعدة فيه . لكن اعتراضه الوحيد هو مصير الأماكن المقدسة ، فالقدس يجب أن تظل تحت الإدارة التركية . وعدته بذلك . وعدته أن تبقى القدس خارج حدود الدولة اليهودية إذا قامت ، لأن الأماكن المقدسة تخص العالم المتمددين كله ، ويجب أن تظل للجميع .

سألنى جاويد بك عن شكل العلاقة التي أراها بين دولة يهودية إذا قامت وبين دولة الخلافة . وقلت له إننا لا نطلب الاستقلال ولا نفكر فيه ، ولكننا نريد نوعاً من العلاقة مثل تلك التي كانت بينكم وبين مصر ."

ويغادر "هيرتزل" استانبول ، وبعدها بشهور يكتب في يومياته قائلا :

"أبلغونى أن السلطان أخذ علماً بمشروعى لكنه يعارض فكرة بيع فلسطين لليهود . وفهمت أنه يمكن عقد صفقة إذا وجدنا صيغة مناسبة . من رسائل حاشية السلطان فهمت أنهم يريدون صيغة لإنتقاذ ماء الوجه . وقد بعثت إلى استانبول برسالة قلت فيها "إن جماعتنا تعرض على صاحب الجلالة قرضاً بعشرين مليون جنيهه استرليني ، وفى مقابل ذلك فإن جلالتة يمنح اليهود الامتيازات التالية :

١ - يصدر جلالتة دعوة كريمة لليهود بأن يعودوا إلى أرض آبائهم . والدعوة من السلطان سوف تكون لها قوة القانون خصوصاً إذا جرى إخطار الدول الكبرى المعنية بأمرها مسبقاً .

٢ - يمنح المهاجرون اليهود الاستقلال الذاتى المعروف فى القانون الدولى ، ويكون لهم الحق فى إدارة شؤونهم التنفيذية ، بما فى ذلك العدل والأمن والنظام .

٣ - تجرى فى استانبول مفاوضات حول الشكل الذى به تتحقق حماية السلطان لفلسطين اليهودية ."

ثم يكتب "هيرتزل" فى يومياته :

"كتبت إلى مدحت بك سكرتير السلطان عن مشروعنا لإصدار جريدة "دى فيلت" ، وأشرت له بأننا سوف نحاول أن نساعد حكومة السلطان عن طريقها بنشر ما يمكن أن يؤدي إلى تحسين صورتها فى العالم . وهذه خطوة نحو تكريس جهود الصحافة اليهودية لخدمة الخلافة ، خصوصا إذا قام صاحب الجلالة بتشجيعنا وأمن لنا الظروف الضرورية لإسكان الشعب اليهودى فى فلسطين . إننا سوف نضع كل قوتنا فى خدمة الاقتصاد التركى . إن أعداءنا هم أنفسهم أعداء السلطان الراغبين فى إضعاف الخلافة العثمانية وتفكيكتها ، وهم الذين يريدون امتصاص دماء تركيا بقروضهم الشرهة (من المفارقات أن كل البنوك الدائنة لتركيا كانت مملوكة ليهود معظمهم ممن يقومون بتمويل المشروع الصهيونى فى فلسطين) . وسوف يصبح المهاجرون اليهود إلى فلسطين رعايا مخلصين لصاحب الجلالة السلطان شرط حصولهم على حق مطلق لحماية أنفسهم بأنفسهم ، وأن يكون لهم حق شراء الأراضى دون أى قيد . وأطمئنكم أنه لن يكون هناك اغتصاب لأرض أحد أبدا ، فالملكية شرع مقدس لا يمكن التنازل له . أما ممتلكات السلطان الخاصة فيمكن دفع ثمنها مقدما ونقدا حسب القيمة التى يقررها إذا شاء ببيعها . إن صاحب الجلالة يجب أن يدرك أن نشاط اليهود وأهميتهم ماليا وتجاريا مسألة معروفة جدا ، فهم نهر من الذهب والتقدم والحيوية جاهز لخدمة تركيا ."

وكان السلطان مترددا يخشى من ضغوط إسلامية وعربية يحس تأثيرها ويهيمه تفاديها .



وعلى المحور البريطانى لم يكن "هيرتزل" يحتاج إلى عناء كبير ، فهناك أساس موجود وقائم ، وكل ما هناك أن الظروف المستجدة تقتضى الإسراع فيه . ومن الملاحظ أن مسعى "هيرتزل" تجاه إنجلترا لم يبتعد كثيرا عن مصر ، وإنما اتصل بها على نحو قد يكون مباشرا . وكتب "هيرتزل" إلى "لانسدون" وزير خارجية إنجلترا خطابا يقول فيه :

"إن هناك موجات هجرة متدفقة من شرق أوروبا الآن ، وإذا لم تفتحوا لها الباب بسرعة لتذهب إلى فلسطين فسوف تجدون رجالها ونساءها وأطفالها بمنقولاتهم أمامكم فى الحسى الشرقى من لندن (East End) . إن بعضهم جاء بالفعل إلى هنا ، ونحن لا نريد كثيرين منهم هنا بحيث تضطرون إلى التوقف عن

منحهم حق اللجوء السياسى ، ولذلك فإن من الخير أن تسارع إنجلترا على الفور إلى حل هذا الإشكال . والحل فى يدها ، فهى تملك فى جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط أقاليم خالية من السكان ، وبالذات فى المنطقة الساحلية الموجودة بين العريش وشبه جزيرة سيناء . إن السلطان ليس مستعدا حتى الآن لإعطائنا فلسطين أو جزءا منها . وقد تأخذ المفاوضات مع تركيا وقتا طويلا . لكنه حتى يتم الأمر على نحو ما ، فإننا نتمنى أن تأذن الحكومة البريطانية بإنشاء مستعمرات يتجمع فيها المهاجرون اليهود فى شبه جزيرة سيناء حتى يتاح لهم الذهاب إلى فلسطين . إننى سوف أمضى فى المحادثات مع الباب العالي حتى أبعد عنكم شبهة أن يبدو الاستيطان اليهودى فى العريش وغيرها عملا عدائيا ضد السلطان .

إن هناك ١٠ ملايين يهودى فى العالم ، وقد لا يستطيعون إعلان ولائهم لبريطانيا فورا ، لكنهم سينتمون إليها بقلوبهم إذا هى سهلت لهم الحصول على فلسطين وأصبحت بذلك فعلا وعملا حامية الشعب اليهودى وحاضنته . إن قرارا إنجليزيا واحدا سوف يعطى إنجلترا عشرة ملايين من المخلصين يدينون لها بالولاء فى جميع أرجاء العالم . ربما يقال لكم إن بعضهم مجرد بائعى خردوات ، ولكن لا ينبغى نسيان أن بعضهم الآخر أصحاب بنوك وتجار كبار وعلماء وفنانون وصحفيون وأصحاب مهن عظيمة أخرى . باختصار فإنه سيكون لإنجلترا عشرة ملايين عميل يتحركون من أجل عظمتها وسيطرتها .”

ولم تكن الحكومة البريطانية فى حاجة إلى جهد لكى تقتنع . وكانت تعرف حجج “هيرتزل” ومنطقه ، وكانت ترى تردد السلطان ، وتتفهم رغبة الحركة الصهيونية فى تسريع الأمور ، وذلك عن طريق إعطاء اليهود موطنى قدم - ولو مؤقتا - فى سيناء حتى يصل السلطان فى استانبول إلى قرار تتحدد به الأمور .
وهكذا جاء الدور على المحور المصرى .



كان “هيرتزل” - قبل أن يتحرك على المحور المصرى - قد أنهى مهمة أعطته أساسا شبه شرعى يقف عليه ويعمل منه . فقد دعا إلى عقد مؤتمر صهيونى تشارك فيه كل القوى المطالبة والمؤيدة لاستيطان اليهود فى فلسطين . وانهقد المؤتمر فعلا فى مدينة “بازل” السويسرية يوم ٢٩ أغسطس ١٨٩٧ ، وأسفر هذا المؤتمر عن أربعة مقررات رئيسية هى :
١ - العمل وفق خطة محددة على استعمار فلسطين بواسطة اليهود زراعيا وصناعيا .

٢ - العمل على إنشاء مؤسسات يهودية تمثل وترتبط وتجمع جهود الشعب اليهودية من أجل إنشاء دولته .

٣ - العمل على تحريك الروح اليهودية والضمير اليهودى بما يوقظ العاطفة الوطنية اليهودية ويحقق الوعى بها .

٤ - العمل على تحقيق أهداف الصهيونية بما فى ذلك إحياء اللغة العبرية والأدب العبرى والثقافة العبرية .

ومن المفارقات أن أول مصرى قابله "هيرتزل" كان "مصطفى كامل" (باشا) زعيم الحزب الوطنى ، الذى يبرز نجمه فى الحركة الوطنية المصرية حينئذ . وكان "مصطفى كامل" ه الذى سعى إلى لقاء "هيرتزل" لكى يقنعه بمنح تأييده للقضية المصرية . ويكتب "هيرتزل فى مذكراته بتاريخ ٢٤ مارس ١٨٩٧ ما يلى :

"جاء مصطفى كامل لزيارتي . إنه فى رحلة لجمع التأييد الدولى لقضية الشعب المصرى الذى يسعى للخلاص من السيطرة البريطانية . إن هذا الشاب الشرقى ترا عندى انطباعا ممتازا . إن سليل الفراعنة الذين اظهرونا فى مصر يتنهد اليو أسى من عذاب الرق البريطانى ، وتقوده طريقه إلى أنا اليهودى طالبا مساعدتى أشعر - مع أنى لم أخبره بذلك - أنه مما يفيد قضيتنا أن يضطر الإنجليز إلى الخروج من مصر لأن ذلك سوف يفرض عليهم عن يبحثوا عن طريق آخر إلى الهند بدلا من قناة السويس التى ستضيع منهم أو تصبح غير مأمونة . وحينئذ سوف تصبب فلسطين اليهودية الجديدة طريقا مناسباً لهم من يافا إلى الخليج الفارسي وإلى الهند ."

.....
.....

بعد لقائه بـ "مصطفى كامل" وبعد المؤتمر الصهيونى الأول فى "بازل" ، بدأ "هيرتزل" حركته النشيطة فى اتجاه المحور المصرى . وقد جاء إلى مصر أول مرة محبطا . فقد ترددت أصوات كثيرة فى أوساط اليهود فى أوروبا تشكك فى إمكانية تحقيق مشروع الدولة اليهودية فى فلسطين . بل إن رجلا مثل "ماكس نوردو" - وهو من أقرب الأصدقاء إلى "هيرتزل" - أخذ يتأرجح فى اتجاه القبول بوطن آخر لليهود غير فلسطين . وقد ظهرت فى الأجواء بالفعل مقترحات يشير أحدها إلى الأرجنتين ، ويشير ثان إلى أوغندا . وكان مبعث ترد "نوردو" يعود إلى واقعة غريبة . فقد أراد قبل المؤتمر الصهيونى أن يقنع بعض الحاخامان الأوروبيين المترددين ، فأرى أن يبعث باثنين منهم إلى فلسطين يريانها رأى العين ثم يعودا،

ليحدثا زملاءهما عنهما وعن حقائق الأحوال فيها ، سواء بالنسبة لسكانها الأصليين أو بالنسبة للمستوطنين اليهود . وبالفعل فإن الحاخامين سافروا إلى فلسطين ، لكن ما رأياه كان صدمة لهما . وكانت أول إشارة إلى الصدمة برقية تلقاها "نوردو" منهما – وهما بعد فى فلسطين – يقولان فيها بالرمز : "إن العروس جميلة جدا وهى مستوفية لجميع الشروط لكنها متزوجة فعلا" . وفهم "نوردو" الإشارة على أن المقصود بها أن فى فلسطين شعبا يسكنها ، وأنها ليست – كما يقول "هيرتزل" – : "أرضا بلا شعب لشعب بلا أرض" .

وعندما عاد الحاخامان والتقيا بـ "ماكس نوردو" فى فيينا ، كان تقريرهما الشغوى مؤكدا لعنى البرقية التى بعثا بها إليه من فلسطين . فقد كانت روايتهما أن هناك شعبا عربيا فلسطينيا يسكن فلسطين من آلاف السنين ، ويزرع أرضها ويعتبرها وطنه ، وهى كذلك بالفعل . وبالتالي ، فإن اليهود الراغبين فى الذهاب إلى فلسطين والاستيطان فيها أمامهم معركة قاسية مع أصحابها الأصليين .. الزوج الشرعى والحى للعروس الجميلة .

كان تقريرهما أيضا يشير إلى خطر يستغل وسببه المستوطنون اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين. فقد أحس كلا الحاخامين بأن تصرفات المستوطنين تحمل ظواهر عسل نفسية قد تزيد مع الأيام ، ومن المحتمل أن تزيد . ذلك أن المستوطن اليهودى ، لكى يريح ضميره ، ولكى يستطيع مواصلة حياته فى الأرض الموعودة ، يتحتم عليه إنكار وجود "الأخر" – أى الفلسطينى – "بمثل ما يمكن تصوره من رغبة عاشق لزوجته رجل آخر فى الخلاص من زوجها إلى درجة قتله لكى ينتهى منه جسدا وروحا وذكرى" .

إن تلك الحالة بدت لهما فى الطريقة التى يتصرف بها المستوطن اليهودى إزاء المواطن الفلسطينى ، وحسب وصف الحاخامين فإنها : "استعلاء إلى درجة الاحتقار والكرهية ، وعنفا فى التصرف ليس له ما يبرره ، وافتعال لأسباب ليس لها هدف ، إلا أن تضع مسافة بين الطرفين بحيث لا يستطيع أحدهما أن يرى الآخر أو ينظر إليه فى وجهه" .

.....
.....

وجاء "هيرتزل" إلى مصر ، وبدا من تصرفاته الأولى أنه مستعد لأن يؤجل مؤقتا مشروع الهجرة الكثيفة إلى فلسطين ، وأن يكتفى فى اللحظة الراهنة بمشروع استيطان كبير فى سيناء يرتكز على العريش ويتسع منها . وذهب "هيرتزل" فزار منطقة العريش والوديان المحيطة بها ، والتقى بالخدوي "عباس حلمى الثانى" وتحدث إليه فى مشروعه . وكان مشروع

"هيرتزل" يهدف إلى تأجير مساحة أرض قدرها ستمائة وثلاثون ميلا مربعا حول العريش ، اعتبرها "هيرتزل" منطقة تجمع وتركيز ووثوب . وكان اقتراحه أن تؤجرها المنظمة الصهيونية لمدة تسع وتسعين سنة ، وأن تكون بشكل مباشر تحت حماية الحكومة البريطانية وبمقتضى تمهد موقع وموثق. ولا يظهر أنه كان لدى الخديو اعتراض كبير ، وربما أن معظم مناقشات "هيرتزل" معه تركزت حول ما يمكن أن يعود عليه (الخديو) من أرباح مشروع "هيرتزل" الزراعى والاستيطانى . وكان الذى تصدى لمشروع "هيرتزل" - مع الأسف - هو اللورد "كرومر" المعتمد البريطانى فى مصر ، وكان اعتراضه فنيا بالدرجة الأولى واعتمد فيه على تقديرات المهندسين الإنجليز لحجم المياه المطلوبة للمشروع من موارد النيل . وكان رأى المهندسين الإنجليز أنه من الصعب توفير كمية المياه المطلوبة لمشروع "هيرتزل" لأن ذلك يؤثر على الزراعة فى مصر ، وعلى إنتاج المحصول الحيوى لمصانع "الانكشاير" فى إنجلترا ، وهو القطن المصرى .

ومن ناحية أخرى ، فإن "كرومر" كان فى مصر يواجه موقفا بالغ الدقة بسبب خلافه المستمر مع الخديو "عباس حلمى" . كما أن بوادر حرب عالمية - تدور بعض معاركها فى الشرق الأوسط - لم تكن بعيدة عن هواجسه . وربما كان ظنه أن الظروف الراهنة فى مصر والمنطقة المحيطة بها ليست فى هذه اللحظة مناسبة لتصرف قد يؤدي لاستفزاز المشاعر الوطنية والدينية. وكان من اللافت للنظر أن بعض الصحف المصرية - وفى مقدمتها جريدة "المنار" ، التى كان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت الشيخ "رشيد رضا" ، تلميذ الإمام "محمد عبده" - راحت تنشر أخبارا وتعليقات تحذر كلها من مطامع اليهود فى فلسطين وخطرهما على دار الإسلام . وقد بدأت هذه الأخبار والتعليقات تستثير اهتماما مبكرا بالخطر .

وبدا أن مشروعات "هيرتزل" تتعثر أمام موقف معقد بدأت مقدماته تخيم على أجواء الشرق .

ويمكن ملاحظة أن الحركة الصهيونية كلها - و"هيرتزل" على رأسها - فى هذه اللحظة لم تكن تتفاوض أصحاب الحق الشرعى وهم شعب فلسطين .

لقد حاولت أن تتفحص بريطانيا بحق اليهود فى فلسطين ، وحاولت أن تشتري من السلطان وطنا بأكمله من ممتلكاته ، وحاولت أن ترتب لنفسها موطن قدم فى مصر ، لكنها لم تكن تتفاوض مع الطرف الآخر الذى يملك الوطن الفلسطينى ويعيش فيه .

وكان منطوق الإنكار ضروريا ، فأى تفاوض مع هذا الآخر معناه الاعتراف بوجوده الشرعى ، وإذا وقع هذا الاعتراف فهو النفى المباشر للدعوى الصهيونية فى فلسطين !

وفيما بعد علق الزعيم الصهيوني الشهير "ناحوم جولدمان" على أفكار "هيرتزل" بقوله :

"إن هيرتزل رفض أن ينظر إلى كافة وجوه قضية الاستيطان اليهودي في فلسطين ، وصمم على أنها "قضية أرض بلا شعب لشعب بلا أرض" ، إلى درجة أنه اعتبر عملية الاستيطان كلها مشكلة توفير وسائل نقل تحمل اليهود من أوروبا إلى فلسطين طالما أن لديهم التأشيرة بذلك من السلطان وتذكرة السفر من إنجلترا ."

الفصل الثالث

"الساحل" و "الداخل"

" على أى خريطة للعالم العربى
يلمح أى باحث مهتم أن هناك سياسة غربية ثابتة
تستهدف عزل "الساحل" عن "الداخل" ..
هكذا فى البحر الأبيض ، وفى الخليج، وفى المحيط .
و"الساحل" فى أكثر الأحيان للغالبين أو معهم . و"الداخل"
متروك لتناقضات أهله وخلافاتهم" .

ماكهاون

" علماء الآثار تحولوا كلهم إلى ضباط
مخابرات "

(واحدة من حقائق الدبلوماسية الخفية لبريطانيا في
الحرب العالمية الأولى)

في السنوات الأولى من القرن العشرين كانت موازين القوى الدولية ، وخطوط التحالفات الدولية تتحرك وتظهر معالمها وتوجهاتها مشيرة إلى احتمالات صدام كبير قادم . ففي سنة ١٩٠٤ توصلت بريطانيا وفرنسا إلى الاتفاق الودي بينهما ، وفي نفس الوقت فإن ألمانيا التي خرجت تطالب بمستحقاتها في توزيع المستعمرات ، انهمكت أيضا في بناء قوة عسكرية ضخمة ، ثم إنها راحت تفكر في تحالفات سياسية وعسكرية جديدة جعلتها تسعى نحو تركيا التي كان حكامها ينظرون بشك إلى الخطط البريطانية في الشرق . فإنجلترا ، رغم وعود متكررة بالجلاء عن مصر ، تثبتت أقدامها في وادي النيل ، وتحكم قبضتها على السودان . وهي كذلك تساعد بشدة على زرع عشرات المستوطنات اليهودية في فلسطين . وفي نفس الوقت فإن فرنسا - خصوصا بعد الوفاق الودي مع إنجلترا - تقوم بتحركات تثير الريب في بيروت ودمشق . وفي الواقع ، فإن خطوط الحرب العالمية الأولى وتحالفاتها راحت مبكرا تحفر مجاريها . وإزاء هذه الظواهر كانت استانبول تقرب يوما بعد يوم من برلين ، وكل الإشارات تدل على أن منطقة الشرق الأدنى تقترب من ساعة الحقيقة التي تتقرر فيها المصائر . ولم يكن لدى أحد من المراقبين شك في أن هذه المنطقة سوف تشهد بعضا من أهم معارك القتال من أجل رسم خريطة جديدة لمواقع القوة والنفوذ .



ومن اليوم الأول لنشوب الحرب العالمية الأولى أصبحت القاهرة واحدا من أهم مراكز إدارة هذا الصراع المسلح الكبير .

كان الطرفان الرئيسيان فى معسكر الحلفاء وهما : بريطانيا وفرنسا ، قد تفاهما منذ اللحظة الأولى على عدة نقاط محددة :

١ - أن تكون الأولوية الأولى للجهد الحربى فى أوروبا وعلى الجبهة الحرجة بين فرنسا وألمانيا مباشرة ، فهناك فى رأيهما يتقرر النصر أو تقع الهزيمة .

٢ - يترتب على ذلك أن تمتنع الدولتان عن التورط فى أية ميادين أخرى ، وتحصران نشاطهما - خارج الميدان الأوروبى - فى حدود دفاعية بمقدار ما تسمح الظروف .

٣ - إن الجائزة الكبرى التى تنتظرها الدولتان بعد الحرب - إلى جانب هزيمة ألمانيا - هى الممتلكات الشرقية للخلافة العثمانية . ولما كان هذا الموضوع حساسا فمن الأفضل تأجيل البت فيه إلى ما بعد انتهاء الحرب حتى لا تؤثر حساباته على العلاقة بين البلدين ، وبما يخدم هدف ألمانيا فى التفريق بينهما .

ولكن هذا التفاهم بين الحليفتين الرئيسيين فى الحرب ضد ألمانيا ، لم يكن فى استطاعته أن يغطى على حقيقة مرثية ومحسوسة تقتضى الظروف السياسية والنفسية للأطراف أن يجرى التعامل معها بحذر . وكانت تلك الحقيقة تشير بوضوح إلى أن بريطانيا هى الطرف الأكبر والأقوى فى التحالف . فالقرن التاسع عشر كان قرن توسع وازدهار للإمبراطورية ، كما أنه بالنسبة للشعب البريطانى كان فترة تطور سياسى سلمى ، فى حين كان العكس حال فرنسا التى كان القرن التاسع عشر مؤلما لها فى الخارج والداخل ، ثم جاءت هزيمتها أمام ألمانيا فى حرب السبعين (١٨٧٠) فكادت تقضى عليها كقوة عظمى لولا أحكام الجغرافيا ، ولولا مطالب توازنات القوة فى أوروبا وفى مواجهة ألمانيا بالتحديد .

إن الحقائق تفعل فعلها مهما حاول الساسة أن يتصرفوا معها بحذر تقتضيه الحساسيات ، وهكذا فإن بريطانيا طوال الحرب كانت تتصرف بقوة ودهاء ، كما أن فرنسا كانت عصبية مما يمكن أن تفعله بريطانيا من وراء ظهرها .



فى ذلك الوقت كانت إدارة الإمبراطورية البريطانية ، وجهدها فى الحرب يعتمدان على ثلاثة مراكز مؤثرة فى القرار البريطانى :

- أولها مركز لندن : وهى عاصمة الإمبراطورية ومقر البرلمان والحكومة والعرش وفوق ذلك فإن فيها القيادة العليا للقوات المسلحة ، ووقتها كان وزير الحربية هو اللورد "كيتشنر" الشهير ، الذى اكتسب سمعته باحتلال السودان عندما كان قائدا لقوات الاحتلال البريطانى فى مصر .
- والثانى مركز القاهرة : وكانت القاهرة مقر السياسة البريطانية فى البحر الأبيض وفى البحر الأحمر . وفى ظروف الحرب وطبيعة وسائل الاتصالات وقتها ، فإن مركز القاهرة كان يتمتع بسلطات واسعة ، وفى بداية الحرب كان على قمة هذا المركز فى القاهرة السير "هنرى ماكماهون" .
- وأما المركز الثالث فقد كان مركز دلهى : وكانت دلهى مسئولة - إلى جانب حكم الهند - عن كل السياسة البريطانية فى منطقة تمتد من بحر الصين إلى بحر العرب ، ومن هونج كونج على شاطئ شبه القارة الصينية إلى عدن على شاطئ البحر الأحمر وعند مدخله من شبه الجزيرة العربية .

وكان مركز دلهى مركزا بالغ الأهمية من أثر التجربة التاريخية للاستعمار البريطانى ، ونشأت نتيجة لذلك حكومة من نوع فريد لم يتكرر على الإطلاق فى التاريخ . فحكومة الهند - كما كانت تسمى - لم تكن مجرد إدارة استعمارية وإنما كانت إدارة إمبراطورية ، والفارق بين الاثنين أن الإدارة الاستعمارية فى العادة موكلة بإدارة واستغلال مستعمرة ، أما الإدارة الإمبراطورية فهى موكلة بالتوسع والسيطرة . وفى واقع الأمر فإن حكومة الهند كانت فى بعض الأحيان أقوى من حكومة لندن فى صنع القرار الإمبراطورى ، ولذلك لم تكن مصادفة أن أظهر الساسة والإداريين البريطانيين ، نشثوا وتعلموا فى أطر حكومة الهند . وفى فترة الحرب العالمية الأولى فقد كان نائب الملك فى الهند هو اللورد "هاردينج" .



وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى ، فإن تركيا تأخرت لبضعة شهور قبل أن تحزم رأبها وتقرر دخولها إلى جانب الألمان . وفى شهور التردد - وقبل الدخول - فإن المراكز الإمبراطورية البريطانية كانت تجرى تقديراتها للطريقة التى تتصرف بها فى حالة ما إذا

دخلت تركيا الحرب أو امتنعت عن دخولها ، وفى الحالتين وفيما يبدو فقد كانت أسلاك الخلافة فى الشرق إرثا حان استحقاقه مهما كان الموقف الذى تتخذه استانبول .

واشتد التنافس فى ذلك الوقت بين مركز القاهرة الجديد ومركز دلهى العتيق ، فكلهما يرى نفسه الأحق بالتخطيط والإشراف على تنفيذ عملية الاستيلاء على التركة :
مركز القاهرة يظن أنه بقربه من الشام ، بما فيها فلسطين والحجاز - وربما العراق - أولى من غيره بالقيام على المسئولية والاختصاص .

ثم إن مركز دلهى يرى أنه الطرف الأقدر بتجربته التاريخية وبمواقع نفوذه حتى شواطئ نجد ، وقد اتصل فيها بالشيخ (السلطان الملك فيما بعد) "عبد العزيز آل سعود" وغيره من زعماء قبائل الساحل حتى قرب البصرة من ناحية الشرق . كما أن هذا المركز الإمبراطورى فى دلهى توسع غربا حتى توصل إلى احتلال عدن (ومن الملاحظ أن احتلالها تم سنة ١٨٣٩) فى ظروف الضغط على "محمد على" فى الشام وإرغامه على التراجع إلى حدود مصر .



وفى هذه الفترة - وقبل أن تدخل تركيا الحرب - فإن المسئولية والإختصاص والممارسة فى المركزين البريطانيين المعنيين كانت بطبيعة الظروف سريية ، أى أن السذى كان يشرف ويخطط وينفذ لم يكن المسئول السياسى الظاهر والمعروف ، وإنما كانت المسئولية فى ذلك الوقت فى يد الضابطين الكبيرين المسئولين عن المخابرات ، وهكذا فإن العمل الإمبراطورى فى المنطقة ذلك الوقت استقر فى يد مكتبين للمخابرات السياسية :

- مكتب القاهرة ، وكان المسئول عنه هو الكولونيل "جيلبرت كلايتون" .
- ومكتب دلهى ، وكان المسئول عنه فى الغرب وفى مجال أسلاك الإمبراطورية العثمانية هو الكولونيل "بيرسى كوكس" .

إن حكومة الهند لم تقدر على الانتظار طويلا ، فقد كان مكتب دلهى يلح على المبادرة للعمل ، واتخاذ خطوة أولى باحتلال البصرة لتأمين السيطرة على الخليج وحتى لا تتمكن تركيا تحت أى ظرف من إعادة تأكيدها سيطرتها على مشيخات الساحل من الكويت وحتى مضيق هرمز . وكان مكتب دلهى على اتصال بعدد من كبار الشخصيات العربية فى البصرة ، وفى مقدمتهم السيد "طالب النقيب" وهو من أبرز معارضى الحكم التركى ، والمطالبين باستقلال العراق والراغبين فى التعاون مع بريطانيا من أجل تحقيق هذا المطلب .

لكن المركز الإمبراطورى فى القاهرة لم تكن له هذه القدرة على أخذ المبادرة رغم إلحاح القيادة العسكرية فى مصر وقائدها العام الجنرال السير "جون ماكسويل" .

كان الجنرال "ماكسويل" يصرى أن تركيا سوف تدخل الحرب مع الألمان ، وأن أول خطوة لها فى الميدان سوف تكون هجوما من فلسطين عبر سيناء للوصول إلى قناة السويس وتهديد الوجود البريطانى عليها وفى مصر بعدها . وبالتالى فإن من الضرورى استباق خطوة الأتراك المحتملة والتقدم بقوات كافية إلى العريش لملاقاة احتمال هجوم تركى بعيدا عن قناة السويس .

لكن القيادة السياسية والعسكرية العليا فى لندن كان لها رأى مختلف مؤداه أن الإقتراب من فلسطين شىء يختلف عن النزول فى البصرة . فالبصرة بعيدة ، وفرنسا لا تريد هناك شيئا ، لكنه إذا اتصل أى عمل بالشام - (وفلسطين جنوبها) - فإن فرنسا سوف تراودها الشكوك فى أن هناك تخطيطا يسبق بالفعل إلى "وضع اليد" على الجزء الأهم من الإرث العثمانى ، وقد تتحرك هواجسها وتعاودها شكوك مزمنة فى النوايا البريطانية ، وقد تدعى أن ذلك مخالف لتفاهم مع بريطانيا يفرض ألا يسبق أحد إلى شىء من التركة دون اتفاق على القسمة ، ثم إن فرنسا قد تدعى أيضا بأن فتح جبهة عسكرية فى الشرق الأندى مخالف لمبدأ تم الاتفاق عليه ، وهو إعطاء الأولوية الأولى لمرح العمليات الأوروبى والحقاق الهزيمة بألمانيا هناك باعتبار أن رأس الأفعى هى الخطر ، وأما ذيلها فأمره هين !

ومن هذا المنطق فإن التوجيهات من لندن إلى مركز القاهرة كانت تطلب إليه ما يلى :

١ - يقوم الجنرال "جون ماكسويل" بالاستعداد لموقف دفاعى يسمح له بحماية مصر فى حالة هجوم تركى إذا قررت إستانبول دخول الحرب .

٢ - وحتى يتضح موقف تركيا بطريقة قاطعة يقوم مكتب القاهرة (المخابرات) بدراسة احتمالات العمل وراء الخطوط التركية فى سوريا .

وكان الكولونيل "كلايتون" قد ضم إلى مكتب القاهرة فى ذلك الوقت مجموعة من المساعدين قدر بعضهم أن يلعبوا أدوارا بارزة فى التاريخ العربى الحديث ، وكان أبرزهم الكاتب "لورانس" (الذى اشتهر فيما بعد بوصف "لورانس العرب") - و إلى جانبه كان هناك آخرون أصبحوا أساطير عربية فى ظروف تالية وبينهم "كورنواليس" (وقد أصبح فيما بعد مندوبا ساميا فى العراق) - و"هوجارت" (وقد أصبح فيما بعد رسولا دائما للملك العرب) - و"جروتروود بل" (وقد أصبحت فى يوم من الأيام ملكة العراق غير المتوجسة ، والقوة الخفية وراء السياسة البريطانية هناك) .

ومما يستحق الملاحظة أن هؤلاء جميعا - وغيرهم - كانوا قبل الحرب من المشتغلين بعمليات الحفائر الأثرية فى الشرق الأوسط ، وكانوا يعيشون ويعملون فى مواقع مأهولة بالعرب ، وكانوا أيضا من العارفين والمتكلمين باللغة العربية ، والمؤهلين للاختلاط بحياة العرب السياسية والاجتماعية .



كان المكتب العربى - تحت رئاسة "كلايتون" - مشغولا بعملية استكشاف للأوضاع العربية والإسلامية . فالعالمان العربى والإسلامى تأخرا فى رفع ألبية الثورة ضد العثمانيين بسبب المكانة الخاصة لفكرة الخلافة والولاء لها . ولهذا فإن الممتلكات الأوروبية للعثمانيين (كاليونان وبلغاريا وغيرهما) سبقت إلى الثورة وسبقت إلى الاستقلال لأن مواجهتها كانت صريحة مع إمبراطورية إسلامية ، لم تلتبس بالفكر أو بالفعل مع أى اعتبار دينى أو معنى من قبيل الولاء للخليفة .

وفى الحقيقة فإن أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ، شهدت مراجعات واسعة فى قضية الاعتبار الدينى للخلافة والولاء للخليفة ، وزادت هذه المراجعات فى إلحاحها خصوصا بعد انقلاب ضباط حركة "تركيا الفتاة" على الخليفة نفسه ، وفى عاصمة الخلافة ذاتها . وقد تركزت عملية المراجعة وتداعياتها فى الشام تحديدا ، خصوصا وأن مصر كانت إلى حد ما بعيدة عن إطار الخلافة بالاحتلال البريطانى ، وإن كانت القاهرة فى ذلك الوقت قد أصبحت موثلا ومعقلا لكثيرين من سوار الشام ومفكره المسلمين والمسيحيين على السواء .

وكان "المكتب العربى" - تحت رئاسة "كلايتون" - يحاول أن يرصد صورة للحقيقة قبل أن تزحف جيوش النار وتتحدد مواقع الخطوط والخنادق .

مضافا إلى عملية الرصد ، فقد كان هناك سؤال يلح على السياسة البريطانية فى الشرق حول الطريقة التى يمكن أن يكون عليها رد فعل الشعوب الإسلامية والعربية ، إذا ما قرر الخليفة بعد دخول الحرب أن يعلن الجهاد ، وهو الفريضة المنوط به أداؤها إذا ما تهدد أرض المسلمين خطر أو داهمهم عدو .

وتضاعفت أهمية هذا السؤال بحقيقة أن القوات الإمبراطورية البريطانية كانت تضم فى صفوفها جيوشا من المستعمرات وبينها الهند ، وفى جيش الهند كان هناك قرابة ربع مليون مسلم ، وإذا أعلن خليفة المسلمين الجهاد وبريطانيا فى جانب الأعداء فماذا يكون

موقف هذه القوة ؟ وماذا يكون الموقف في الهند المسلمة – (باكستان فيما بعد) – هذا إلى جانب أقاليم أخرى شاسعة في آسيا وشمال أفريقيا يحتمل أن يؤثر فيها نداء الجهاد صادرا من مقر الخلافة في إستانبول ؟

.....

.....

وفى خلفية التفكير الإستراتيجى البريطانى كان هناك قلق عما يمكن أن يصيب المستوطنات اليهودية فى فلسطين إذا احتشد الأتراك ومعهم الألمان حول هذه المستوطنات ضمن استمدادهم لبدء الحرب بهجوم كبير عبر سيناء فى اتجاه قناة السويس !

عزيز المصري

" قابلت نوري السعيد . بدا لي ضابطا حالما
له ميول اشتراكية "

(السير "بيرسي كوكس" بعد أن عثر على
"نوري السعيد")

فى الوقت الذى كان فيه "المكتب العربى" يحاول استكشاف الفكر والنوايا العربية
والتيارات الفاعلة فى العالم العربى ، كان بعض العرب المطالبين بالحرية والاستقلال يحاولون
استكشاف النوايا البريطانية فى الشرق الأوسط ، وقبل أن تقوم الحرب أيضا .

وتكشف الوثائق البريطانية التى فرضت عليها السرية - بعضها لمدة خمسة وسبعين عاما
وبعضها لمدة مائة عام - وبينها الوثيقة ٤٦٢٦١/٢١ - ٧٣١ - المعنونة "حديث بين الكولونيل
عزيز المصرى^(١) والمستر . أ . م . راسل" بمكتب المستشار الشرقى لدار المعتمد البريطانى فى
مصر - بتاريخ ١٦ أغسطس ١٩١٤ - عن تفاصيل بالغة الأهمية بخصوص القيادات العربية
التي كانت تبحث عن الحرية والاستقلال بعيدا عن تركيا ، وتتصور أنها تستطيع أن تتعاون
مع بريطانيا لتحقيق هذا الهدف .

(١) "عزيز المصرى" باشا شخصية مصرية فريدة ، فقد كان ضابطا فى الجيش التركى ووصل إلى مراكز
قيادية ، وشارك فى الثورة العربية ، وعمل فيما بعد مشرفا على تربية الملك "فاروق" ودار صراع بينه وبين المشرف
الأخر على نفس المهمة وهو "أحمد محمد حسنين" باشا (وهو رئيس الديوان الملكى فيما بعد) ، وقد أصبح "عزيز
المصرى" باشا مفتشا عاما للجيش المصرى بعد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، واختلف مع الإنجليز واعتقل مدة الحرب العالمية
الثانية بتهمة التعاون مع الألمان . وقد اعتبر أبا روحيا لحركة الضباط الأحرار التي قادت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢
فى مصر .

فى هذه الوثيقة التى كتبها "راسل" بعد لقائه بـ "عزيز المصرى" ، تمضى تفاصيل اللقاء على النحو التالى :

" اليوم ١٦ أغسطس جاء إلى مقابلتى الكولونيل عزيز المصرى ، وهو شخصية لها مكانتها فى العالم العربى ويجب أن تؤخذ أقوالها باهتمام وتوضع للدراسة بعناية ، لأن عزيز المصرى أحد القادة البارزين لثورة تركيا الفتاة ، وقد خدم بامتياز كضابط بالجيش التركى . وهو أيضا ضابط عربى قومى شديد الإيمان بأفكاره . وقد ألف فى بداية هذا العام ١٩١٤ جمعية سرية ، اسمها جمعية "المعهد" ، اشترك فيها مع عدد من زملائه الضباط العرب فى الجيش التركى وهدفهم استقلال العرب والكفاح من أجل تحقيقه . إنفا - لا نحن ولا الأتراك - كنا نعرف كثيرا عن هذه الجمعية . كنا نعرف اسمها من خلال معلومات غير مؤكدة تردت فى أوساط استانبول ودمشق . لكننا منذ فبراير هذا العام تابعنا اهتمام الحكومة التركية بهذه الجمعية مما أدى إلى القبض على عزيز المصرى . ثم علمنا أن مجلسا عسكريا شكل لمحاكمته فى ابريل ، وحكم عليه بالإعدام . ونظرا لنفوذه بين الضباط النشطين ، ونظرا لحقيقة أنه مصرى ، فإن الحكم لم ينفذ واكتفى بترحيله إلى وطنه الأصيلى : مصر ، منفا فى حقيقة الأمر .

بهذه الخلفية فى ذهنى استقبلت عزيز المصرى اليوم ، وقد أراد أن يحدثنى عن أهداف جماعته ، ولكنه لم يعطنى تفاصيل كافية عن جمعية المعهد ولا عن رفاقه فيها ، وإنما اكتفى بأن قال لى إنه يجىء إلى مفوضا مما أسماه "اللجنة التنفيذية لجمعية المعهد" يقصد استكشاف نوايا الحكومة البريطانية تجاه احتمال قيام دولة عربية مستقلة عن تركيا وعن كل القوى الأجنبية ، مع رغبتهم فى إيجاد علاقة خاصة بينهم وبين الحكومة البريطانية فى مجال السياسة الخارجية .

إن عزيز المصرى عرض أمامى تصوره لحدود الدولة العربية المستقلة التى يفكر فيها هو ورفاقه . وقد حددها بخط يمتد شمالا ما بين ميناء الإسكندرونه (جنوب تركيا على شمال البحر الأبيض) ، وولاية الموصل امتدادا إلى حدود فارس . وهو ورفاقه يعتبرون أن قلب هذه الدولة ومكمن قوتها سوف يكون المثلث ما بين بغداد والحجاز ونجد وسوريا . وهم لا يفكرون الآن فى جنوب شبه الجزيرة العربية (اليمن وعسير) لأن هذه المنطقة ممزقة بالصراعات فى الوقت الحالى ، وغير قادرة على الإسهام فى المشروع العربى كما يفكر فيه عزيز المصرى ورفاقه . سألت عزيز المصرى عنى يكون قائد هذه المجموعة ؟ ولم يفصح لى عن جواب .

إن عزيز المصرى متحمس إلى أقصى حد لمشروع الدولة العربية المستقلة . وهو يعتقد أن العرب عموما جاهزون للثورة . ويعتقد أيضا أن غالبية المسيحيين السوريين (فى لبنان) وكذلك الدروز ، يؤيدون حركتهم . ولعل عزيز المصرى يبالغ فى هذه النقطة .

إن عزيز المصري تحدث معى بصراحة عن أن كل ما يريدونه هو بيسان بريطانى بإعلان حسن النية تجاه الأمة العربية ، وبالحياد فى حالة تحركهم للعمل فعلا فى طلب الحرية والاستقلال. وقد سألته عما إذا كان يريد منا مساعدات عملية إلى جانب التأييد المعنوى ؟ وكان تقديره أن أى مساعدة نستطيع تقديمها على شكل مساعدات مادية - خصوصا بالسلح والذخيرة - سوف تكون موضع تقديرهم . وفى هذه الحالة فإنه يطلب توصيل الأسلحة وأية مساعدات أخرى سسرا إلى مكان معين موجود فى العراق أو أى مكان آخر نتفق عليه . وفى مقابل ذلك فإن عزيز المصرى كان موقولا أن يقول لى بأن الدولة العربية المستقلة بعد تأسيسها تتمهد لنا باحترام مصالحنا فى الهند وأيضا فى فارس ، وأن توفر لنا معاملة تجارية تفضيلية من خلال معاهدة مع دولة عربية مستقلة قادرة على النمو بسرعة . "



ويوم ٢٤ أكتوبر عاد عزيز المصرى فاتصل بـ "جلبرت كلايتون" - مسئول مكتب القاهرة - طالبا مقابلته ، وكانت كل الدلائل تشير إلى أن تركيا على وشك أن تدخل الحرب أخيرا فى صف الألمان . وكتب "كلايتون" بنفس التاريخ مذكرة يقول فيها :

" بادرت عزيز المصرى بك على الفور بسؤال قلت له فيه "هل ينوى العرب تأييد تركيا عندما تدخل الحرب؟" وأضفت "إن ذلك إذا حدث سوف يكون شيئا تأسف له بريطانيا العظمى التى تحتفظ بعلاقات ودية مع العرب ، وهى لا تريد أن تتأثر هذه العلاقات بأى خطوات عدوانية تقوم بها تركيا . " ثم سألته مباشرة أن يقول لى رأيه فى كيف تستطيع الحكومة البريطانية أن تؤكد للقادة العرب نواياها الطيبة تجاههم ؟

إن عزيز بك كان صريحا إلى أبعد الحدود ، وقال لى "إنه بدون تنظيم عربى قادر فإن الاتجاه العربى العام سوف يميل مع الأقوى أيا كان . ولما كانت تركيا باحتلالها لأجزاء كبيرة من العالم العربى هى الأقوى بالأمر الواقع الناشئ من حكمها لمعظم البلاد العربية ، فإن الميل للاتراك قد يفرض نفسه بالضرورة ، خصوصا إذا ما ساعدت تركيا عليه بابرز العامل الإسلامى والضغط عليه" . ثم قال عزيز بك "إن الصورة يمكن أن تختلف إذا كان هناك برنامج كامل لعمل عربى موحد هدفه تحرير البلاد العربية من السيطرة التركية ، وذلك يتأتى بتنظيم ثورة عربية عامة تثير همة وخيال العرب وتكتل عملهم نحو تحقيق استقلال بلادهم" .

وكان رأى عزيز بك "إن العرب يستطيعون تكوين قوة عسكرية لا بأس بها . وإن نواة هذه القوة يمكن توفيرها من الجنود العرب فى الجيش التركى ، وبالمذاق الجيش التركى فى العراق ، فى أوساط هذا الجيش تسرى أفكار الثورة العربية" . وفى تقدير عزيز بك أنه "فى شهور قليلة يمكن جمع خمسة عشر ألف جندى وتدريبهم ليكونوا نواة جيش الثورة العربية . ثم إن هذا الجيش العربى عندما يقوم سوف يصبح الركيزة التى تتجمع حولها كل القيادات العربية الدينية أو القبلية" . وقد أضاف عزيز بك "إنهم لا يريدون قوات من الإمبراطورية البريطانية تدخل بلادهم للمساعدة على الثورة ضد الأتراك ، لأن ذلك يمكن أن يعطى الانطباع بأن بريطانيا تسعى إلى ضم العالم العربى إلى ممتلكاتها ، وليس إلى مساعدتهم على الاستقلال" .

وختم "كلايتون" تقريره عن المقابلة بقوله :

"إننى استمعت إلى عزيز بك بكل الاهتمام الذى يستحقه رجل فى مكانته ، ولكنى لم أعده بشئ لأن تركيا لم تدخل الحرب بعد ، أى خطوة من جانبنا الآن يمكن أن تتسرب وتحدث من المشاكل ما لا نستطيع توقعه . وكل ما وعدته به هو أن نظل على اتصال حتى تتضح الأمور" .



وبطبيعة العلاقات بين إدارات الإمبراطورية البريطانية فإن الاتصالات بين الكولونيل "عزيز بك المصرى" ممثلاً لتنظيم "العهد" ، وبين كل من "راسل" و"كلايتون" ، وصلت تفاصيلها إلى الهند . وفى آخر نوفمبر كتب رئيس مكتب دلهى الكولونيل "بيرسى كوكس" تقريراً إلى نائب الملك - اللورد "هاردينج" - تم تحويله إلى لندن ، قائلاً فيه :

"إننا فى حكومة الهند لا نرى تشجيع القوميين العرب . إن القوات البريطانية الآن احتلت البصرة ورفعت العلم البريطانى عليها دون أى مقاومة أو شعور بالعداء من السكان المحليين . بل على العكس فإن هؤلاء السكان نظروا إلينا كأصدقاء وحماة . ولم يعد هناك فى إقليم البصرة الآن أى أثر للإدارة التركية .

ولا بد أن يكون واضحاً أن الجمعيات السرية العربية لها مثيلات هنا فى الهند ، وقد قامت الجمعيات الوطنية فى الهند باضرابات إجرامية كما تذكرون فى الفترة ما بين ١٩٠٧ و١٩٠٩ . وكان ردنا عليهم هو إغلاق مقارهم وحظر منشوراتهم ومنع اجتماعاتهم وتظاهرهم . وقد لجئنا إلى العمل المسلح وقاموا بعدوان على حياة نائب الملك اللورد هاردينج .

وإنه لمن الصعب علينا أن نتصور كيف يمكن أن نساعد التنظيمات القومية العربية على العمل من أجل الاستقلال ، ثم نمنع ذلك بالنسبة لمثيلاتها فى الهند . ورأينا هو أن سلامة الهند تقتضى الحذر فى إعطاء أى تعهدات باستقلال العرب ، لأن ذلك يمكن أن يصل بالعدوى إلى شبه القارة الهندية . ”

وأضاف اللورد ” هاردنج ” فى رسالة إلى لندن مهدت لمذكرة ” بيرسى كوكس ” ملاحظة قال فيها : ” إنه يرى أن القوميين العرب يدخلون العراق فى مشروعاتهم ، بينما منطقتا ما بين النهرين (دجلة والفرات) داخلة فى اختصاص حكومة الهند ، وليس من حسق القاهرة إقحام نفسها فى شأن مصيرها ” .

ورد مكتب القاهرة فكتبت إلى لندن يقول : ” إن قادة الحركة القومية العربية هنا من رأيهم أن نزول القوات البريطانية فى البصرة ، إلى جانب تحركات عسكرية ظاهرة فى البحر الأحمر ، تعطى الانطباع للعرب بأن الحكومة البريطانية تطمح لضم أراضيهم إلى ممتلكاتها . وهذا لا يساعدهم على حشد الرأى العام العربى فى الثورة على تركيا . ”

ولعل ” كلايتون ” رأى ألا يكتفى بنقل ملاحظات سلبية للقوميين العرب ، وهكذا كتب برقية قصيرة إلى لندن يقول فيها :

” إذا كان هناك جهد مطلوب ومرغوب فيه هنا من جانب الحركة القومية العربية فإننا نرجو توضيحه وتزويدنا بتوجيهات محددة بشأنه . إن عزيز بك المصرى عنصر مهم جدا ، ولكنه غير قادر على العمل إذا كنا سنعرقل جهوده وجهود زملائه . ”

ورد وزير الخارجية البريطانى السير ” إدوارد جراى ” على ذلك ببرقية منه إلى المعتمد البريطانى فى مصر السير ” هنرى ماكماهون ” - وهو المسئول عن المكتب العربى وعن ” كلايتون ” - جاء فيها :

” تستطيع أن تقدم أية تأكيدات تقترحها لعزيز المصرى باسم الحكومة البريطانية . إن الحركة العربية لا بد من تشجيعها بكل وسيلة ممكنة ، ويمكن لعزيز المصرى أن يبدأ فى تنظيم القوة التى يريد بها . وتستطيع أن تضع تحت تصرفه ٢٠٠٠ جنيه استرلىنى إذا كنت ترى أن ذلك مفيد . ولك أن تطلب منه أن يظل على اتصال بمكتب القاهرة وبالمعتمد البريطانى ، وأن تتعهد له بأننا سوف نساعد الحركة القومية العربية بمقدار ما يبدو من تأثيرها . ”

ودعى ” عزيز المصرى ” إلى مقابلة ” كلايتون ” الذى أبلغه باستعداد الحكومة البريطانية لمساعدة القوميين العرب . وكان أول ما طلبه ” عزيز المصرى ” هو مساعدته فى الاتصال بالضباط العرب العاملين فى الجيش التركى فى العراق ، وبواحد منهم بالذات هو فى نظره أنشطهم ، وهو ضابط شاب اسمه ” نورى السعيد ” .



كان لا بد للاتصال بالضابط العراقي "نورى السعيد" (الذى أصبح فيما بعد رئيسا لوزراء العراق) من تعاون حكومة الهند التي كانت قواتها في ذلك الوقت عاملة في البصرة ، وأدى ذلك إلى إخطار نائب الملك في الهند ورئيس مكتب دلهي - "بيرسى كوكس" - بما يدور في القاهرة من اتصالات مع القوميين العرب . ولم يكن نائبا الملك في الهند ولا رئيس مكتب دلهي على اتفاق مع سياسة المعتمد البريطاني في مصر ولا مكتب القاهرة . وعلى أى حال فإن "بيرسى كوكس" (رئيس مكتب دلهي) تمكن من العثور على الضابط العراقي الشاب "نورى السعيد" وسهل له أن يجىء، ليلقاه في البصرة . وكتب "بيرسى كوكس" بعد ذلك تقريرا عن المواجهة قال فيه :

" قابلت نوري السعيد . بدا لي ضابطا حالما له ميول اشتراكية . إنه شاب في حوالي الخامسة والعشرين سنة من العمر ، وهو يعاني من مرض في الصدر ، ويبدأ لي أوروبيا في مظهره . وقد حدثني عن المشروع العربي الذي يشارك فيه هو ورفاق له أبرزهم عزيز المصري الذي تعرفونه من القاهرة . وقال إن هدفهم هو تحقيق أهداف الأمة العربية بصفة عامة . وأبدي لي موافقته على قيامنا باحتلال البصرة إذا كان ذلك بداية لتشجيع عمل عربي يحقق تحرير العرب الذين يريدون أن يحتفظوا بعلاقات ودية معنا . وقال لي إنه يستطيع أن يساعد على سحب كل الضباط العرب الذين يخدمون في جيش جاويد باشا (والى بغداد) ، كما أنه يستطيع مع عدد منهم أن يحصلوا على ولاء كثيرين من قادة القبائل في وادي الفرات للتعاون معهم ، وأنه بالتنسيق بين الضباط وشيوخ القبائل فإن قيادة الثورة العربية سوف تستطيع أن تشد إليها أحلام الشعوب العربية الراغبة في الاستقلال .

ومن جانبي ، فإنني أنظر إلى هذه الأفكار والمشروعات بشك كبير ، وأراها خيالية وغير عملية . ولست أعتقد أنه سيكون في استطاعة الضباط والشيوخ أن يتعاونوا معا . إن تصورات الضباط العرب ، بمن فيهم نوري السعيد ، عن أن احتلالنا للبصرة هو مقدمة لتحرير العرب جموح إلى الخيال سقيم . فنحن نزلنا هناك لنأمن الهند ، وهذا يتأتى بضم العراق إلى ممتلكات التاج البريطاني . وبصفة عامة فإنني أخشى من كل هذا المشروع العربي ، وأقترح عليكم حتى تنجلي الأمور تجميد مشروعات عزيز المصري ورفاقه ، ومنعه إذا أمكن من مغادرة مصر .

وفي هذه اللحظة كانت حكومة الهند هي الأكثر نفوذا في لندن . وهكذا فإن وزير الخارجية "إدوارد جراي" ما لبث أن بعث للقاهرة ببرقية حازمة جاء فيها بالنص :
" في الوقت الحاضر ، وحتى صدور تعليمات أخرى ، يجب الامتناع عن إعطاء أى تشجيع محدد لمعزىز المصري ."

مارك سايكس

" من الذى قال لناشب الملك فى الهند إننا نريد حكومة عربية موحدة ومستقلة؟"

(تأشيرة لوزير خارجية بريطانيا السير إدوارد جراى" على مذكرة من الحاكم العام البريطانى للهند)

مع دخول تركيا الحرب عاد المركز الإمبراطورى فى القاهرة يستعيد ثقله ووزنه فى صنع السياسة البريطانية . وبالفعل فإن القاهرة فى بداية سنة ١٩١٥ تحولت إلى قيادة متقدمة للجبهين العسكرى والسياسى للحلفاء . ولاح على الفور أن ما توقعته الاستراتيجية البريطانية من هجوم تركى فى اتجاه قناة السويس على وشك أن يتحقق . وبالتالي فإن قائد القوات البريطانية فى مصر - الجنرال "ماكسويل" - صدرت إليه الأوامر بأن يستعد لصد هجوم تركى محتمل ، وأن يكون جاهزا بعده لأخذ زمام المبادرة والتقدم عبر سيناء إلى فلسطين .

وهكذا أصبح مستقبل الممتلكات التركية فى المشرق مطروحا للمناقشة وللقرار . ومع تدفق قوات عسكرية من كل أرجاء الإمبراطورية على مصر استعدادا لملاقاة الهجوم التركى المحتمل والرد عليه ، فإن النشاط السياسى فى القاهرة بلغ ذروة عالية :

١ - كان مكتب القاهرة طرفا فى التنسيق الضرورى الذى قامت به لندون مع باريس ، فالظروف فرضت بنفسها قيام مسرح رئيسى للعمليات خارج أوروبا . ثم إنها طرحت واقعيًا

ضرورة الاتفاق على خطوط عامة لقسمة التركة العثمانية . وكانت لندن وباريس قد اتفقتا على خطوط رئيسية :

● إنه لا بد من فصل بين "الساحل" و"الداخل" فى خريطة جديدة للعالم العربى . فالقوى الأوروبية يمكن أن تتقاسم النفوذ فى "الساحل" المطل على البحر الأبيض والمحيط به.^(٧) وأما "الداخل" بكل ما فيه من الصحارى والقبائل فأمره معقد ويمكن تركه للعرب إذا ما ساعدوا على هزيمة تركيا .

● وهكذا أضيف إلى تقسيم العالم العربى خط رأسى مواز للخط الأفقى .

– الخط الرأسى يعزل "الساحل" عن "الداخل" .

– والخط الأفقى يعزل مصر عن سوريا (بوطن قومي لليهود فى فلسطين طبقا للسياسة البريطانية من "المارستون" إلى "دزرائيلى" إلى "لويد جورج") .

وكانت فرنسا تريد سوريا الشمالية وتعتقد أن لها حقوقا تاريخية فى بيروت وجبل لبنان وما حولهما إلى وديان الشام ، بما فى ذلك دمشق وحمص وحلب وحمص والموصل (شمال العراق) .

وفى مقابل ذلك فإن بريطانيا كانت تريد إلى جانب مصر والسودان منطقة ما بين النهرين (العراق) والخليج . كما أن عينها كانت على فلسطين ، فهى لازمة لخطتها فى الفصل ما بين مصر وسوريا .

٢ - ولم يكن مكتب القاهرة راضيا عن هذه الخطوط العريضة ، معتقدا أن لندن أعطت لباريس فيها أكثر مما تستحق . ولأن باريس كانت تشك فى النوايا البريطانية ، فإنها أرسلت إلى القاهرة خبيرا مقبلا فى المفوضية الفرنسية هو "جورج بيكو" . وفتح "جورج بيكو" فى القاهرة فعلا مكتب اتصال كبيرا ، وراح يقيم منه علاقات وثيقة مع كثيرين من اللاجئين من الشام ، وبينهم كثيرون من الشخصيات المسيحية التى اختارت القاهرة موطنها فى ذلك الوقت هربا من الاضطهاد العثمانى . ثم إنه راح يرسم مع بعض قياداتهم خططا لمستقبل الحكم فى شمال سوريا بعد تحريرها من السيطرة العثمانية ..

٣ - وكان مكتب القاهرة متمسكا بحقه وبسلطته فى العمل . وفى هذا الوقت كان همه بالدرجة الأولى منصرفا إلى محاولة الاتصال بالداخل العربى رغم ما بدا من تراض على مستقبله ومصيره بين باريس ولندن .

(٧) كانت الإمبراطورية البريطانية قد طبقت هذه السياسة بالفعل فى الخليج ، من رأسه عند البصرة نازلة منها إلى ميفيق "هرمز" ومتجهة بعد ذلك غربا حتى عدن فى طوق ساحلى محيط بشبه الجزيرة العربية كله

كان مشروع "عزيزى المصرى" قد أوقف ، لكن هناك بدائل غيره راحت تطرح نفسها . وكان من أهم البدائل التى طرحت نفسها أن تركبنا التى سارعت تعزز سيطرتها على ممتلكاتها الشرقية ، رأت استبعاد الشيوخ وزعماء القبائل ممن راودها الشك فى ولائهم لها ، وكان من بينهم والى مكة الشريف "حسين بن عون" . وبحكم آلية الفعل ورد الفعل فإن الشريف الذى كان يضر الكراهية لتركيا ويخشى من إقدامها على خلعها لأسباب محلية بحتة ، مضى يساير ابنه الثانى الأمير "عبد الله" الذى كان من رأيه الاتصال بالإنجليز فى مصر والحصول على تأييدهم كثقل مواز لآلية تصرفات تركية إزاء والى مكة . وكان ذلك يتفقد على نحو أو آخر مع خطط بريطانيا فى الاهتمام بالداخل الذى لم يتم الاتفاق عليه بين باريس ولندن ، على عكس الساحل الذى تم الاتفاق عليه

وفى البداية فإن مكتب القاهرة كان على استعداد لأن يتصل بالشريف "الإدريسى" والى عسير . ولكن حكومة الهند اعترضت طريقه مرة أخرى لأن عسير ملاصقة لعهدن التى تحتلها بالفعل قوات حكومة الهند .

٤ - فى نفس الوقت فإن القوميون العرب من أنصار الاتجاه الإسلامى فى مصر ، وزعيمهم فى ذلك الوقت هو الشيخ "رشيد رضا" (تلميذ الإمام "محمد عبده" ومحرر جريدة "المنار" العتيقة - راحوا يتصلون بمكتب القاهرة وشاغلهم هو المحافظة على الخلافة ونقلها من الخلفاء الأتراك إلى خلفاء من المسلمين . وكان مصير الخلافة يطرح نفسه بالفعل بعد هزيمة تركيا . وكان هناك إحساس عام بأن مستقبل الخلافة يشغل بال جماهير عربية وإسلامية واسعة . وكان على الحكومة البريطانية أن تواجه هذه المشاعر بتصرف يهدئ الخواطر ويطمئن جموع المسلمين فى العالم العربى وخارجة .

٥ - ومن أثر هذا كله أن وزير الخارجية البريطانى السير "إدوارد جراى" بعث ببرقية إلى السير "هنرى ماكماهون" المعتمد البريطانى فى مصر ، جاء نصها على النحو التالى :

" إنك مخول إذا وجدت ذلك مناسباً أن تعلن أن حكومة صاحب الجلالة سوف تصر ضمن شروطها بعد النصر على أن تقوم حكومة إسلامية مستقلة تنتقل إليها مسئولية الخلافة . إنك لست مطالباً الآن بأن تقول أى شىء عن حدود هذه الدولة الإسلامية ، و يكفيك أن تقول بطريقة دبلوماسية إن أمر الخلافة سوف يقرره المسلمون ودون تدخل من قوى أجنبية . وإذا قرر المسلمون قبول خلافة عربية ، فإن هذا القرار سوف يكون موضع الاحترام من جانب حكومة صاحب الجلالة ."



وبدأت هذه الخطوط تتلاقى في القاهرة عندما جاء الأمير "عبد الله" إليها لفتح أول قننة اتصال بين والده الشريف "حسين" وإلى مكة وبين دار المعتمد البريطاني في القاهرة ممثلاً للحكومة البريطانية . وبدأ الاتجاه إلى الهاشميين في مكة (الشريف "حسين" وأبنائه ، وبالذات "عبد الله" و"فيصل") ، لكي يكونوا الركيزة المبدئية لفكرة الخلافة الإسلامية .

وفي اتصالات لاحقة مع مكتب القاهرة قدم الشريف "حسين" خريطة لمستقبل دولة عربية إسلامية تنتقل إليها خلافة المسلمين . ولاحظ مكتب القاهرة على الفور أن خريطة الشريف "حسين" تتفق إلى حد كبير مع ما كان يقول به كل من "عزيم المصري" والشيخ "رشيد رضا" ، رغم أن أولهما كان يمثل التيار القومي ، والثاني يمثل التيار الإسلامي . وكتب السير "هنري ماكاهون" إلى وزير الخارجية البريطاني - السير "إدوارد جراي" - يقول له :

" إن كبير خبرائي في الشؤون العربية "رونالد ستورز" (وهو شخصية بارزة في المخابرات البريطانية في الشرق الأدنى ومؤلف كتاب شهير هو "مشرقيات Orientations") يرى أن هناك تطابقاً واضحاً بين الأفكار التي يعرضها الشيخ "رشيد رضا" وبين خطة الشريف "حسين" ، خصوصاً فيما يتعلق بمسألة حدود الدولة العربية المستقلة المقترحة ، الأمر الذي يقطع بأن الشيخ على اتصال بشريف مكة . كذلك فإن هذه الخطط لا تتعد كثيراً عما قاله "عزيم بك المصري" . ويظهر أن هناك اتصالاً من نوع ما بين الجميع ."

وكانت الخريطة الأولى التي بعث بها الشريف "حسين" إلى القاهرة لا تتوافق بالطبع مع التنسيق المتفق عليه بين لندن وباريس . فلم يكن فيها ذلك الفاصل بين مصر وسوريا (أفقياً) ، ولا كان فيها ذلك الفاصل بين الساحل والداخل (رأسياً) في العالم العربي . وإنما كانت خريطة الشريف "حسين" تشمل سوريا كلها بما فيها فلسطين ، والعراق ، وشبه الجزيرة العربية . ثم إن الخريطة لم تدخل مصر في إطارها لأن مصر كان لها وضع خاص مختلف إلى حد ما عن بقية العالم العربي ، كما أن الأسرة المالكة فيها - وهي أسرة "محمد علي" - كانت ذات وضع متميز يفرق بينها وبين كل الأسر القبلية الحاكمة وقتها في المنطقة .

وكانت الخطط والخرائط لا تزال بعد في مراحل الإعداد الأولى ، ومع ذلك فإن ما تسرب من أمرها دعا أطرافاً كثيرة إلى التطير من أمرها . وكان أول المتطيرين هو حكومة الهند التي لم تكن تريد بالقطع حكومة إسلامية عربية مستقلة - حتى وإن كانت موالية لبريطانيا - مجاورة لشبه القارة الهندية . وتعللت حكومة الهند في معارضتها لما يجري

فى القاهرة من مناقشات حول مستقبل العالم العربى ومستقبل الخلافة ، بأن صديقها "ابن سعود" حاكم نجد ، وهو على صلة وثيقة بها ، لن يقبل بأى حال من الأحوال أن يعطى بيعته للشريف "حسين" خليفة للمسلمين ، ولن يقبل بنفس الدرجة سلاطين وشيوخ اليمن وعسير وغيرها من الأقاليم العربية الواقعة فى اختصاص حكومة الهند .

وعلق "جرى" وزير الخارجية البريطانى على هذه البرقية بعبارة كتبها على هامشها قال فيها : "من الذى قال لنائب الملك فى الهند إننا نريد حكومة عربية موحدة ومستقلة؟!"

وكان التعليق بليغا فى دلالة !

وأما مصدر المعارضة الثانى فقد كان باريس التى أحست أن بريطانيا تجرى اتصالات ومشاورات وترتيبات فى المشرق العربى دون تشاور معها .

وهنا طلب "جورج كليمنصو" - رئيس الوزارة الفرنسية - من نظيره البريطانى ضرورة الاتفاق بين الحليفين الكبيرين ، على مستقبل المنطقة بطريقة أوضح وأصرح . ووافقت لندن على الطلب الفرنسى حتى لا يتعقد مسار الحرب ، وتقرر تأليف لجنة بريطانية فرنسية تجتمع فى باريس لكى تضع خريطة جديدة للشرق الأوسط تعدل فى قسمة التركة العثمانية بين القوتين الكبيرتين . واختارت فرنسا رجلها فى هذه اللجنة وهو قنصلها العام فى القاهرة "جورج بيكو" ، كما أن الحكومة البريطانية اختارت السير "مارك سايكس" لكى يكون ممثلها فى مقابل "بيكو" .



لا يزال ظهور "مارك سايكس" على مسرح الشرق الأوسط والدور الذى قام به فى تلك اللحظة لغزا من الألغاز . ولم يكن "مارك سايكس" يهوديا وإنما كان كاثوليكيًا ، وكان إضافة إلى ذلك صهيونيا بالمعنى المسيحى . ويمكن أن يقال إضافة إلى ذلك إن التأثيرات اليهودية عليه كانت غالبية ، فوالده اللىدى "هنريتا سايكس" كانت لسنوات طويلة عشيقة للمسياسى البريطانى الشهير "بنجامين دزرائيلى" أول وآخر يهودى يتولى رئاسة الوزارة فى بريطانيا (وذلك طبقا لما ورد فى تاريخ حياته المعتمد الذى نشرته "جين رايدلى" فى لندن سنة ١٩٩٥) . وكان "مارك" ابن "هنريتا" موضع اهتمام "دزرائيلى" الذى ظل فى رئاسة الوزارة أو خارجها سياسيا واسع النفوذ شديد الارتباط بالفكرة الصهيونية ، مؤمنا وعملا من أجل توطيد اليهود فى فلسطين . ومن المعقول أن كثيرا من قناعات "دزرائيلى" رسخت فى وعى "مارك

سايكس" من أهم طفولته وشبابه ، كما أن شخصيته تأثرت أيضا بروح المغامرة واللامبالاة التي اشتهر بها "دزرائيلي" .

وقبل الحرب كان "مارك سايكس" قد أصبح عضوا فى مجلس العموم البريطانى ، واشتهر - بالفعل - بتعاطفه مع اليهود ومع الحركة الصهيونية . وكانت صلته وثيقة بكثيرين منهم ، وأولهم اللورد "روتشيلد" .

وطبقا لرواية "مارك سايكس" نفسه فإنه فور نشوب الحرب التحق بفرقته وذهب معها إلى خنادق القتال فى فرنسا . وذات يوم من ربيع سنة ١٩١٥ (بعد نشوب الحرب بعدة شهور) كان اللورد "كيتشنر" - قائد القوات البريطانية السابق فى مصر والقائد العام للجيش البريطانى وقتها - يتفقد مواقع الجبهة فى فرنسا ، ووصل إلى مركز قيادة متقدم ، فإذا عينه تقع على "مارك سايكس" . ويروى "مارك سايكس" فى مذكرة كتبها أن اللورد "كيتشنر" فوجئ به موجودا فى جبهة القتال ، فوجه إليه إحدى نظراته التي اشتهرت بحزمها ونفاذها ، وقال له بحدّة : "سايكس ، ماذا تفعل هنا؟" ورد "سايكس" قائلا لـ "كيتشنر" : "أودى واجبى يا سيدى" . وقال له "كيتشنر" بسرعة : "مكانك فى هذه الحرب ليس هنا ، مكانك فى الشرق ، فإذهب إلى هناك" . ثم استطرد "كيتشنر" محذرا أمره وقائلا لـ "مارك سايكس" : "سلم كتيبتك الليلة إلى نائيك وتوجه إلى لندن ، وستجد هناك تعليمات تنتظرك بما يتعين عليك أن تعمله" .



وعندما وصل "مارك سايكس" إلى لندن عرف أن مهمته فى الوقت الراهن هى رسم خريطة الشرق العربى بالتنسيق مع فرنسا ، بما فى ذلك الاتفاق على قسمته بين القوتين . وسافر "سايكس" من لندن إلى القاهرة ، ثم عاد بعد ذلك إلى باريس ليلتقى بـ "جورج بيكو" - الذى أصبح قنصل فرنسا فى القاهرة - ويبدأ معه المفاوضات التى انتهت بينهما بالاتفاقية التى اشتهرت باسم "سايكس - بيكو" .

إن الاتفاقية التى وقع عليها الاثنان ظلت سرا من أسرار الحرب حتى قامت حكومة "سان بيتسبرج" المؤقتة بعد سقوط حكم "آل رومانوف" فى روسيا ، وبعد قيام الدولة البولشفية فيها ، بإذاعة نصوصها وخرائطها . وأحدثت إذاعتها صدمة كبرى فى العالم العربى .

وكان أكثر من أصيبوا بالصدمة هو المعتمد البريطانى فى القاهرة السير "هنرى ماكماهون" ، بالإضافة إلى مكتب المخابرات فيها (مكتب القاهرة) الذى يشرف عليه

"جلبرت كلايتون" ، "لأن ما فيها جاء متناقضا في كثير منه مع كل ما كانت تجرى مناقشته من خلال الاتصالات مع الشريف "حسين" وأبنائه ، وبالذات "عبد الله" و"فيصل" .

وبالفعل فإن الأطراف العربية جميعها أخذت على غرة ، فخريطة "سايكس - بيكو" التزمت بالتقسيم بين "الساحل" و"الداخل" ، وهو أمر لم يكن الشريف "حسين" ، ولا كان القوميون والإسلاميون العرب - من أنصار مشروع الدولة العربية المستقلة والخلافة الإسلامية العربية - على دراية به . ثم إن الخريطة - بعد ذلك - كانت قاطعة في أن فرنسا سوف تحصل على سوريا ، وهذا أمر يعارضه الشريف "حسين" ، كما يعارضه كل الثوار العرب ، وهو كذلك أمر لا يوافق عليه المركز الإمبراطوري في القاهرة ، وعلى رأسه المعتمد البريطاني في مصر السير "هنري ماكماهون" ، ومكتب المخابرات (مكتب القاهرة) الذي يرأسه "كلايتون". وكان رأى هؤلاء جميعا ، ومعهم القائد العام للقوات البريطانية في مصر ، أن فرنسا بوجودها في سوريا سوف تكون قريبة أكثر مما ينبغي من قناة السويس ، مما يعطيها الفرصة لإثارة المتاعب أمام بريطانيا في مصر ، مع العلم - على حد تعبير السير "هنري ماكماهون" - بأن "أصدقاء اليوم يمكن أن يصبحوا أعداء الغد ، وأن الحلفاء قد يتحولون إلى أصدقاء إذا ما تغيرت الظروف" .

وكانت ذريعة المعتمد البريطاني في مصر وكذلك مكتب القاهرة في تحفظهما إزاء الاتفاقية أن نوصوها ظلت سرا عليهما - رغم مسؤولياتهما الإمبراطورية - ، ثم إن الشريف "حسين" وكافة الأطراف العربية القومية والإسلامية سوف يعتبرون المعاهدة خيانة لهم ، وفي هذا الوقت الحرج بالذات فإن ذلك قد يؤدي إلى مضاعفات خطيرة .

والغريب أن المعتمد البريطاني في القاهرة تلقى تعليمات بإبلاغ الشريف "حسين" أن ما قيل عن خريطة مزعومة تم الاتفاق عليها لتقسيم المشرق بين بريطانيا وفرنسا ، هو "محض دعاية مغرضة قام بها البلاشفة الملاحدة في روسيا لإفساد الصداقة العربية - البريطانية".

إن الشريف "حسين" - رغم شكوك راحت تعاوده بين حين وآخر - كان على استعداد لأن يصدق ما تقوله الحكومة البريطانية . وربما أنه كان لا يزال بعد مؤمنا بـ "وعد الشرف" الذي تقطعه الحكومات الكبرى على نفسها لأصدقائها في الحروب . أو ربما أن وعيه بأمر السياسة الدولية كان ما زال مأخوذاً بتجاربه القبلية السهلة والبسيطة . وأما الشخصيات العربية من القوميين والإسلاميين الذين التفوا حوله وجعلوا منه راية يناضلون تحتها ، فقد كانت صدمتهم كبيرة ، وضاعفت من وقع الصدمة حادثة شريفة وقعت في ذلك الوقت . فقد حدث والجيش البريطاني يتقدم تحت قيادة الجنرال "النبى" إلى تخوم فلسطين أن

اقتحم الأتراك مبنى القنصلية الفرنسية في بيروت ، فإذا هم هناك يعثرون على قائمة كاملة بأسماء الزعماء السوريين الذين يتعاونون في حركة الثورة العربية مع الشريف "حسين" ، وكان أن قاموا بتشكيل محكمة عسكرية أصدرت حكم الإعدام على أربعة عشر من هؤلاء الزعماء ، وجرى تنفيذ الحكم فيهم فعلا بعد أيام من صدوره ، والتف حبل المشنقة على صفوة من الزعماء السوريين من أنصار دولة الخلافة العربية الجديدة . وأدى ذلك ومضاعفاته إلى نوع من الإحباط في صفوف الثورة ، تبدى ضرره في العلاقات بين العناصر القومية من الضباط والتجار والأعيان والموظفين ، وبين القيادة القبلية المتمثلة في الشريف "حسين" وأبنائه .

كان هناك اعتقاد جازم في صفوف الثورة العربية ومواقعها في الشام ، بأن الأتراك لم يعثروا على هذه القائمة بأسماء القادة السوريين مصادفة ، وإنما كان الأمر ترتيبا فرنسيا قصد منه الخلاص من العناصر القومية المحركة للثورة والفاعلة في صفوفها ، والمعارضة لتقسيم سوريا، والمطالبة بدولة عربية موحدة . ومن المفارقات أن مكتب القاهرة البريطاني كان مشاركا في هذه الظنون ، ولكنه مع ذلك أكمل اتصالاته مع الشريف "حسين" وكان شيئا لم يحدث .

الشريف حسين

"المفاوضة على الحدود والتخوم سابقة
لأرانها وهي مضيعة للوقت الآن"

(المعتد البريطاني في مصر "ماكاهون" في
خطاب إلى شريف مكة)

يستطيع أى قارئ لمجموعات الوثائق البريطانية لرئاسة مجلس الوزراء ولوزارة الخارجية ولوزارة المستعمرات ولوزارة الحربية ولوزارة شؤون الهند ، أن يكتشف بدون عناء أن السياسة البريطانية ، لم يكن في نواياها ولا في خططها ما يشير إلى أنها تريد أن تفسى بكل التعهدات التي قطعتها على نفسها أثناء الحرب . يستوى في ذلك تلك العهود التي اتفقت عليها مع فرنسا بمقتضى اتفاقية "سايكس - بيكو" ، أو تلك التي أعطتها لقيادات الثورة العربية في ذلك الوقت : الشريف "حسين" وأبناؤه ، أو "عزيز المصرى" ورشيد رضا" ، وغيرهم .

والشاهد أن أكثر ما يكشف الرغبات الحقيقية للحكومة البريطانية ، هو مجموعة محاضر وزارة الحرب التي ناقشت الاستراتيجية العليا لبريطانيا في منطقة الشرق الأوسط . وقد اعتمدت هذه المناقشة بالدرجة الأولى على تقرير قدمه اللورد "كيتشنر" وزير الحربية ، وهو في نفس الوقت خبير بقضايا المشرق من تأثير خدمته الطويلة في مصر .

وفي مجموعة الوثائق السرية لمجلس الحرب البريطانى ، (مجموعة الوثائق التي تبدأ من محضر اجتماع لمجلس الوزراء رقم ١/٢٧ (مجلس الوزراء) إلى برقية وزارة الخارجية رقم م س ٦٣٥٤٩) - وهي مجموعة يضمها دولا ب كامل في محفوظات سنوات الحرب وتصل إلى

قراءة ثلاثة آلاف صفحة - فإن صورة النوايا والخطط البريطانية الحقيقية تتكشف على النحو التالي :

١ - إن بريطانيا يجب أن تحتفظ بسيطرة فاعلة على الساحل السوري بدءاً من فلسطين وانتهاء بالإسكندرونة على الحدود التركية ، فتلك ضرورة لتكملة سيطرتها على الساحل المصرى فى شمال أفريقيا . وأقصى ما يمكن أن تسمح به بريطانيا هو أن تترك لفرنسا جزءاً من ساحل سوريا الشمالى تحت اشتراطات معينة . ولما كان احتلال القسم الأكبر من الساحل السوري بأكمله قد يثير مشاكل مع فرنسا ، فإن مواقع منه يمكن أن يسمح لها بطابع خاص يستجيب لمطالب السيطرة البريطانية . (وكان التفكير الذى ورد فى مناقشات مجلس الحرب هو أن يكون هناك موزاييك من القوميات والأديان فى منطقة الساحل . وقد أشار اللورد "كيتشنر" فى هذه النقطة إلى حبات عقد بينها : مسلمون فى سينا - يهود على ساحل فلسطين الجنوبي - مسيحيون فى وسط الساحل السوري - طوائف عربية غير سنية فى شمال الساحل السوري - ثم يكون من شأن هذا الموزاييك المتجاور وربما المتناظر أن يجد لنفسه مصلحة بشكل من الأشكال مع بريطانيا تحقق هدفا مزدوجا : يتخفف الموزاييك الساحلى من ضغط الداخل عليه ، وفى ذات الوقت فإن ذلك يعطى لبريطانيا - إذا استلزمت مصالحها - منافذ تضغط منها على هذا الداخل نفسه .)

٢ - إن الأماكن المقدسة لكل الأديان فى الشرق يجب أن تكون تحت الحماية البريطانية. وعلى لسان "كيتشنر" نفسه فقد وردت عبارة قال فيها أثناء مناقشات وزارة الحرب : "إن الأماكن المقدسة للـ"محمديين" (كتبت فى محضر الجلسة Mohamets) فى مكة وفى المدينة يجب أن تكون تحت الحماية البريطانية بطريق غير مباشر لمراعاة التعصب الإسلامى . وكذلك يجب أن تكون كربلاء والنجف فى العراق . ونفس الشيء ينطبق على كنيسة القيامة وقبة الصخرة وحائط المبكى فى القدس . فذلك يعطى الإمبراطورية البريطانية حق أن تواجه العالم باعتبارها حامية كل المقدسات الدينية ."

٣ - إن بريطانيا يمكن لها أن تفكر جدياً فى التمهيد لإقامة خلافة إسلامية عربية شريطة أن تجد "البيت الإسلامى" الذى تعطيه تأييدها فى مقابل ضمان ولائه لها . ومن المفهوم أن يكون قيام الدولة العربية الإسلامية محصوراً فى الداخل الصحراوى من العالم العربى ، فهذه المنطقة بين الخليج الفارسى والبحر الأحمر سوف تظل مهمة للإمبراطورية ولضرورات الدفاع عنها .

٤ - إن بريطانيا لا بد أن تضمن سيطرتها على ما بين النهرين (يقصد العراق) لأن هذه هى المنطقة التى يمكن منها منع روسيا من الوصول إلى المحيط الهندى . ولا بد لبريطانيا أن تمد فيها وتحت إشرافها خطوط مواصلات - ضمنها سكك حديدية تمتد من الموصل إلى البصرة - لربط شبكة المواصلات الإمبراطورية .



كانت هذه هي الخطوط الاستراتيجية . وأما أساليب تنفيذها فإن الوثائق البريطانية تتكفل باعطاء صورة عنها ، وبالذات الوثيقة رقم ٢٧٦٨/٧٨٣ - ٣٧٩ ، وهي تحمل تعليمات موجهة إلى السير "هنرى ماكماهون" المعتمد البريطانى فى مصر ، و إلى البريجادير "جلبرت كلايتون" رئيس مكتب القاهرة ، وقد جاء فيها ما يلى :

" إن الوقت قد أزف لكى يقوم العرب بدورهم فى مساعدة المجهود الحربى البريطانى فى الشرق . ونحن نرى أن ذلك يمكن أن يبدأ بدون نظر للحساسيات الفرنسية التى تريد منا أن نتشاور معهم فى كل كبيرة وصغيرة . إنه من الضرورى لنا أن نلاحظ أن لدينا صداقات مع العرب لا تملكها فرنسا . بل إن بعض أصدقائنا العرب يكرهون الحكومة الفرنسية أكثر من كراهيتهم لحكومة السلطان فى إستانبول .

لقد ناقشنا أفكار عزيز المصرى الجديدة كما عرضها عليكم . وكذلك ناقشنا أفكار غيره مثل نورى السعيد والسيد الفاروقى وحسن خالد والدكتور شهبندر ، وكذلك الشيخ رشيد رضا .

إننا نرى أن عزيز المصرى يحمل أفكارا متشددة وقد يثير صعوبات فى المستقبل ، ولذلك فإن التعامل معه يجب أن يكون بحذر دون اعطائه الفرصة لكى يتصل من التعاون معنا . وفى نفس الوقت فإن نورى السعيد يظهر قدرا من الاعتدال يشجع على التعامل معه . وأما الشيخ رشيد رضا فيمكن ترك أمره إلى مرحلة لاحقة .

وفى الاتصالات مع هؤلاء جميعا فإننا نريد مراعاة القواعد التالية :

- ١ - إن التعامل مع الشيوخ أثبت أنه أفضل ، فمطالبهم بسيطة ومحددة ، وهم لا يضيعون الوقت مثل الآخرين فى تفاصيل لم يحن وقتها بعد .
- ٢ - ليس من الضرورى لنا أن نتعامل مع كل من يتصل بنا على نفس المنهج . فكل واحد من العرب الذين يتصلون بنا له منطقه وله أهدافه .
- ٣ - يجب أن نحاذر فى هذه المرحلة من إعطاء أية تعهدات تفصيلية ومحددة ، خصوصا بشأن المطالب الخاصة باستقلال العرب . فنحن فى هذه المرحلة من الحرب لا نستطيع أن نربط أنفسنا بأكثر من وعود بسيطة تاركين التفاصيل إلى ما بعد الحرب .
- ٤ - ليس من الحكمة ترك الكتائب العربية تعمل فى مواطنها عندما تبدأ عمليات الثورة لأن ولاء هذه الكتائب بين أهلها قد لا يكون مضمونا . ومن المستحسن أن يكون هناك تنسيق أفضل مع دلهى ، لأن اللورد هاردنج قد تعهد بتدبير

قوات مسلحة من جيش الهند لأداء بعض الأعمال الرئيسية وخصوصا على خطوط المواصلات الحيوية .

٥ - لا بد من ملاحظة أنه في هذه المنطقة فإن مواقف معينة يمكن شراؤها بالمال بدلا من اضاءة الوقت والجهد في عمليات عسكرية قد لا تكون ضرورية . وعلى سبيل المثال فإننا عرضنا مليون جنيه استرليني على خليل بك قائد القوات التركية في العراق حتى يرفع الحصار عن القسوة البريطانية المعزولة في "الكوت" تحت قيادة الجنرال "تاونسند" . وهذا نموذج يمكن تطبيقه في مواقع أخرى . "

كانت الترجمة المباشرة لمثل هذه التعليمات - وهناك اشارات متناثرة في كل المجموعة البريطانية في تلك الفترة - تظهر أسلوبا في التعامل يعكس أساسيات واضحة لا لبس فيها:

• إن الحكومة البريطانية تعطي نفسها حق العمل منفردة في كل المنطقة . وهي تعرف أن فرنسا لها مطالب تاريخية واستراتيجية قد تتمسك بها . لكن المرونة مطلوبة . ففي فترة من الفترات يكون التأجيل أو السكوت أسلم ، وفي فترة أخرى تستطيع بريطانيا أن تتصرف على الأرض بما يناسب مصالحها ، ثم تتصور لنفسها القدرة على تهدئة مشاعر فرنسا وتطوع عصبية ممثلها (مثل "جورج بيكو") ، وحجتها عليهم أن العرب لا يريدون فرنسا ، ثم إن تعاون هؤلاء العرب مع الحلفاء ضروري الآن . وبالتالي فإن فرنسا مطلوب منها أن تضبط أعصابها وتترك بريطانيا تتصرف بحرية ، وهي سوف تفعل ذلك مراعية لضرورات الحرب ولصالح النصر .

• إن الحكومة البريطانية تحاول التفرقة بين العناصر التقليدية (السلطنات والقبائل والمشايخ) وبين العناصر الجديدة في العالم العربي (الضباط والتجار والأعيان والمفكرون). ومن أثر هذه التفرقة يمكن أن يحدث تناافر بين الطرفين يكون الممثلون السياسيون البريطانيون هم المرجع فيه والحكم .

• إن الحكومة البريطانية يمكن أن تمارس مشاورات تتكفل بالتفرقة داخل معسكر العرب التقليديين المطالبين بالملك والنفوذ ، وداخل معسكر العرب الذين يمثلون التيار الجديد المطالب بالحرية والاستقلال . والمقصود أن يكون من شأن تطور الأمور وضغوط الحوادث أن يتعمق الخلاف بين التقليديين - مثل الهاشميين والسعوديين - وأن تترسخ العداوة بينهم . كما أن العناصر الجديدة - تحت نفس الضغوط - سوف تواجه تباعدا وخصاما بين أفرادها الذين سوف ينقسمون بالتأكيد إلى متشددين يطالبون بالتعهدات مسبقة وتفصيلية مثل "عزيز المصري" ، وآخرين معتدلين يقبلون بالتعاون الآن على أمل وضع التفاصيل بعدالحرب مثل "نوري السعيد" .

• إن الحكومة البريطانية خلال هذا كله لن تقدم أى تعهدات أو ضمانات تقيد حريتها مستقبلا وبعد انتهاء الحرب بأية نصوص محددة أو قاطعة فى شأن المستقبل . وليس من حق أحد أن يحاسبها أو يطلب منها إشاحا على نصوص تداع بواسطة طرف من الأطراف ، فتلك كلها إما دعايات سياسية ، وإما ضرورات ظروف سوف يتكفل النصر بتوضيح حقيقتها جميعا وتحديد قيمة كل منها .



وعندما بدأت الثورة العربية تقترب من مرحلة العمل الفعلى ، كانت العناصر الجديدة فى العالم العربى فى ميادين القتال فى الحجاز - وفى مواقع عديدة فى الشام والعراق - بعيدة إلى حد كبير عن المراسلات التى تدور بين الشريف "حسين" وبين السير "هنرى ماكماهون" .

وفى نفس الوقت كان الإنجليز - بصلات مباشرة - أقرب إلى خطط الشريف "حسين" منهم إلى العناصر القومية صاحبة حلم الثورة والدولة العربية المستقلة . وكان أبرز تواجد بريطانى مع الشريف يتمثل فى "توماس إدوارد لورانس" ضابط الارتباط البريطانى الذى اختير من مكتب القاهرة ليتولى التنسيق بين مكتب القاهرة وبين "قيادة الثورة العربية فى الحجاز" .

وكان "لورانس" قد أعجب بثالث أبناء الشريف "حسين" ، وهو الأمير "فيصل" ، على حساب ابنه الثانى "عبد الله" ، والذى كان أرشد الأبناء وأكثرهم قربا من دائرة الاتصالات بين والده وبين القوى العربية المشاركة فى الثورة .

وكان رأى "لورانس" أن "عبد الله" أكثر ثقافة وألح ذكاء ، لكنه رجل يصعب الاطمئنان إليه . وأما "فيصل" فقد قال فى وصفه باختصار : "عندما قابلته لأول مرة عرفت أنى عثرت على الرجل الذى جئت إلى الصحراء العربية باحثا عنه" .

وكان "لورانس" يفرى "فيصل" بأن يتقدم بما لديه من قوات وبأسرع ما يمكن إلى العقبة ، ومنها إلى دمشق ، وبعدها إلى الإسكندرية ، لكى يقطع طريق التراجع على الجيش التركى عندما تهاجمه القوات البريطانية الزاحفة على فلسطين ، وتعمل فى مؤخرته فى الوقت الذى يضغط فيه الجيش البريطانى على مقدمته .

ومن المفارقات أن جيش الأمير "فيصل" الذى اندفع شمالا إلى العقبة كان يضم قوات مدفعية مصرية رتبها "مكتب القاهرة" وألحقها بجيش "فيصل" .

وفي هذه الظروف كتب السير "هنرى ماكماهون" المعتمد البريطانى فى مصر إلى الشريف "حسين" رسالة جاء فيها بالنص :

" إلى السيد الحسين النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية السيد ابن السيد والشريف ابن الشريف الجليل المبجل دولتو الشريف حسين سيد الجميع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رحال المؤمنين الطائعين عمته بركته الناس أجمعين .

بعد رفع رسوم وافر التحيات العطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة نعرض أن لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص وشرف الشعور والإحساسات نحو الإنجليز . وقد سرنا علاوة على ذلك أن نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأى واحد وأن مصالح العرب هى نفس مصالح الإنجليز والعكس بالعكس . ولهذه النسبة فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كيتشنر التى وصلت إلى سيادتكم . . . ، وهى التى كان موضحا بها رغبتنا فى استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها .

وإنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربى صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة .

وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم ، فالفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها وتصرف الأوقات سدى فى مثل هذه التفاصيل فى حالة أن الحرب دائرة رحاها ."

وكان الشريف "حسين" فى عجلة من أمره ، ولم يتوقف كثيرا عند حديث الحدود والتخوم كما فعلت العناصر العربية القومية (مثل "عزيز المصرى" و"رشيد رضا" وغيرهما) . وهكذا فإن الشريف "حسين" رد على السير "ماكماهون" كما يلى :

" إلى حضرة ذى الأصالة فخامة نائب جلالة الملك دام مرعيا

وبعد ،

فبأيدى التوقير والاحتشام تلقينا رقيمكم (خطابكم) الأخير ، وإن مضامينه أدخلت علينا مزيد الارتياح والسرور لحصول التفاهم المطلوب والتقارب المرغوب . أسأل الله أن يسهل المقاصد وينجح المساعى ، ومن الإيضاحات الآتية نفهم الفخامة الأعمال الجارية والأسباب المقتضية .

أولا - قد أعلمنا فحامتكم بأننا بعثنا بأحد أنجالنا إلى الشام ليبرأس ما
يقتضى عمله هناك

.....

ثانيا - عزمنا على إرسال نجلنا الكبير إلى المدينة المنورة بقوة كافية ليكون
دعما لأخيه الذي بالشام

بقى علينا بيان ما نحتاجه والحالة هذه هو :

أولا - مبلغ ٥٠,٠٠٠ جنيه ذهباً لمشاهدة القوات المجندة ونحوها مما ضرورته
تغنى عن بيانه. فالرجاء إحضارها بوجه السرعة الممكنة .

ثانيا - إحضار ٢٠,٠٠٠ كيس أرز و ١٥,٠٠٠ كيس دقيق و ٣,٠٠٠ شعير و ١٥٠
كيس بن قهوة ومثلها سكر ومقدار ١٠٠ صندوق من النوع المرسل منه مريميتين طيه

.....

.....

النقود المطلوبة يقتضى إرسالها فى الحال إلى أمير بورسودان وسيرده من طرفنا
معتمد يتسلمها إما دفعة أو دفعتين على حسب استطاعته . وهذه علامة اعتماد
الرجل (T) ."

لورانس

" بسيفك لا بسيف الإنجليز "

(قصيدة لشاعر الملك "عبد العزيز في وصف دخول
الأمير فيصل إلى دمشق)

عند هذا المنعطف الخطير من التاريخ العربي الحديث لم يكن العرب يتفاوضون أو يتحاورون مع العالم باعتبارهم قوة لها رأى ولها دور فى مستقبل المنطقة التى يعيشون فيها .
ولقد كان مؤسفاً فى تلك اللحظة أن العناصر القومية التى كان يمكن أن تتوافر لديها المعرفة
وبعد النظر الكافيان للمشاركة فى صنع المستقبل بعدت وغابت .

ومن ناحية أخرى ، فإن الشريف "حسين" راح يحاول أن يدير أموره مع الحكومة
البريطانية بطريقة مستقلة ، لكنه لم يكن يملك المعرفة بشئون العالم أو الثقافة السياسية
الكافية للتعامل مع خطط إمبراطورية واسعة ومعقدة . وقد بدأ يحس على نحو ما أنه حتى
أولاده يتصرفون بمعزل عنه .

ولم يكن الشريف "حسين" راضياً فى أعماقه عن تقدم "فيصل" مع "لورانس" إلى الشام
دون تشاور كاف معه ودون أمر صريح منه . وبدأت المخاوف تراوده من أن "فيصل" يريد
سوريا لنفسه . وفى ذات الوقت فإن "فيصل" كان يشكو لـ "لورانس" ولغيره من الضباط
الإنجليز "إن الوالد لا يعرف ما فيه الكفاية عن العصر الحديث ، وهو غير قادر على
التعامل مع عالم جديد سوف يظهر بعد الحرب" .

وكان الأمير "عبد الله" لا يخفى ضيقه هو الآخر بـ "سياسات الوالد" ، ولا يكف عن
إظهار قلقه من انفراد شقيقه الأصغر "فيصل" برضا الإنجليز دونه ، وقد أقلقه أن
"لورانس" انفراد بـ "فيصل" وأخذه مع جيشه فى اتجاه العقبة ، وبعدها إلى دمشق .

ويدوره فإن الأمير "عبد الله" سحب جيشه وراءه وتوجه هو الآخر شمالا حتى وصل إلى منطقة عمان في شرق الأردن ، وتوقف هناك بمعسكره ينتظر ما سوف يحدث سواء في جدة أو في دمشق .

ولم تكن حكومة الهند راضية بالمرّة عن سياسات مركز القاهرة ، معتبرة أن هذا المركز الذى أنشأته وقوته ظروف الحرب يرسم خططا قد تؤثر على الأوضاع في الهند . وفى ذلك الوقت فإن السير "بيرسى كوكس" (رئيس مكتب دلهي) راح يناوئ خطط التعاون البريطاني - الهاشمي ، ويعطى كل تشجيعه وتأييده لأمير نجد "عبد العزيز آل سعود" ، ويشير له من طرف خفي بخلافة المسلمين ، فهو العربي الأصيل الخارج من قلب الصحراء ، والذى لم يتأثر بالثقافة وطرق الحياة التركية - كما حدث للهاشميين الذين عاش معظمهم سنوات شبابه في إستانبول .

ويوم وصل "فيصل" بجيشه إلى مشارف دمشق بعد أن انضمت إليه أعداد من بقايا القوميين والوطنيين في سوريا الذين كانوا يعللون أنفسهم بأى أمل يستبقى فى أيديهم ولو جزءا من حلمهم ، فإن سلطان نجد كان على استعداد لأن يسخر علنا من خصومه الهاشميين . ووقف شاعر بلاطه ، وهو وقتها "فؤاد حمزة" (أصبح فيما بعد سفيره في تركيا) ، يلقي قصيدة يسخر فيها علنا من دخول "فيصل" إلى دمشق . وكانت بداية القصيدة بيتا يقول :

" بسيفك لا بسيف الإنجليز دخلت الشام "إيزى" ثم "إيزى"

مستعلا كلمة (easy) الإنجليزية ، ومعناها "سهل" ، لتكلمة الشطرة الثانية من بيت الشعر وتركيب قافيتها على نفس الروى .



وكان التخطيط البريطاني لترتيب أمور الشام ينتقل بسرعة للتركيز على فلسطين ، وبالتحديد للعمل على إقامة وطن لليهود فيها يؤدى دوره المرسوم فى الاستراتيجية البريطانية .

وفجأة مرة أخرى عاد إلى الظهور فى القاهرة نفس الرجل الذى تولى اتفاقية "سايكس بيكو" ، وهو السير "مارك سايكس" ، وقد جاء هذه المرة لكى يرتب لما بعد تقسيم العالم العربى ، وأوله التمهيد لإنشاء الوطن اليهودى الموعد فى فلسطين .

وتروى وثيقة وزارة الخارجية رقم ١٠٦٧٦٤ - ٣٧١/٢٤٧٦ بتاريخ ١٢ يوليو ١٩١٥ أن

القائد العام البريطاني في مصر الجنرال "ماكسويل" تحدث في شأن فلسطين مع السير "هنري ماكماهون" ، وعرض عليه اقتراحا أطال التفكير فيه وهو أن توضع فلسطين تحت الحماية البريطانية شأنها شأن مصر ، ثم يعهد بإدارتها إلى سلطان مصر "لأن القدس لا بد في هذه الظروف أن تبقى تحت الحماية الظاهرة لأمير مسلم" .

كان السلطان "حسين كامل" هو سلطان مصر وقتها ، وكانت شواغله المحلية تفرض عليه هبوما تطرد أي حلم يتجاوز حدودها ، مما يدخله في صراع حول مستقبل العالم العربي في الشرق ، بما فيه الصراع على الخلافة بين الهاشميين والسعوديين الذين دخلوا الحلبة الآن . ولم يكن الجنرال "ماكسويل" بهذا الاقتراح مهتما بوجود أمير مسلم (مصري) على القدس ، وإنما كان ذلك بحثا عن غطاء يتيح الفرصة ودون متاعب كثيرة لإمكانية تغيير التوازن السكاني في الأرض الموعدة . فقد كان عدد المستوطنين اليهود في فلسطين حتى هذه اللحظة لا يزيد عن خمسين ألفا . وكان يمكن لولاية سلطان مصر على القدس أن تتصدى لطموحات وطنية وقومية عربية معينة ، بحيث تجرى في مناخ هادئ عملية استبدال بشرى على نطاق واسع ، يفسح مجالا أكثر أمانا لعشرات ألوف من اليهود كان منتظرا أن يتوجهوا فور انتهاء الحرب إلى الوطن الموعد من معسكرات مؤقتة أقيمت لهم في أوروبا .



كانت الحركة الصهيونية قد اجتازت مرحلة صعبة من حياتها أعقبت وفاة "تيودور هيرتزل" في يوليو سنة ١٩٠٤ .

وبعد وفاة "هيرتزل" اختارت اللجنة التنفيذية مجموعة صغيرة من أعضائها ، لإدارة شؤون الحركة الصهيونية حتى ينعقد مؤتمر صهيوني عام جديد يختار زعيما آخر . وكان أبرز أعضاء اللجنة المؤقتة "ناحوم سوكلوف" ، رفيق "هيرتزل" وصديقه وناقده في بعض الأحيان . وكان أهم ما واجه هذه اللجنة أن عرب فلسطين تنهبوا إلى خطورة المستعمرات اليهودية التي تظهر كل يوم في أنحاء مختلفة من وطنهم . وكانت مواقع إنشاء هذه المستعمرات تشي بخطة أوسع : فهي أولا أخصب الأراضي في فلسطين يتم شراؤها ، ثم هي ثانيا أهم المواقع الحاكمة على مفارق الطرق ، مما يشير إلى استعداد للعمل العسكري إذا اقتضى الأمر . وبالفعل فإن الفترة ما بين ١٩٠٦ إلى ١٩١٤ (قيام الحرب العالمية الأولى) شهدت معارك دامية بين عرب ويهود سقط فيها قتلى وجرحى بالآلاف في معارك ساخنة وقع أخطرها في منطقة الناصرة .

وكان من نتيجة وصول الأمر إلى درجة الاحتكام للسلاح أن المندوبين العرب في المجلس النيابي العثماني ، تقدموا في مارس ١٩١١ بمشروع قانون يطلب وقف الهجرة الصهيونية الجماعية في فلسطين . وقبل نشوب الحرب العالمية مباشرة كانت صحبات التحذير والإنذار تسمع في كل قرية ومدينة في الأرض المقدسة . وكتبت صحيفة "فلسطين" افتتاحية شهيرة كان أول سطر فيها يقول : "إن المستوطنين اليهود يزحفون على أرضنا ويسيطرون على بلادنا قرية بعد قرية ، وبلدة بعد أخرى" .

وخلال السنة الأولى من الحرب العالمية الأولى فإن اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيوني ، والمسئول عنها وقتئذ هو "ناحم سوكولوف" ، اعتبرت أن أمامها مهمتين :

١ - إنشاء وإقامة معسكرات مؤقتة لليهود النازحين من الشرق ومن البلقان في أوروبا الغربية ، وترتيب أمورهم هناك حتى يمكن نقلهم بعد أن تخف المارك إلى فلسطين .

٢ - إن اللجنة التنفيذية ينبغي أن تنتهز فرصة الحرب وإعادة رسم خريطة المنطقة من جديد بمقتضى اتفاقية "سايكس - بيكو" ، لكي تطالب بما تعتبره حقها في فلسطين وتحصل عليه في مناخ أصبح ملائما .



قبل الحرب وأثناء الحرب وبعد الحرب ، كانت السياسة البريطانية تعرف ما تريد ، تفكر فيه وتناقش احتمالاته ، وتتردد مرة ثم تحزم أمرها وتتصرف . كانت التصورات القديمة لا تزال سارية . بل إن عملية تجديد طرأت عليها بتوصية تقدم بها رئيس الوزراء البريطاني "كامبل بانرمان" في الفترة السابقة على الحرب مباشرة ، وجاء فيها بالنص : "إن إقامة حاجز بشري قسوى وغريب على الجسر الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ، ويربطهما معا بالبحر الأبيض والبحر الأحمر هو مطلب يجب أن يكون هاديا لنا باستمرار . ويتعين علينا أن نضع في هذه المنطقة وعلى مقربة من قناة السويس قوة معادية لأهل البلاد وصديقة للدول الأوروبية وعارفة لمصالحها . ومن المحتم أن نجد الوسيلة العملية لتنفيذ هذا المطلب ."

ولم يكن ذلك يعنى شيئا آخر غير إنشاء دولة يهودية في فلسطين .

وأثناء الحرب طلبت الحكومة البريطانية سنة ١٩١٥ من السير "هربرت صمويل" ، أن يضع تصورا لما ينبغي أن يكون عليه أمر فلسطين بعد النصر . وكتب "هربرت صمويل" ،

بوصفه عضواً في وزارة الحرب - إلى جانب كونه يهودياً وصهيونياً أيضاً - مذكرة بعنوان "مستقبل فلسطين" تاريخها ٥ فبراير ١٩١٥ ، توصل فيها إلى نتيجتين :

١ - إنه مهما يكن من شأن أية اتفاقات مع فرنسا ، فإن فلسطين يجب أن تخرج من هذه الاتفاقيات ، لأن سيطرة دولة أوروبية عظمى على موقع قريب من قناة السويس إلى هذه الدرجة يشكل تهديداً مستمراً ومخيفاً لخطوط المواصلات الإمبراطورية (البريطانية) . إن الحزام الصحراوي الذي تمثله سيناء استطاع أن يؤدي دوره كحاجز إستراتيجي كاف ضد الأتراك ، لكنه ليس كافياً للصدور أمام حملة عسكرية تقوم بها دولة أوروبية قوية . "ولا نستطيع أن نفترض أن علاقاتنا الطيبة مع فرنسا سوف تستمر كذلك طوال الوقت ."

٢ - إن الحل الذي يوفر أكبر فرصة للنجاح ولضمان المصالح البريطانية ، هو إقامة اتحاد يهودي كبير تحت السيادة البريطانية في فلسطين . إن فلسطين يجب أن توضع بعد الحرب تحت السيطرة البريطانية ، ويستطيع الحكم البريطاني فيها أن يعطي تسهيلات للمنظمات اليهودية في شراء الأراضي وإقامة المستعمرات وتنظيم الهجرة والمساعدة على التطور الاقتصادي بحيث يتمكن اليهود من أن يصبحوا أكثرية في البلاد . "هذا مع ملاحظة أن هناك عطف واسع الانتشار وعميق الجذور في العالم البروتستانتي لفكرة إعادة الشعب العبراني إلى الأرض التي أعطتها له النبوءات القديمة ."



ولم يكن المؤتمر الصهيوني ولجنته التنفيذية ، ولا يهود أوروبا بكل نفوذهم في عواصمها - وبخاصة لندن - ينتظرون غير هذه الفرصة .

وهكذا عاد إلى المسرح لحظتها السير "مارك سايكس" موظفاً كل ما تعلمه من "دزرائيلي" ، وحاملاً كل ما حصله من تأثير نفوذ عائلة "روتشيلد" ، ومعززاً بنجاحه في ترتيب الأمور مع فرنسا باتفاقية "سايكس - بيكو" .

ويكتب "تأحوم سوكولوف" وهو وقتئذ المسئول الأول في اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيوني بعد وفاة "هيرتزل" ما نصه :

"إنه من واجبي أن أوجه تحية خاصة إلى السير مارك سايكس . فقد كان هو الروح الملهمة والمحركة في توجيه عملنا تلك الفترة الدقيقة والحساسة . إن سايكس أصبح الرجل الذي يتولى في واقع الأمر معظم أمورنا ، ويقوم بالتنسيق بين وزارة المستعمرات ووزارة الحرب والقيادة العليا ووزارة الخارجية واللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيوني ."

لقد سألني سايكس في أول لقاء بيننا :

– هل أنت المسئول عن الحركة الصهيونية ؟

وردت عليه قائلًا :

– نعم ... وسوف ننجح إذا ساعدتنا .

ورد على بنبرة قاطعة وحاسمة :

– حسنا . هذه مسئوليتي !

وأحسست بجرعة قوية من الاطمئنان .”

ويواصل ”سوكولوف“ شهادته فيكتب :

”كنا نعتبر أن هذه الحرب هي التي ستعطينا بعد النصر وطننا اليهودي في فلسطين . وفي الفترة الحاسمة من عملنا كان مارك سايكس هو الذى يقوم بكل الاتصالات ، وينسق كل الجهود من أجل تعهد واضح من الحلفاء بعد النصر بأن يعطونا الفرصة والحق في إنشاء وطننا اليهودي في فلسطين . إن سايكس لم يتم بهذه المهام في لندن وحدها ، ولكنه أخذ على عاتقه أن يمهد لنا الطرق في باريس مع الحكومة الفرنسية ، وفي روما مع الحكومة الايطالية ومع الفاتيكان .

إن سايكس في هذه الفترة لم يكن يسمح لنفسه بفرصة للراحة أو للنوم . فقد كان يعمل بلا كلل وقد جعل من الصهيونية جزءا أساسيا من حياته . وهو لم يتم بجهد فقط مع الدول ، وإنما مهد لنا أيضا مع الرأي العام الإنجليزي . فقد كان هو الذى رتب للدكتور هاييم وايزمان فرصة أن يلتقى بأهم صحفى فى إنجلترا ، وهو س. ب. سكوت رئيس تحرير جريدة ”المانشستر جارديان“ . ولن أنسى له أبدا أنه صحبني معه حينما كان برفقة رئيس الوزراء لويد جورج والأميرال جيليكو القائد العام للأساطيل البريطانية ، وفي هذه المقابلة أتاحت لي الفرصة لأن أتحدث إلى رئيس الوزراء الذى قال لي ”إن هذه الحرب سوف تكون بلا فائدة إذا لم نستطع أن نعطي للشعوب حقها في تقرير مصيرها ، بمن في ذلك اليهود في فلسطين“ .”

بلفور

” سوف تحدث في المستقبل محاولة مصرية
 لاعتراض حقنا في قناة السويس “
 (مذكرة مرفوعة لرئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٢١)

كانت تلك هي الظروف التي صدر فيها ”وعد بلفور“ الشهير موجها من وزير
 الخارجية البريطاني اللورد ”آرثر بلفور“ إلى زعيم اليهود الإنجليز وراعى المنظمة الصهيونية
 اللورد ”جيمس روتشيلد“ . كان نص الوعد بسيطا واضحا وقاطعا ، وكان على
 النحو التالي :

”وزارة الخارجية - ٢ نوفمبر ١٩١٧

عزيزى اللورد روتشيلد

إنه من دواعى سرورى الكبير أن أنقل اليكم باسم حكومة صاحب الجلالة
 الإعلان التالى عن التعاطف مع الأمنى اليهودية والصهيونية الذى تم عرضه
 وإقراره بواسطة مجلس الوزراء ونصه كما يلى :

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بالمعطف إلى إنشاء وطن قومى للشعب
 اليهودى فى فلسطين . وسوف تبذل قصارى جهدها لتسهيل تحقيق هذا الهدف .
 ومن المفهوم أن هذا الإعلان لا يمثل تحيزا ضد الحقوق المدنية والدينية لطوائف غير
 يهودية موجودة فى فلسطين . كما أنه لا يؤثر على الأوضاع القانونية أو السياسية

التي يتمتع بها اليهود في البلاد الأخرى . وسأكون شاكرا لكم إذا تفضلتم وأبلغتم هذا الإعلان لعلم الاتحاد الصهيوني .

المخلص

آرثر بلفور

وربما أن أهم ما يمكن ملاحظته في الظروف المتصلة بصدور "وعد بلفور" ، هو ما تقول به وثيقة بريطانية تحوى محضرا لجلسة لمجلس الوزراء بتاريخ ٣ سبتمبر ١٩١٧ (أثناء مناقشات صدور "وعد بلفور" وفي التمهيد لإعلانه) ، وقد ورد في محضر الجلسة أن وزير الحربية "ايرل ديربى" أبلغ المجلس أن "وقدا يهوديا على مستوى عال يمثل المؤتمر الصهيونى توجه لمقابلته وعرض عليه رغبة يهود العالم فى مشاركة الحلفاء فى تضحية السدم ، وذلك بتشكيل قوة من اليهود يطلق عليها اسم "الفيلق اليهودى" حتى تحارب فى صفوف الحلفاء ، ومن ثم يكون لهم دور فى تحقيق النصر ."

ومن المفارقات أن الصوت الوحيد الذى ارتفع فى مجلس الوزراء معارضة الاقتراح كان صوت اللورد "مونتاجو" وزير شئون الهند (وهو يهودى أيضا) ، وقد بنى معارضته على أساس أن هناك أربعين ألف يهودى يحاربون فى صفوف الجيش البريطانى ، وأنه ليس من العدل نحوهم ونحو سمعتهم تمييز لواء واحد وتسميته باسم "الفيلق اليهودى" .

وضاع صوت اللورد "مونتاجو" هباء . وأقر المجلس مشروع تكوين فيلق يهودى يشارك فى الحرب العالمية الأولى وتكون منه قوة عسكرية يهودية مستعدة للمستقبل جاهزة له .



وبعد انتهاء الحرب ، وأثناء إعداد وثائق مؤتمر السلام فى "فرساي" ، أصرت الحركة الصهيونية على ضرورة أن يحتوى قرار المؤتمر بانتداب بريطانيا على فلسطين إشارة واضحة فى مقدمته لـ "وعد بلفور" ، تأكيدا إضافيا بأن المهمة الرئيسية للانتداب البريطانى هى العمل على إنشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

وكان ذلك كله يرتب ويدبر فى غيبة مصر وفى انشغالها بثورة سنة ١٩١٩ ، التى كان مطلبها الرئيسى جلاء القوات البريطانية عن مصر وإعلان استقلالها .

واللافت للنظر أن كل ما يتصل بفلسطين كان لا يزال مؤثرا أساسيا على مصر سواء عرفه قادتها أو غابت عنهم معرفته .

كان اللورد "النبسى" قائد الجيوش البريطانية - التي غزت فلسطين وأخرجت الأتراك منها - قد عين معتمدا بريطانيا فى مصر . وكانت الأوضاع الاستراتيجية العامة فى المنطقة تشغله ، وقد عقد عدة اجتماعات لمناقشتها ، وانتهت المناقشات إلى توصيات محددة جرت صياغتها فى مذكرة بتوقيع الكولونيل "ريتشارد ماينرتزهاجن" مدير العمليات فى الشرق الأوسط ، وقام "النبسى" بتحويل المذكرة إلى رئيس الوزراء البريطانى "لويد جورج" .

كان نص المذكرة كما يلى بالنص :

" عزيزى رئيس الوزراء

طلب منى المارشال النبسى أن أرسل اليكم مذكرة غير رسمية عن السيادة على سيناء . وهو موضوع له أهمية خاصة لا بالنسبة إلى الظروف الراهنة فحسب ، بل بالنسبة إلى السنوات القادمة أيضا . واسمحوا لى بتناول هذا البحث بإسهاب : إننا نسير بحكمة زائدة ، مستهدفين السماح لليهود بإنشاء وطنهم القومى فى فلسطين ، فقد حررنا العرب من النير التركى ، ولن نستطيع البقاء فى مصر إلى الأبد ، وقد تمخض مؤتمر الصلح عن وليدين ، القومية اليهودية والقومية العربية ، وشتان بينهما : فالأول يمتاز بحيويته ونشاطه ، على حين يمتاز الثانى بكسله وخموله المكتسبين من الصحراء .

يضاف إلى ذلك أن اليهود بالرغم من تشتتهم يمتازون بولائهم ورقة شعورهم وعلمهم ... كما أنهم قدموا لبريطانيا أحد رؤساء حكوماتها الممتازين ("دزرائيلى") ، وسيلتصق العرب واليهود من الآن إلى خمسين سنة بقوميتهم ، وسوف يزدهر الوطن القومى اليهودى إن عاجلا أو آجلا ويصل إلى مرحلة السيادة ، وإنى أفهم أن بعض أعضاء حكومة جلالته يتطلعون إلى هذه المرحلة .

وكذلك ستتطور القومية العربية إلى مرحلة المناادة بالسيادة من المحيط إلى الخليج -!- ومما لا شك فيه أن السياتين العربية واليهودية ستصطدمان . وإذا قدر لمشروع الهجرة اليهودية إلى فلسطين أن ينجح ، فإن الصهيونية ستتوسع على حساب العرب دون سواهم . وسيبذل العرب قصارى جهودهم للقضاء على قوة وعظمة فلسطين اليهودية ، وهذا يعنى سفك الدماء .

وبريطانيا تتحكم الآن فى الشرق الأوسط ، ونحن لا نستطيع أن نكون أصدقاء للعرب واليهود فى آن واحد ، وإنى أقترح منح الصداقة البريطانية لليهود وحدهم بتقدير أنهم الشعب الذى سيكون صديقنا المخلص الموالى فى المستقبل . إن اليهود

مديون لنا كثيرا ، وهم يحفظون لنا هذا الجميل ... وسيكونون ثروة لنا ، بعكس العرب الذين سيكونون سلبيين معنا برغم خدماتنا لهم .

وسوف تكون فلسطين جسر الزاوية في الشرق الأوسط ، فبينما تحدها الصحراء من جهة يحدها البحر من جهة أخرى ، ولها ميناء طبيعي ممتاز (حيفا) ، وهو أحسن ميناء على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ، ثم إن اليهود برهنوا على كفاءتهم الحربية منذ احتل الرومان البلاد ، على حين يمتاز العربي بقسوته في الحرب ، وحبه للسلب والتدمير والقتل .

والآن دعني أتكلم عن فلسطين بالنسبة إلى مصر : ففي حالة تطور السلاح من طائرات ودبابات ، سيكون الفصل في المعركة للسلاح الأحدث ، وللشجاعة وقوة الأعصاب والصبر ، ولذلك فإنني أرى في مصر العدو المسلح لليهود . ويتطور القوميتين العربية واليهودية إلى مرحلة السيادة ، وبخسارتنا قناة السويس في سنة ١٩٦٨ : أي بعد ٤٧ سنة ، فإن بريطانيا ستخسر مراكزها في الشرق الأوسط . ولتقوية هذه المراكز ، أقترح ضم سيناء إلى فلسطين . فقبل سنة ١٩٠٦ كان الحد التركي المصري ممتدا من رفح في الشمال إلى قرب القناة . وكان شرقي سيناء وجنوبيها قسما من الحجاز الخاضع للعثمانيين . وفي أكتوبر سنة ١٩٠٦ منحت مصر حق إدارة سيناء حتى الخط الممتد من رفح إلى رأس خليج العقبة . أما ملكيتها فبقيت لتركيها . وقد احتلها اللورد اللنبي بجيشه البريطاني دون مساعدة الجيش المصري ، فأصبح مصيرها منوطا بقرار من الحكومة البريطانية المحتلة ... وفي حالة ضم سيناء إلينا ، فإننا نربح حدا فاصلا بين مصر وفلسطين ، ونؤكد لبريطانيا مركزا قويا في الشرق الأوسط ، مع اتصال سهل بالبحرين المتوسط والأحمر ، وقاعدة استراتيجية واسعة النطاق مع ميناء حيفا الممتاز الذي سنستعمله بموافقة اليهود .

ومن حسنات هذا الضم أنه سيحيط أية محاولة مصرية لاغلاق القناة في وجهه ملاحظتنا ، كما سيمكننا من حفر قناة تربط بين البحرين المتوسط والأحمر ، ثم إن ضم سيناء لن يشير أية قضية قومية ضدنا ، إذ إن البدو الرحل المقيمين فيها لا يتجاوزون بضعة آلاف .

امضاء

ماينرتزهاجن "

وبصرف النظر عن الأوصاف والنعموت ، مدحا في اليهود أو قدحا في العرب ، فإن مذكرة الكولونيل "ماينرتزهاجن" تبدو وكأنها تصور مستقبل أكثر منها مذكرة مكتوبة لرئيس وزراء بريطانيا سنة ١٩٢١ .

.....

.....

ولم يكن هناك اتصال أو تفاوض مع أهل المنطقة ، لا في فلسطين التي كانت أبوابها
على وشك أن تفتح إلى مصاريعها ، ولا في مصر التي كانت منافذها إلى الشرق معلقة في
الهواء مرهونة بالأهواء !

فصل

" يجب أن تتخذ الإجراءات الكفيلة
بتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين
والحث عليها "
(اتفاق "فصل وايزمان")

كانت الأمة العربية لا تزال تعتقد أنها شاركت في ثورة عربية كبرى ، وأنها
اختارت بمشيتها الحرة شريف مكة وأبناءه لكي يتولوا قيادتها . وهكذا فإن إعلان
"وعد بلفور" بعد اتفاقية "سايكس - بيكو"، جاء ضربة صاعقة لهؤلاء الذين ظنوا أن
الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانية سوف يستتبعهما بالضرورة قيام دولة عربية
جديدة تشمل الشام كله والعراق والحجاز .

وكان أول رد فعل للأمة هو أنها راحت تتلفت بمشاعر يختلط فيها القلق والأمل صوب
الأمراء الهاشميين، تنتظر ردهم على الصدمة وتوقع منهم حلولاً لمفاجآت الأمور وعواقبها .

ومن الحق أن ذلك كان فيه تحمیل للأمر بأكثر مما تحتمل ، ذلك أن المخططات
الدولية كانت أقوى من علم ومن طاقة الأمراء ، ثم إن هؤلاء الأمراء كانوا بشرًا يعترتهم ما
يعترى البشر من أسباب للضعف والقصور .

وقد وجدت الحكومة البريطانية على أي حال أنه من المفروض عليها أن تتصل بالأمراء
لكي تشرح لهم أسبابها فيما يتعلق باتفاقية "سايكس - بيكو" (وقد أذيعت نصوصها سنة
١٩١٧) - وتوافق ذلك بالضبط مع صدور "وعد بلفور" . فقد ذهب الكوماندو "هوجارت"
(ممثلًا لمكتب القاهرة) لمقابلة الشريف "حسين" في جدة يبلغه رسالة تختص

بمشروع "سايكس - بيكو" وب "وعد بلفور" ، وكتب الكوماندو "هوجارت" تقريراً عن
المقابلة قال فيه :

- "فيما يتعلق بـ "سايكس - بيكو" ، قال الشريف "حسين" إنه إذا كان هناك
تعديل ثانوي في الخطط الأصلية تفرضه ضرورات الحرب ، فهو مستعد لأن يعترف
بمثل هذه الضرورة بصراحة. ولكنه طلب أن نبليغه بمثل هذه الصراحة تفاصيل
التعديلات المطلوبة والضرورات التي تقتضيها . ثم أشار الشريف "حسين" مطالب
فرنسا في سوريا ، ورد عليه الكوماندو "هوجارت" قائلاً :

"إن فرنسا صارت ترى الأمور بعيوننا (يقصد عيون الإنجليز) فيما يتعلق
بسوريا ، وكل ما تريده فرنسا هو أن تحمي وتساعد على استقلال سوريا" .

وبدا أن الشريف "حسين" كان مقتنعاً .

- وفيما يتعلق بـ "وعد بلفور" فإن الكوماندو "هوجارت" راح يشرح للشريف
"حسين" تفاصيل طويلة عن نمو الحركة الصهيونية خلال الحرب ، وعظم قيمة
المصالح اليهودية والنفوذ اليهودي ، وإنه من المفيد التعاون معهم (يقصد اليهود
ومصالحهم ونفوذهم) .

- كان رد الشريف "حسين" يفيد باستعداده لقبول صيغة "وعد بلفور" .

- وروى الكوماندو "هوجارت" في تقريره لوزارة الحرب في لندن "إن الشريف
وافق بحماسة قائلاً إنه يرحب باليهود في كل البلاد العربية" .

● وجاء الدور على الأمير "فيصل" وأقنعه مستشاره الكابتن "لورانس" بعقد اجتماع
مع "حاييم وايزمان" في العقبة . ثم رتب بعد ذلك لقاء بينهما في لندن تمهيداً لمؤتمر
الصلح في "فرساي" ، وهناك في الأسبوع الأول من شهر يناير ١٩١٩ تم توقيع اتفاق
مكتوب بين الاثنين أورده المؤرخ الكبير "جورج أنطونيوس" في كتابه المرجعي "يقظة
العرب" (The Arab Awakening) على النحو التالي :

"إن صاحب السمو الملكي الأمير فيصل ممثل المملكة العربية الحجازية والقائم
بالعمل نيابة عنها ، والدكتور حاييم وايزمان ممثل المنظمة الصهيونية والقائم
بالعمل نيابة عنها ، يدركان القرابة في الجنس والصلات القديمة القائمة بين
العرب والشعب اليهودي . وهما متأكدان أن أضمن الوسائل لبلوغ غاية أهدافهما
الوطنية هو في الأخذ بأقصى ما يمكن من أسباب التعاون في سبيل تقدم الدولة
العربية وتقدم فلسطين (!) ، ولكونهما يرغبان في زيادة توطيد حسن التفاهم الذي
يقوم بينهما فقد اتفقا على المواد التالية :

- ١ - يجب أن يسود جميع علاقات والتزامات الدولة العربية وفلسطين (١) أقصى درجة من النوايا الحسنة والتفاهم المخلص ، وللوصول إلى هذه الغاية تؤسس وتقوم وكالات عربية ويهودية معتمدة حسب الأصول فى بلد كل منهما (١) .
 - ٢ - تحدد بعد إتمام مشاورات مؤتمر السلام مباشرة الحدود النهائية بين الدولة العربية وبين فلسطين من قبل لجنة يتفق على تعيينها من قبل الطرفين المتعاقدين .
 - ٣ - عند وضع دستور لإدارة شئون فلسطين تتخذ جميع الإجراءات التى من شأنها تقديم أوفى الضمانات لتنفيذ وعد الحكومة البريطانية المؤرخ فى اليوم الثانى من شهر نوفمبر ١٩١٧ ("وعد بلفور" ١)
 - ٤ - يجب أن تتخذ جميع الإجراءات لتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين على مدى واسع والحث عليها وبأقصى ما يمكن من السرعة لاستقرار المهاجرين فى الأرض عن طريق الإسكان الواسع والزراعة الكثيفة . ولدى اتخاذ مثل هذه الإجراءات تحفظ حقوق الفلاحين والمزارعين والمستأجرين العرب ويجب مساعدتهم فى سيرهم نحو التقدم الاقتصادى .
 - ٥ - يجب ألا يسن نظام أو قانون يمنع أو يتدخل بأى طريقة فى ممارسة الحرية الدينية
 - ٦ - إن الأماكن الإسلامية المقدسة يجب أن توضع تحت رقابة المسلمين .
 - ٧ - تقترح المنظمة الصهيونية العالمية أن ترسل إلى فلسطين لجنة من الخبراء لتقوم بدراسة الإمكانيات الاقتصادية فى البلاد، وأن تقدم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها . وستضع المنظمة الصهيونية للجنة المذكورة تحت تصرف الدولة العربية بقصد دراسة الإمكانيات الاقتصادية فى الدولة العربية ، وأن تقدم تقريراً عن أحسن الوسائل للنهوض بها . وسوف تستخدم المنظمة الصهيونية العالمية أقصى جهودها لمساعدة الدول العربية بتزويدها بالوسائل لاستثمار الموارد الطبيعية والإمكانيات الاقتصادية فى البلاد .
 - ٨ - يوافق الفريقان المتعاقدان أن يعملوا بالاتفاق والتفاهم الكاملين فى جميع الأمور التى شملتها هذه الاتفاقية لدى مؤتمر الصلح .
 - ٩ - كل نزاع قد يثار بين الفريقين المتنازعين يجب أن يحال إلى الحكومة البريطانية للتحكيم .
- فيصل - وايزمان "

كانت نصوص الاتفاق حقل ألغام بأكمله :

فـ "وايزمان" وضع نفسه طرفاً موازياً لـ "فيصل" على قدم المساواة ، أحدهما عن الدولة العربية والآخر عن الشعب اليهودى . والكلام عن الدولة العربية يجعلها شيئاً وفلسطين شيئاً آخر . وهناك حدود نهائية بين الطرفين من قبل لجنة يتفق عليها الطرفان . والاعتراف بـ "وعد بلفور" صريح . وكذلك بحق اليهود فى الهجرة . ثم إن الحكومة البريطانية هى الحكم بين الطرفين فى حالة نزاع يطرأ بين الفريقين ، إلخ ... إلخ ...

ويبدو أن بعض مستشارى "فيصل" العرب كانوا يستهلون النصوص التى تنتظر توقيع أميرهم ، ولذلك فإن "فيصل" حين جلس ليوقع الاتفاقية أضاف إليها تحفظاً بخط يده قال فيه بالحرف :

"يجب على أن أوافق على المواد المذكورة أعلاه شرط أن يحصل العرب على استقلالهم . ولكن إذا وقع تعديل أو تحويل فى مطالبهم فيجب ألا أكون عندها مقيداً بأى كلمة وردت فى هذه الاتفاقية التى يجب اعتبارها ملغاة لا شأن ولا قيمة قانونية لها ، ويجب ألا أكون مسئولاً بأية طريقة مهما كانت .

فيصل "

ولم تكن هناك جدوى عملية لهذا التحفظ ، لأن الأمير "فيصل" فى هذه الوثيقة اعترف فى واقع الأمر بفلسطين دولة لليهود ، وقبل كل ما من شأنه التمهيد لإقامة هذه الدولة.

• بقى من بين الأمراء الهاشميين الشريف "عبد الله" وكان مروراً مما بدا له من أن السياسة البريطانية تفضل "فيصل" عليه . وقد راح يتهم بشقيقه بخيانتته وخيانته والده والتعامل مع الدول والأطراف من وراء ظهرهما ، ويعتبر أن "لورانس" هو الذى شجعه وحرضه عليهما.



وكان المؤتمر الصهيوني العالمي - تحت قيادة "حايم وايزمان" - الآن يتحرك بطريقة مختلفة ، ويبدو ذلك جليا في خطاب ألفاه "وايزمان" نفسه في لندن بعد شهور قليلة من اتفاه مع الأمير "فيصل" . فقد قال في هذا الخطاب :

"إن الدولة اليهودية سوف تأتي . ولكنها لن تتحقق بالوعد والتصريحات السياسية ، بل بعرق الشعب اليهودي ودموعه . هذه هي الطريقة الوحيدة لبناء الدول . وأما وعد بلفور فهو مجرد مفتاح ، وقد يكون مفتاحا ذهبيا ، لكنه المفتاح الذي يفتح أبواب فلسطين ويعطينا الفرصة لبذل كل جهودنا هناك .

لقد سألونا (يقصد الدول الكبرى) عما نريد ، فقلنا نريد خلق أوضاع في فلسطين من شأنها أن تسمح لنا عندما ينمو ذلك البلد أن نصب فيه أعدادا ضخمة من المهاجرين اليهود حتى نستطيع أن ننشئ في آخر الأمر مجتمعا يجعل فلسطين يهودية بمقدار ما إن إنجلترا إنجليزية وأمريكا أمريكية .

هل ستصبح فلسطين دولة يهودية في المستقبل أم لا ؟ وعلى من سوف يتوقف هذا المستقبل؟ وعلى من يتحدد مداه ؟ قريبا أم بعيدا ؟

إنى أقول لكم إن ذلك يتوقف علينا نحن . إنه يتوقف إلى حد كبير على الدول الكبرى ، ولكن استجابة الدول الكبرى - ولا سيما بريطانيا - لنا سوف تتوقف على الضغط الذي نمارسه ، وهذا الضغط سوف يتوقف على قوة تنظيمنا وعلى امتلاء خزائنا ، وعلى معرفتنا بما يتوجب علينا عمله لكى نأتى بالشعب إلى بلده ."

وكانت ثقة "وايزمان" في الحكومة البريطانية في محلها ، فإن هذه الحكومة - التى حصلت على سلطة الدولة المنتدبة في فلسطين بقرار من مؤتمر "فرساي" أشار في ديباجته إلى "وعد بلفور" - لم تلبث أن عينت حاكما عاما لفلسطين هو بنفسه السير "هربرت صمويل" ، وهو الوزير اليهودي الصهيوني صاحب المذكرة الشهيرة إلى مجلس الوزراء البريطاني ، والتي أوصت بأن الفرصة مناسبة في أعقاب الحرب للبدء في مباشرة إقامة الدولة اليهودية في فلسطين .

وأصبح "هربرت صمويل" حاكما عاما على فلسطين ومهمته طبقا لاعتقاده وطبقا لـ "وعد بلفور" وهو سياسة حكومته : العمل على إنشاء الدولة اليهودية .

وراحت نيران "الثورة العربية الكبرى" تخبو ، ثم مضت صفوفها تتفرق وتتباعد ، ولم يعد لدى بريطانيا شيء تقدمه للعرب الذين وقفوا معها ومع الحلفاء في الحرب العالمية

الأولى . وفى الحقيقة فإنها لم تكن تعاملت مع الشعوب ولا ربطت نفسها بأى التزام تجاهها ، وإنما كان التزامها تجاه الأمراء الهاشميين . وقد أحست بضرورة تعويضهم ، وربما أحست أيضا أن تعويضهم قد ينشئ توازنات عائلية أو قبلية تساعد أكثر على تحقيق المصالح البريطانية . وهكذا فإن وزير المستعمرات البريطانى ، وهو وقتها "ونستون تشرشل" ، جاء إلى القاهرة وعقد فيها مؤتمرا لتوزيع بقايا الدولة العربية على الأمراء الهاشميين .

كان الشريف "حسين" لا يزال فى الحجاز يبكى خروج أبنائه عليه وشروط كل واحد منهم إلى ما يحقق مصلحته الذاتية . فقد ذهب "فيصل" بمشورة "لورنس" إلى الشام ، ودخل دمشق آملا أن يؤسس فيها دولة عربية ، لكن الفرنسيين أخرجوه منها بمقتضى حقهم وفق نصوص اتفاقية "سايكس - بيكو" . ثم إن الأمير "عبد الله" توجه هو الآخر شمالا يبحث عن فرصة ملائمة ، وقد وصل ركبه إلى مدينة عمان (فى شرق الأردن) وعسكر فيها ينتظر التطورات .

والآن جاء مؤتمر القاهرة برئاسة "تشرشل" وإذا هو يصدر القرار التالى :

" عقد وزير المستعمرات البريطانية المستر ونستون تشرشل مؤتمرا عاما لشئون الشرق الأوسطى فى القاهرة فى الفترة ما بين ١٢ إلى ١٤ مارس ١٩٢١ . وقد شارك فى المؤتمر معه السير بيرسى كوكس (ممثل مكتب الهند) والسير هيرت صمويل (الحاكم العام المعين لفلسطين). وشارك فيه من الخبراء كل من الميجور لورانس والميجور كلايتون (من المخابرات العسكرية والسياسية) والمستر كورنواليس والأنسة جرتروود بسل (من مخابرات وزارة المستعمرات) . وأصدر المؤتمر قرارا يقدم عرش العراق إلى الأمير فيصل (ملك سوريا الخلع) ..

وقرارا ثانيا يقدم إمارة شرق الأردن إلى الشريف عبد الله ، الابن الأكبر للشريف حسين ."

وكان الأمير "عبد الله" يعتبر نفسه مظلوما فى هذه القسمة ، فأخوه الأصغر أخذ منه عرش العراق ، وأما هو الأخ الأكبر فلم تتبع له غير إمارة شرق الأردن ، وأمل بعهد يرأوده بأن الظروف ، فى يوم من الأيام ، قد تمهد له الطريق إلى عرش فى سوريا . لكن أحلامه توجهت فى الوقت الراهن نحو فلسطين ، وعلله أحسن - فى أعماقه - أن الحركة الصهيونية - الفاعلة والنشيطة فيها الآن - طرف رئيسى فى أقدار المنطقة . وهكذا راح يمد بصره واتصالاته عبر نهر الأردن ، ويفتح قنوات اتصالات سرية مع الوكالة اليهودية فى تل أبيب ، ويبيع بالرسائل متتالية إلى زعمائها يعرض عليهم أن يساعده لإنشاء مملكة موحدة

تضم فلسطين وشرق الأردن - ضفتى النهر ، وفى مقابل ذلك فإنه يتعهد لهم بأن يعطى اليهود فى هذه المملكة استقلالاً ذاتياً وضمانات للأمن تحقق مطالبهم .

وكان الوسيط الذى ينقل رسائل الأمير إلى تل أبيب فى ذلك الوقت هو "بنحاس روتنبرج" ، وهو صاحب شركة لتوليد الكهرباء تقع منشآتها على نهر الأردن . لكن زعماء الوكالة اليهودية ردوا على الأمير بعرض مقابل ، وهو أن يقوموا بالإشراف على تنمية ثروته الخاصة واستثمارها، ويضمنوا له منها دخلاً وفيراً ، ثم يكون عليه فى المقابل أن يساعدهم بنفوذ فى تخفيف معارضة الفلسطينيين لمشروعات الهجرة والاستيطان .



لويس جـسـورج

" لك أن تأخذ القدس أيضا ... هل هذا
يرضيك ؟! "

(رئيس وزراء فرنسا لرئيس وزراء بريطانيا)

كانت شعوب المشرق العربى فى حالة يرثى لها :

● فالشعب السورى الذى كان حاضنة الثورة العربية الكبرى وجد آماله تخبىب ، ثم عاوده شىء من الأمل عندما نودى بالأمير "فيصل" ملكا على دمشق لأشهر معدودات ، ثم جرى خلعها وإخراجه من سوريا لكي يدخلها الجيش الفرنسى تنفيذا لاتفاقية "سايكس - بيكو" . ثم إن أربعة ألوية من الأرض السورية سلخت عنها وأعطيت لتكملة دولة لبنانية تقوم تحت الانتداب الفرنسى هى الأخرى .

وقد تم خلع "فيصل" من عرش سوريا بعد مشهد مزعج آخر بدأ وكأنه نوع من استجابات متهم فى مخفر بوليس . والحقيقة أن المشهد جرى فى وزارة الخارجية الفرنسية - الـ "كى دورسيه" - وقد ذهب إليه الأمير "فيصل" ليشكو من أنه منزع من الملثول أمام مؤتمر الصلح فى "فرساي" لإبداء وجهة نظره .

وكان الذى التقاه فى وزارة الخارجية هو المسيو "جان جوت" مساعد مدير شئون آسيا فى الوزارة . وجرى الحديث بينهما - طبقا لمذكرة بخط "لورانس" قدمت إلى وزير الخارجية البريطانى وأودعت سجلات الوزارة تحت رقم ٦٠٨/٩٧ ملف ٧ - ٤٤٥ - على النحو التالى :

فيصل : إننى لا أستطيع أن أفهم لماذا جرى استبعادى من قائمة الممثلين الذين يحق لهم الكلام أمام مؤتمر الصلح ؟

جوت : هذه مسألة من السهل عليك أن تفهمها . لقد ضحكوا عليك . إن الإنجليز تخلوا عنك ، ولو أنك وقفت معنا لكان في وسعنا ترتيب أمورك .

إننا نعتز بوجودك هنا كضيف كريم ، ولكن ضيف لا علاقة له بمؤتمر السلام ، والخطأ يقع عليك لأنك جئت إلى هنا دون أن تحصل على إذن "بيكو" ودون إخطاره .

كنت واقعا تحت نصيحة خاطئة . والنصائح التي أعطيت لك لا تنفعك .

فيصل : الجنرال اللنبي في دمشق أبلغني أن الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية كليهما ، تمتزجان بقواتي كطرف محارب .

جوت : هذه أكذوبة . نحن لا نعرف شيئا عن جيش عربي في سوريا .

فيصل : الجنرال اللنبي كان قائد جيوش الحلفاء ، وكانت قواتي تحت قيادته . كان هو قائدنا الأعلى ، وقد قال لي في دمشق إنه يعتبرنا طرفا محاربا ، وقد صدقته .

جوت : هذه مشكلتك . وعلبك أن تفهم أنك إذا أردت صداقة فرنسا فيجب أن تطيح ما نقول به نحن ."

.....
.....

● والشعب العراقي وجد نفسه يستبدل السيطرة التركية بانتداب بريطاني يسلمه عن فكرة الدولة العربية الكبرى ، ولا يعطيه استقلالاً كان يطمح إليه بديلاً عن الحلم الكبير . ثم استيقظ ذات يوم فإذا الاستعدادات تجري لإنشاء عرش في بغداد هدفه بالدرجة الأولى تعويض الملك "فيصل" عن كل ما قام به وعن كل ما انتهى إليه أمره بعد ضياع عرش سوريا .

ولم يكن "فيصل" راضياً بالعراق بعد سوريا . وقد راح "لورانس" - طبقاً لما كتبه بنفسه في خطاب بخط يده إلى صديقه وزميله في المكتب العربي "جريفز" ، وقد أورد "جريفز" نصه في صفحة ٣١ من مذكراته في هذا الخطاب يحاول إقناعه بأن العراق أهم من سوريا فقال :

"إن العراق هو الذى سيصبح مركز حركة الاستقلال العرسى وليس سوريا . ويغداد ستصبح القاعدة وليس دمشق . إن تعداد سكان سوريا الآن خمسة ملايين ، وتعداد سكان العراق ثلاثة . لكنه فى المستقبل لن يزيد عدد سكان سوريا عن سبعة ملايين ، فى حين سيصل تعداد سكان العراق إلى ٤٠ مليوناً . إن ذلك سوف يتحقق خلال عشرين سنة لا أكثر ."

● والشعب فى الحجاز يتابع ما يجرى من تطورات متلاحقة ويجد نفسه متفرجاً على صراع شيوخ . فقد بقى فيه الشريف "حسين" لبعض الوقت محسوراً وممروراً وسط نواصح تقدم إليه بأن يتنازل عن العرش لابنه الشريف "على" ويكتفى هو بدور "أبو الملوك" ، لكن السلطان "عبد العزيز آل سعود" ما لبث أن وجد فرصته سانحة ، فإذا هو يزحف بجيوش الإخوان من نجد ويستولى على الحجاز لكى يعلن فيما بعد قيام الملكة العربية السعودية .

وفى مجمل الأحوال فإن مشهداً آخر من أغرب مشاهد التاريخ العرسى الحديث يكفى فى حد ذاته لشرح وتصوير الطريقة التى كانت تتقرر بها مصائر العرب .

إن رابطة المشهد هو اللورد "هانكى" سكرتير مجلس الوزراء البريطانى ، وقد عاشه بنفسه أثناء حوار مباشر بين رئيس الوزراء البريطانى "لويد جورج" وبين رئيس الوزراء الفرنسى "جورج كليمنصو" .

ففى يوم أول ديسمبر ١٩١٩ وصل رئيس وزراء فرنسا ورئيس وزراء إيطاليا إلى لندن لمباحثات مع رئيس وزراء بريطانيا .

والتقى الاثنان فى مبنى السفارة الفرنسية ، وبينهما اللورد "هانكى" الذى جرى تكليفه رسمياً بوضع مذكرة عن حديثهما .

وفى البداية - كما ورد فى مذكرة اللورد "هانكى" - كان رئيس الوزراء الفرنسى يشعر أن الحكومة البريطانية متضايقة من بعض تصرفات الرسمىين الفرنسيين ، وهى تعتبر أنها أحياناً تجاوزت حدود القبول إزاء الحليف الأكبر فى الحرب وهو بريطانيا . وكان "كليمنصو" حريصاً على استرضاء رئيس الوزراء البريطانى لأنه ما زال يشعر بالحاجة إليه فى التسوية النهائية وما يترتب عليها . وبدأ الحوار بين الاثنين ودار على النحو التالى على حسب ما سجله اللورد "هانكى" فى مذكرته بالحرف (وثيقة مجلس الوزراء رقم ١١٦/١٤ بتاريخ ١ ديسمبر ١٩١٩) :

"كليمنصو : إننى حريص ألا تكون هناك خلافات كبيرة بيننا ، فما زالت أمامنا ظروف تقتضى لقاءنا المستمر . إن تحالفنا نجح فى تجربة الحرب ، وليس من المعقول أن يرسب فى تجربة السلام .

ثم استطرد رئيس الوزراء الفرنسي يقول لزميله البريطاني :

”دعنا نسوي الأمور بيننا مباشرة ، وقل لي ما الذي تقترح أن نبحثه
معا الآن؟“

لويد جورج : دعنا نبحث مصير العراق وفلسطين .

كليمنصو : إذن قل بصراحة ماذا تريد ؟

لويد جورج : أريد الموصل . أنتم تطالبون بهذا الإقليم ونحن نعتبره تكملة
لجنوب العراق الذي اتفقنا على أن يكون من نصيبنا .

كليمنصو : حسنا . لك أن تأخذ الموصل . سوف نتركه لكم ... هل هناك شيء
آخر ؟

لويد جورج : نعم ... أريد القدس أيضا . إنكم تثيرون متاعب لنا ، وتطالبون
بالحق في فلسطين باعتبارها جنوب سوريا .

كليمنصو : لك أن تأخذ القدس أيضا ... هل هذا يرضيك .

لويد جورج : هذا شيء طيب .

كليمنصو : إن بيشون (وزير خارجية فرنسا) سوف يثير لي مشاكل بسبب
الموصل ، وأرجوك أن تساعدني إزاءه .

لويد جورج : ماذا أستطيع أن أفعل لك ؟

كليمنصو : اتركوا لنا سوريا شمال فلسطين دون أن تثيروا المتاعب في وجهنا .
أنا لا أعنى المنطقة المسيحية في لبنان فقط ، ولكن أريد سوريا الداخل
أيضا : دمشق وحلب وحمص وحماه .

لويد جورج : ليست لنا مصالح حيوية في هذه المناطق ولن نعارضكم عندما
تضعونها جميعا تحت حكم فرنسي موحد ! ”

وانتهت المناقشة بين الرجلين لأن رئيس وزراء إيطاليا انضم إليهما في صالون
السفارة الفرنسية .



ولم يكن الشعب العربى فى فلسطين مستعدا لما نزل عليه .

كانت أجود أراضيه تنزع من ملكيته بالشراء أو بالاغتصاب . وكانت موجات الهجرة تندفق على ربوع وطنه ومستعمراتها الاستيطانية تقوم وتتوسع كل يوم . وكان ذلك يتم بأساليب وسياسات امتزج فيها العنف بالخدیعة ، والاغتصاب بالرشوة ، بينما السلطة البريطانية القائمة بالانتداب تنفذ سياسة مرسومة لا تحيد عنها لأى سبب أو اعتبار

وفى الواقع فإن ما كان ىجرى فى فلسطين تلك الأيام كان نموذجا كلاسيكيا للصدام بين عقليتين : عقلية الغرب المنظم والمصمم ، وعقلية الشرق القدرى والمستضعف .

وكانت عرائض الاسترحام هى الأسلوب الذى طرح نفسه فى ذلك الوقت موجة إلى عصابة الأمم ، أو إلى الحكومة البريطانية ، أو إلى الحاكم العام البريطانى . وكان ذلك يتناسى أن هؤلاء جميعا مسئولون ومكلفون عن مهمة معينة هى تنفيذ "وعد بلفور" .

ولعله مما يثير الأسى أن يقوم أحد الآن بدراسة مضمون العرائض التى كانت تقدم سواء إلى عصابة الأمم أو إلى الحكومة البريطانية أو إلى الحاكم العام البريطانى فى فلسطين من كل سكانها مسلمين كانوا أو مسيحيين .

ومن عرائض المسلمين مثلا فقد كانت العرائض العربية تشكو بالدرجة الأولى من :

- "إن المهاجرين اليهود متأثرون بالمبادئ البولشفية ، فهم فى معظمهم قادمون من روسيا ، ولا هم لهم إلا الترويج للفكر الشيوعى ، وهم يطبقون تعاليمه فى مستوطناتهم" (الكيبوتز) .

- "إن المهاجرين اليهود متعجرفون ويتعاملون مع السكان العرب باستعلاء وقسوة" .

- "إن المستوطنين اليهود يتصرفون بطريقة إباحية ، ويخرج الشبان والشابات منهم إلى الشوارع بملابس "خارجة عن اللياقة" متأبطين بعضهم بعضا ذراعا بذراع ، ينشدون الأغاني ويسلكون مسلكا مخالفا "لمبادئ التأديب والحشمة" ."

- "إن الحياة فى مستعمرات المستوطنين اليهود تتسم بإباحية سافرة "يندى لها الجبين" ."

ومن عرائض المسيحيين مثلا تجىء عريضة مقدمة إلى الجنرال "واتسون" الحاكم العام فى فلسطين يرد فيها ما نصه :

”إننا قوم مظلومون لولى الأمر ، ومسالحننا لا تمتزج مع حكومة غير الحكومة البريطانية . ونحن أقنعنا الأهل بأن حكومة بريطانيا العظمى هي أفضل حكومة تنظر في عمران بلدنا وترقيته . ونحن نرى المزايا التي حصل عليها اليهود ، ونأسف كلية لأحوالنا ، ونبكي لحرماننا من مثلها ، خصوصا ونحن قوم طامعون ومحبون لن تولى أمرنا .“



وفى مرحلة لاحقة ، مع أوائل الثلاثينات ، أدرك الفلسطينيون أن عراض الاسترحام لا تكفى فأنشئوا ما سمي وقتها بالمجلس الفلسطيني الأعلى ليواجه المجلس الصهيوني العالى . لكن محاضر اجتماعات اللجنة التنفيذية العليا لهذا المجلس لسنة ١٩٣٣ لا تشير إلى أن المجلس الفلسطيني الأعلى عشر بعد على صيغة ملائمة لمقاومة ما جرى على أرض فلسطين. وفى محاضر هذه اللجنة التنفيذية لسنة ١٩٣٣ ما يشير إلى بحث جرى حول قيام بعض الأغنياء العرب - وبينهم لبنانيون وسوريون وفلسطينيون - ببيع أراضيهم للوكالة اليهودية فى فلسطين . ويسجل أحد المحاضر مناقشات دارت على النحو التالى :

”السيد جمال الحسينى : علمت أن عضوا من أعضاء اللجنة التنفيذية موجود بيننا الآن قابل المندوب السامى البريطانى ليحتج على بيع الأراضى لليهود . ورد عليه المندوب السامى قائلا: ”إن هناك رجالا يمثلونكم يبيعون أراضيهم لليهود ، فلماذا تحتج عندى أنا؟“

السيد عونى عبد الهادى : هذه الواقعة حدثت معى ، وقلت للمندوب السامى ”أعطونا المال واضمنوا لنا موافقة الحكومة الفرنسية ونحن نشترى كل أراضى باريس“ .

ورد على المندوب السامى بقوله ”إن الفلاحين ليسوا هم الذين يبيعون الأراضى ، وإنما الذين يبيعونها هم الأثرياء“ .

الشيخ صبرى عابدين : أقترح إخراج من يبيع أرضه لليهود من حظيرة الدين الإسلامى ، وأنا مستعد لأن أثبت شرعا أن من يبيع أرضه لليهود يحرم من حق الدفن فى مقابر المسلمين ومن الصلاة عليه عندما يتوفى .

السيد عبد اللطيف صلاح : أنا متحمس لهذا الاقتراح ، وأضيف إليه أن نعلم في المساجد في فلسطين وفي كل بلاد الإسلام ظلم بريطانيا لنا ، والدعاء على الظالمين بأن يبتليهم الله بظلمين أشد منهم ، ثم نطلب بعد ذلك من المسيحيين في البلاد المسيحية أن يقوموا بمثل ذلك في الكنائس . وأنا ضامن أن حكومة الانتداب سوف تغير رأيها بعد ذلك .”



ومع مجيء سنة ١٩٣٦ كان الشعب الفلسطيني قد بدأ يقترب من حقائق العصر ، فإذا نيران الثورة تندلع في فلسطين تحت قيادة مفتى القدس الحاج "أمين الحسيني" .

كانت الشرارة التي أشعلت نيران الثورة هي مقتل فلسطيني قرب مستعمرة "بتاح تكفاه" يوم ١٦ ابريل ١٩٣٦ . وعلى الفور جرى تأليف لجان وطنية للمقاومة ، ودعت كل الأحزاب الفلسطينية إلى تنظيم إضراب عام . ثم تم تشكيل لجنة عربية عليا للمقاومة أسندت رئاستها إلى الحاج "أمين الحسيني" مفتى القدس . ولم يقتصر الأمر على الإضراب ، وإنما ظهرت عمليات مسلحة للمقاومة قادها الشيخ "عز الدين القسام" (٣) الذي استشهد في معارك الثورة

كانت الثورة مفاجأة قاسية للسلطة البريطانية في فلسطين ، وكانت كذلك مفاجأة لحركة الاستيطان الصهيوني فيها . وبرغم تعزيزات عسكرية حاشدة أتت بها السلطات البريطانية من مصر ومن مالطا فإن نيران الثورة كانت تنتشر كل يوم ولا تنحصر .

وقررت الحكومة البريطانية أن تبعث بلجنة تحقيق تتقصى أسباب الثورة . وجاءت اللجنة برئاسة اللورد "بيل" وأصدرت توصية بتقسيم فلسطين إلى دولة يهودية ، ودولة عربية يتم دمجها مع شرق الأردن ، على أن يظل الانتداب البريطاني قائما عبر الضفتين . ورفضت قيادة الثورة الفلسطينية اقتراح التقسيم ، وطالبت بإنشاء دولة فلسطينية واحدة مستقلة توفر الحماية والحقوق المشروعة لليهود وغيرهم من الأقليات .

واستمرت الثورة تهرز فلسطين لثلاث سنوات كاملة ، وقدم الشعب الفلسطيني خمسة آلاف شهيد في معاركها .

(٣) قامت الكتائب التي تحمل اسمه الآن بمعظم أعمال المقاومة الإسلامية في قطاع غزة ضد الاحتلال الإسرائيلي في النصف الأول من التسعينات أثناء وقائع "الانتفاضة" .

وكان مما يلفت النظر فى وقائع الثورة أن ثلاثة من ملوك العرب وأمراءهم ، وهم ملك السعودية وملك العراق وأمير شرق الأردن ، تدخلوا فى مسارها لتوجيه نداء إلى اللجنة العربية العليا لتوقف الإضراب العام حتى تعطى للحكومة البريطانية فرصة لإعادة تقييم الأمور . واستجابت اللجنة العربية العليا للنداء ، وأوقفت الإضراب فعلا . لكن الحكومة البريطانية لم تفعل شيئا . وعادت نيران الثورة تتأجج مرة أخرى حتى اضطرت الحكومة البريطانية - بعد مؤتمر دولى عقد فى لندن سنة ١٩٣٨ ، وشاركت فيه بعض الدول العربية وبينها مصر لأول مرة - إلى إصدار كتاب أبيض سنة ١٩٣٩ يشرح تصورها لحل المشكلة الفلسطينية . وكان الحل الذى قدمه "مالكولم ماك دونالد" وزير المستعمرات البريطانى هو : "استقلال مشروط لدولة فلسطينية بعد فترة انتقالية مدتها عشر سنوات ، مع السماح بدخول ١٥٠٠٠ مهاجر يهودى كل سنة إلى فلسطين لمدة خمس سنوات .

وثارت ثائرة المنظمات اليهودية ، وراحت كلها تكثف من عملها المسلح ، كما ظهرت بينها فرق تطالب بشن الحرب الشاملة على العرب واقتلاع جذورهم أساسا من كل فلسطين .

وكانت الأجواء الدولية ملبدة بالغيوم .

ومرة أخرى يلفت النظر أن الحركة الصهيونية لم تتفاوض مع أصحاب البلد الأصليين ، أى الفلسطينيين .

كان ممثلو الحركة الصهيونية قد تفاوضوا مع بريطانيا فى البداية : "روتشيلد" مع "الميرستون" . ثم قاموا بنوع من التفاوض لصفقة شراء بلد بأكمله : "هيرتزل" مع السلطان "عبد الحميد" . ثم عادوا للتفاوض مع بريطانيا فى التمهيد لـ "وعد بلفور" : "روتشيلد" مع "بلفور" . ثم جرى نوعا من التفاوض مع الأمراء الهاشميين : "وايزمان" مع "فيصل" .

لكن التفاوض مع الفلسطينيين لم يكن واردا على الإطلاق ، وكانت محاولته اعترافا بوجود "آخر" لا بد من إنكار وجوده أساسا .

وبالنسبة لمصر فلم يكن عزلها أو حجزها وراء سيناء أو وراء قناة السويس يحتاج إلى تفاوض معها . ولم تكن مصر مدركة لما يدبر لها ، ولم تكن هناك مصلحة لأحد فى لفت نظرها إليه ولو حتى من باب دعوتها إلى الحديث عنه مجرد حديث ، فضلا عن أن يكون الحديث من باب التفاوض !

الفصل الرابع

مصر تعود إلى الساحة

”حتى الذين يؤمنون بأنها مصر أولا ومصر ثانيا ومصر أخيرا
لا بد لهم أن يعرفوا أن مصر القوية القادرة
لم تكن مصر داخل حدودها .
بالأمس واليوم وغد ، ليس هناك أمل ولا أمن لمصر
معزولة عن أمتها ومحصورة داخل حدودها السياسية .
وإذا تحدثنا بالأنانية - وتركنا جانبا حديث الانتماء - فإن ”مصر
الأنانية“ يتحتم عليها أن تكون عربية .
وليس ذلك حكم التاريخ وحده ،
وإنما هو حكم المستقبل قبله .“

الملك فؤاد

" صفر + صفر يساوى كام يا عزام "
 ("سعد زغلول" باشا لـ"عبد الرحمن عزام" باشا)

كان ظهور مصر واشتراكها فى مؤتمر فلسطين - الذى عقد فى لندن سنة ١٩٣٨ - نقطة تحول بارزة فى سياسة مصر وفى سياسات الشرق الأوسط كلها .

كان المؤتمر قد انعقد على خلفية وقائع ثورة ١٩٣٦ التى هزت فلسطين وما جاورها من الأقاليم العربية . كذلك كان انعقاد المؤتمر عشية الحرب العالمية الثانية وتحسبا لاحتمالات نشوبها ، مع شبه يقين بأن الشرق الأوسط كما حدث فى الحرب العالمية السابقة سوف يكون من أهم ميادينها .

وكان الالفت للنظر أن وفد مصر فى هذا المؤتمر - فى لندن سنة ١٩٣٨ - جاء على أعلى مستوى يمكن تصوره فى ذلك الوقت . فرئيسه هو نفسه رئيس الوزراء "على ماهر" باشا ، وهو واحد من الساسة المرموقين فى مصر قبل الثورة . وكان "على ماهر" - بصرف النظر عن رئاسته للوزارة - معروفا بكونه رجل الملك القوي ، وكان "فاروق" فى ذلك الوقت صبيا تولى العرش بعد أبيه - (الملك "فؤاد") - قبل عام واحد تقريبا ، وكان عهده ما زال بعد فى بواكيره الأولى ، وكان الصبى يحاول أن يسمع وأن يفهم وأن يعى . ومن الإنصاف القول إنه كان فى تلك الفترة مفتوحا لآمال وطموحات كبرى كان من أهمها ذلك الاتجاه الواضح القوي نحو الشرق .. المشرق العربى وما وراءه أيضا .



كانت مصر قبل اشتراكها في مؤتمر فلسطين ١٩٣٨ قريبة من المشرق العربي على المستوى الإنساني والثقافي والفني ، ولعلها اقتربت قليلا من المستوى الاقتصادي مع قيام "طلعت حرب" بتأسيس بنك مصر - الذى مد نشاطه بسرعة إلى سوريا ولبنان - لكنها رغم ذلك كانت بعيدة عن المستوى السياسى إلا من ناحية التأثير الذى كانت تحدته الحركة الوطنية المصرية من أصداء شعبية فى المنطقة ، وما كانت تثيره من تعاطف تغذيته قوة الاتصال التاريخى فى حد ذاته ، حتى وأن لم يتحقق وعسى كاف بقوة هذا الاتصال التاريخى وأسبابه ودواعيه . ومن الإنصاف القول بأن العالم العربى فى مشرقه ومغربيه كان يعرف عن مصر وشؤونها بأكثر مما تعرفه مصر عما حولها وشؤونه .

فمنذ عصر "محمد على" ومنجزاته الضخمة ، وإلى عصر "إسماعيل" وأضوائه اللامعة ، وإلى ثورتى "عربى" و"سعد زغلول" ، كانت الأمة العربية فى المشرق تعتبر القاهرة عاصمتها الحضارية ، لكن الحركة على طريق العلاقات كانت - غالبا - من جانب واحد ، فالعرب هم الذين يأتون إلى مصر دائما ، بينما مصر تذهب إليهم نادرا . ولعل السبب أن مصر كانت مشغولة بشىء آخر أو أشياء أخرى حجبست عنها ما كان يجرى فى بقية العالم العربى .

وربما ظهرت فى بعض اللحظات بوادر تنبه مصرى إلى المحيط العربى حولها ، ولكن تلك كانت نوبات اهتمام إنسانى يظهر بسرعة ثم يخفت أثره بنفس السرعة التى ظهر بها ، كما حدث فى مناسبات معينة ، كانت آخرها موجة حماسة لفلسطين فى الأيام الساخنة من ثورة سنة ١٩٣٦ . لكن الحماسة بصفة عامة ظلت مقصورة فى أثرها على عدد من الشخصيات وعلى عدد من التجمعات ، وإن رافقتها فى بعض المرات مشاعر شعبية أوسع نسبيا .

ولم تكن هذه الحالة العامة طبيعية بحقائق الجغرافيا والتاريخ التى جعلت مصر بجوهر هذه الحقائق جزءا من الأمة العربية ، لكن هذه الحالة - وفى ذلك الوقت - جاءت نتيجة منطقية لمجموعة من العوامل راحت تحدث تأثيراتها ، وتراكمت هذه التأثيرات فوق بعضها حقبة بعد حقبة :

• إن مصر جرى قطعها قطعاً وبشبه عملية جراحية بعد الحملة الفرنسية عليها فى أخرى القرن الثامن عشر . فقد نزلت فيها جيوش "نابليون" وعزلتها عن بقية العالم العربى فى المشرق . وحتى من قبل هذا الغزو ولزمن طويل فإن ضعف الدولة العثمانية ، مع انحطاط مستوى الحكم المملوكى فى فترة احتضاره ، أضعفا حركة الاتصال والتعامل بين الولايات العربية ، حتى جاء "نابليون" واحتجز مصر رهينة .

● وبعد ضرب مشروع "محمد علي" في سوريا ، فإن حاكم مصر الطموح قبع في ولايته حزينا ومرميا أيضا ، وكان أهم أهداف ضرب مشروعه هو تأكيد عزل مصر عن سوريا - أى عن المشرق العربى كله فى الواقع - وترسخ ذلك أكثر حينما بدأ النفوذ البريطانى يزد فى مصر تمهيدا لاحتلالها أرضا وإرادة .

● وطرات فى هذه الفترة عناصر مستعدة لكل منها أهميته الخاصة فى إلهاء مصر عن المشرق :

◊ فقد نجحت بعثات اكتشاف منابع النيل فى عصر "إسماعيل" ، فى لفت نظر مصر إلى الجنوب ، وإعطائها الإحساس بأن مستقبلها وأمنها هناك وليس فى أى مكان آخر .

◊ وترافقت هذه الاكتشافات الجغرافية مع اكتشافات تاريخية فى حفائر مصر الفرعونية ، وكان من أثر ذلك أنه لفت نظر مصر إلى تاريخها القديم ، ودخلها وهم أن المستقبل هو مجد بناة الأهرام والمعابد والمسلات .

● ومع غروب شمس القرن التاسع عشر وشروق شمس القرن العشرين كانت مصر غارقة حتى أذنيها فى قضية الاستقلال الوطنى ، ومطالبة بريطانيا بالجلاء عن أرض مصر والسودان .

وكانت التنظيمات السياسية - الحزبية - التى ظهرت على ساحة الحياة العامة فى مصر مشغولة بالقضية الوطنية ، وغير قادرة بواقع الأسور على تجاوزها وعلى إدراك أن هذا التجاوز للحدود الوطنية يعطيها قوة مضافة أكثر مما يحملها هما إضافيا .

● وربما ساعد على هذا الإنحصار فى التفكير أن الحركة الوطنية المصرية اعتمدت بشكل أساسى على ملاك الأراضى ، والزراعة عادة تعطى أصحابها شعورا بحدود المكان يركزون جهودهم عليه ولا يخرجون منه إلى غيره خصوصا إذا بدا "غيره" هذا من بعيد مثقلا بالمشاكل ، مزدحما بالمطامع ، موزعا وممزقا بين القوى والأطراف . ولعل ذلك هو التفسير لملاحظة "سعد زغلول" الشهيرة حين جاءه "عبد الرحمن عزام" ينهبه إلى أهمية "البلاد العربية" ، وكان رد "سعد زغلول" هو قوله : "صفر زائد صفر يساوى كم يا عزام ؟"



كان هناك بعدد آخر قد لا يظهر تأثيره المباشر لكن فعله كان واسعا وناقصا ، وذلك أن الفكر المصرى كان قد مد جسوره إلى الشمال عبر البحر الأبيض ، واعتبر أن ذلك طريقه إلى العلم والثقافة والتطوير .

لم يوجه الفكر المصرى نظره شرقا ولا غربا حوله ، وإنما مد بصره إلى الشمال عبر البحر مهبورا بأوروبا ، و إلى باريس بالذات . وكانت البداية هى رحلة الشيخ "رفاعة رافع الطهطاوى" مع أولى بعثات "محمد على" ، وقد عاد منها يحمل ومضات من فكر "فولتير" و"روسو" و"مونتسكيو" . وتحولت هذه الومضات فى مصر إلى كشافات منيرة توسعت مساحة نورها فيما بعد بأفواج البعثات العلمية إلى أوروبا فى عصر "محمد على" ، ثم استؤنفت فى عصر "إسماعيل" الذى كان حلمه تحويل مصر إلى قطعة من أوروبا بصرف النظر عن عوائق الجغرافيا وموانع التاريخ .

ومع بداية القرن العشرين كان أعلام الفكر - وبالتالى السياسة - فى مصر من تلاميذ الثقافة الأوروبية . الفرنسية على وجه التحديد .

وأكثر من ذلك فإن هؤلاء الأعلام من تلاميذ الثقافة الأوروبية توزعوا على المدارس المختلفة والمتصارعة لهذه الثقافة كما عبرت عن نفسها فى ذلك الوقت ، دون ملاحظة أن عوامل الجغرافيا والتاريخ فى منطقة من العالم تختلف عنها فى غيرها من المناطق . كما غاب أيضا عنصر هام وهو أن مراحل التطور الاجتماعى والاقتصادى ، ومن ثم السياسى ، غالبية على أمرها . ومهما يكن فإن هؤلاء الأعلام - على توزع مدارسهم - كانوا يحملون هم التقدم من أى سبيل التمسوا منه مهربا من التخلف والاستعمار .

وهكذا فإنه من بداية القرن العشرين وحتى الثلاثينات منه برزت فى مصر عدة مدارس فكرية وسياسية متنوعة :

• كانت هناك مدرسة ليبرالية مع تنوع ألوان وظلال الليبرالية ، وكانت هذه هى المدرسة الأوسع والأكبر ، وإليها انتمى حزب الوفد وهو حزب الأغلبية فى ذلك الوقت ، وأقطابه من ملاك الأراضى والمعلمين من أبنائهم أو عائلاتهم ، وأغلبهم ممن درسوا الحقوق واشتغلوا بالقانون . والاشتغال بالقانون يشغل نفسه عادة بـ "النص" سواء فى ذلك النص المكتوب أو النص الواقعى ، وبالتالى فإن هذا التيار فى أغلبه حصر نفسه فى "نص" الاستقلال الوطنى لم يخرج عنه .

• وكانت هناك مدرسة لنوع من الاشتراكية المثالية أو الغابية أو الماركسية فى نزعاتها الثورية الأولى ، وكانت هذه المدرسة بعيدة عن مواقع التأثير إلا فى دوائر محدودة من المثقفين . وقد بدت دعاواها فى تلك الفترة بعيدة عن الواقع الاجتماعى والاقتصادى فى

مصر، بحيث أن دور هذه المدرسة - على اختلاف تنوعاتها الاشتراكية - بدأ هامشياً وبعيداً عن الأولويات التي طرحها ظرف طلب الاستقلال كمدخل لا بديل عنه لحلم التقدم الوطنى .

● وكانت هناك مدرسة لدعاة المادية أخذهم "داروين" بنظرياته إلى بعيد ، مما قطع صلتهم عن أى فعل حقيقى ، وقد تصادما منذ اللحظة الأولى بالرواسى الدينية وتحطمت دعاويهم على صخور هذه الرواسى العتيقة ، وجرفهم النسيان فانزروا يلومون الناس ولا يلومون أنفسهم .

● إلى جانب تلك المدارس كلها كانت هناك مدرسة إسلامية على نحو ما تخلص الإسلام بالعروبة دون تحديد ، وقد قادها إلى ذلك الخلط اهتمامها بمسألة الخلافة واتصالها على نحو أو آخر بأفكار الثورة العربية . وبالطبع كان الشيخ "رشيد رضا" هو عمدة هذه المدرسة ، لكن دورها شحوب باختفائه ويقدر ما انكمش تأثير جريدته : "المنار" .

وفى كل الأحوال فإن هذه المدارس جميعها انشغلت فى قضية واحدة هي قضية طلب الاستقلال داخل الحدود المصرية ، إلى جانب نوع ما من العلاقة مع السودان . وكان فى ذلك نسيان لقضية أساسية تسبق الاستقلال ، وهي قضية الهوية ، فليس فى استطاعة كائن ما أن يحدد ما يريد إذا لم يعرف مسبقاً من هو ؟

كانت مصر طوال تاريخها دولة بر وليست دولة بحر على حد تعبير الدكتور "جمال حمدان" . ومعنى أنها دولة بر أن طريقها إلى آسيا - عبر سيناء - كان هو الأشد فعلاً وأثراً فى تكوينها وتشكيلها الحضارى من أى طريق آخر : منه جاءت الهجرات والغزوات والديانات ، ومنه جاءت معظم عناصر التكوين والتشكيل الإنسانى والحضارى .

وربما أحس بعض المفكرين بأن قضية الهوية تحتاج إلى تأصيل ، وكان اختيارهم السهل أنها هوية البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تلك عملية توفيق فكرى مقبولة فى ذلك الوقت لقضية الهوية . وربما أن كتاب الدكتور "طه حسين" الشهير عن "مستقبل الثقافة فى مصر" هو خير تعبير عن هذه المحاولة للتوفيق الفكرى .

وكان هناك فريق شذ عن هذه المدارس كلها ، مد بصره خارج الحدود نحو الشرق ، وراح بالشعور والضمير ينحى منحى مختلفاً فى الحقيقة ، فقد كان ذلك دوره سواء أدها بوعى أو توجه إليه بنداء الوجدان التلقائى الذى لا يهتم كثيراً بالتحليل والتأصيل ، وكان ذلك فى الغالب الأعم هو طريق الأدباء والشعراء والفنانيين . فهؤلاء جميعاً راحوا مثل دود القز ينسجون خيوطاً من الحرير تكاد تكون غير مرئية إلى الشرق ، وبالذات إلى سوريا

ولبنان والعراق ، وإذا خطوط التحرير تتحول إلى جسور لها قوة الحديد . وفى النهاية فإن هذا الفريق استطاع أن يحقق بأكثر مما كان يمكن أن تحققه فرق السياسة فى تلك الأيام .



فى تلك الفترة ظهر واختفى بسرعة خاطر عربى تمثل فى طموح الملك "فؤاد" إلى الخلافة . وكان الملك فيما يبدو قد عرف بما جرى عرضه على السلطان "حسين كامل" من أمر ولاية أمير مسلم على القدس ، كما أنه وجد فى نفسه الأهلية أكثر من غيره ليدخل فى سباق الخلفاء المرشحين ، سواء من الهاشميين أو السعوديين . لكن الإنجليز كانوا قد غيروا رأيهم بعد الثورة المصرية سنة ١٩١٩ .

قبل هذه الثورة وفى وقت السلطان "حسين كامل" فكروا له فى إمارة القدس ، وقد بدت مصر لهم محمية هادئة مطيعة يمكن أن يعهد إلى أميرها بالمدينة المقدسة وما حولها ، ويمكن فى ظلّه أن يتحقق تغيير التوازن السكانى فى فلسطين من عرب إلى يهود بدون ضجة كبرى . لكن ثورة سنة ١٩١٩ غيرت هذه التقديرات وأظهرت أن مصر ليست تلك المحمية الهادئة المطيعة التى تصورها بعضهم .

وهكذا فإن مسمى الملك "فؤاد" للخلافة توقف فى الواقع قبل أن يبدأ ، ثم لم تمض إلا شهور حتى كان موضوع الخلافة كله ، وبالنسبة للأمر الثلاثة الطامحة إليه ، قد طواه النسيان وعفت عليه الأزمان .

ومن الملفت أن إثارة موضوع الخلافة فى ذلك الوقت أحدثت نوعاً من القلق وسط التيار الليبرالى فى مصر ، وكان قلقاً له مبرراته .

فمن ناحية بدأ أن الملك "فؤاد" يحاول أن يخلط الدين بالسياسة ، وهى لعبة خطيرة . ومن ناحية أخرى فقد بدأ أن الملك يحاول تعزيز سلطته فى مصر بمكانة أكبر يحققها لنفسه خارجها بدعوى خلافة المسلمين ، وهى لعبة أشد خطورة .

ومع تغير رأى الإنجليز فى موضوع ولاية أمير مصرى على القدس وما حولها ، ومع نفور أجداد التيار الليبرالى فى مصر - وهو أقوى التيارات وقتها - فإن الملك "فؤاد" نفسه آثر أن يترك قضية الخلافة ويلتفت إلى تعزيز سلطته فى مصر بدعوى حماية حقوقه الدستورية إزاء "سعد زغلول" و"مصطفى النحاس" .

وهكذا فإن اتجاه مصر سياسياً ورسماً نحو الشرق تعطل ، وبدت آفاقه مغطاة بأسراب من السحب العابرة لا تتيح الفرصة كافية لإعمال الفكر والنظر .

الملك فاروق

" لا أستطيع أن أرسم لوحدة إلا إذا
أحسست بموضوعها "

(الضابط البريطاني "سيمون إلويس" فى تبرير
علاقته بالملكة "فريدة")

فى منتصف الثلاثينات كانت هناك تغييرات هامة تقع فى مصر . ومع أن كل تغيير
منها جرى على غير ما صلتة ظاهرة بالآخر ، فإن صلات من نوع ما كانت تربط هذه
التغييرات كلا منها بالآخر :

● كانت هناك مرحلة من الكفاح الوطنى على وشك أن تصل إلى نهايتها ، وكانت
معاهدة سنة ١٩٣٦ (بين مصر وبريطانيا) هى علامة هذه النهاية . والحاصل أن الرعيل الأول
من جيل المطالبين بالاستقلال كان قد تعرض كثيرا لعوامل النحر والتعرية وأصبح مكشوفاً
لتبول أى حل مع بريطانيا يرد فيه ذكر "الاستقلال" وذكر "اللاء" ، حتى وإن كان ذكر
الائنين يجرى مبهما .

● وكان هناك جيل من الشباب الطامح الذى نشأ بعد مناخ ثورة ١٩١٩ ، وكان هذا
الجيل هو الذى مهد لحركة طلبة الجامعة - سنة ١٩٣٥ - التى فرضت على الزعماء
التقليديين للأحزاب أن يجتمعوا معا فى جبهة وطنية لمفاوضة الإنجليز . وفى حقيقة الأمر
فقد كان هناك ما يمكن تسميته "نصف ثورة" أشاعت فى مصر جوا فوارا . لكن هذا
الجو الفوار ما لبث أن خمد بتوقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ .

• وكانت مغامرة "طلعت حرب" العظيمة قد بنيت هياكل بنسك مصر وشركاته ،
وشاع بشكل ما إحساس بأن هناك كثيرا يمكن عمله في مجال النمو الاقصادى . وفى أقل
القليل فإن مصريا بارزا أثبت عمليا أن النمو ممكن وأن المصريين قادرون عليه .

• وفى سنة ١٩٣٦ مات الملك "فؤاد" . وكان حكم هذا الملك المتأثر بالثقافة الإيطالية
والقريب من فكر أسرة "آل سافوى" المالكة فى إيطاليا يومها ، قد تراجع مع السنين - وأمام
ضغوط الحركة الشعبية - إلى نوع من حكم "آل بورجيا" الذى تغلب فيه دسائس القصور
على طموحات الملوك .

• ثم إن ولاية العرش انتقلت بعد الملك "فؤاد" إلى ولى عهده "فاروق" الذى بدأ
فى ذلك الوقت صبيا جميلا ذكيا ناقص التعليم والثقافة معا ، لكنه بصباه قادر على
التعويض . وفى كل الأحوال فإن صباه أعطى مصر إحساسا بأنها قرب وعد جديد .

• مضافا إلى ذلك أن الموقف الدولى كان يتحرك بسرعة - مع ظهور الفاشية فى
إيطاليا ، والنازية فى ألمانيا ، والبلشفية فى روسيا - إلى حافة حرب عالمية يمكن أن تندلع
فى أوروبا، ويمكن أن يصبح الشرق الأوسط واحدا من ميادينها . وذلك المناخ أعطى مصر
شعورا بالخطر إلى جانب الشعور بالأمل ولقاء الشعورين معا يمكن أن تنتج عنه شحنة
كهربية لها ظواهر مدوية مثل البرق والرعد .

إن ذلك المناخ العام المشحون صاحبه علامات تستدعى التأمل :

• كان الرجل الذى اختاره الملك "فؤاد" للإشراف على تربية ابنه "فاروق" ، والذى
رافقه فى رحلة العلم التى لم تكتمل إلى بريطانيا ، هو نفسه : "عزيز المصرى" (باشا) ،
وهو أول رسول من قسوى الثورة العربية الأولى - إبان الحرب العالمية الأولى - للاتصال
والتفاوض مع بريطانيا . وهو نفسه صاحب شرط الدولة العربية المستقلة ، وهو الشرط الذى
رفضه الإنجليز وحاولوا بعده عزل "عزيز المصرى" ، وفضلوا عليه - وعلى غيره من القوميين
العرب - أن يكون تعاملهم مع الأمراء الهاشميين والسعوديين الذين شغلتهم التيجان
والعروش المعروضة وقتها فى واجهات العالم العربى !

وليس معروفا لماذا وقع اختيار الملك "فؤاد" على "عزيز المصرى" بالتحديد ، ولعل
الملك الذى يثس من الخلافة العربية الإسلامية لنفسه ، حلم بها لابنه ، واختار "عزيز
المصرى" ليكون جسرا يمشى عليه الحلم والفكرة من جيل إلى جيل . ربما .

وربما كانت هناك أسباب أخرى ، بينها أن الملك أراد أن ينشأ ابنه نشأة تتفق مع
رؤى عصر جديد لمحمة الملك العجوز قادمًا ، وتمنى لابنه الشاب أن يلحق به أو يمسك
بأطرافه . ربما .

وربما أن الملك "فؤاد" أراد تربية ابنه تربية عسكرية صارمة تصور أن "عزيز المصرى" يمكن أن يعطيها له ويعوده عليها . ربما .

ولعل الخطأ الذى وقع فيه الملك "فؤاد" ، أن اختياره لـ "عزيز المصرى" كالمرافق الأول لابنه فى إنجلترا ، صحبه اختياره لـ "أحمد محمد حسنين" أحد أمنائه لكى يكون المرافق الثانى لابنه . وكان هناك تناقض شديد بين شخصية وفكر كل من الرجلين .

فأولهما كان يريد للأمير الشاب حياة جادة صعبة ، فى حين كان الثانى من أنصار حياة سهلة ورخوة .

والحاصل أن وجود الرجلين فى حياة الأمير الصبى أصابه بتناقض عانى منه فيما بعد - وعانت مصر معه - عناء شديدا .

وفى منتصف الثلاثينات ، كان تأثير "عزيز المصرى" ملحوظا على الملك الشاب .

● وكان الرجل الذى وقع عليه الاختيار لرئاسة الوزارة فى تلك الظروف المغعبة بالأمل وبالخطر معا - فى أعقاب معاهدة سنة ١٩٣٦ - هو "على ماهر" (باشا) . وكان "على ماهر" سياسيا مستقلا خارج الأحزاب ، ومحاطا بمجموعة من الرجال يتصورونه "رجل الساعة" ، وقد استخدموا هذا التعبير فعلا ذلك الوقت . وكان بين هؤلاء الرجال مجموعة من هؤلاء الذين أطالوا النظر فى قضية انتماء مصر القومى ، وقضية مستقبلها ، وكان معظمهم من أنصار التوجه إلى الشرق . وإلى جانب "عزيز المصرى" كان هناك آخرون من أمثال "عبد الرحمن عزام" ، و"محمد على علوبة" ، و"صالح حرب" ، و"محمود عزمى"^(١) ، وغيرهم . وكان تصور هؤلاء جميعا للشرق غير محدد فى ذلك الوقت ، فلم يكن الشرق هو الأمة العربية وحدها ، وإنما كان الشرق مترايبا وراء ذلك واصلًا إلى إيران .

ولعل هذا التوجه شرقا كان واحدا من الأسباب التى دفعت فى ذلك الوقت إلى زواج ملكى يجمع ما بين الأميرة "فوزية" شقيقة الملك "فاروق" و"محمد رضا بهلوى" ولى عهد إيران .

وحتى إذا قيل بأن صاحب فكرة هذا الزواج ابتداء هو "رضا خان" شاه إيران الأب - فى محاولة للبحث عن أصل عريق فى المنطقة لأحفاده - فإن القبول المصرى بهذا الزواج كان يحمل فى طياته إحساسا بأهمية الشرق فى المنظور المصرى الإستراتيجى ، وبالوسائل التى يمكن أن تخدمه بمنطق تلك الأيام !

(١) بدأ الدكتور عزمى حياته العامة نصيرا للفكرة الاتجاه شمالا إلى أوروبا ، ووصل إلى حد المشادة باتخاذ اللبنة غطاء للرأس ، وسبق هو غيره إلى ذلك فعلا . لكن تأثير مدرسة الشرق ما لبث أن شده إليه وضمه إلى صفوفه .

● وكان من العلامات المشيرة للاهتمام فى ذلك الوقت ، أن تلك كانت الفترة التى ظهرت فيها تنظيمات انبعثت من حركة الشباب .. نصف الثورة سنة ١٩٣٥ .

كانت جماعة "الإخوان المسلمين" قد ظهرت فى أواخر العشرينات ، لكنها اكتسبت لنفسها قوة جديدة فى ظروف الفوران الذى صاحب أجواء مصر فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة . وكانت علاقة "الإخوان المسلمين" بـ "على ماهر" وثيقة ، وعن طريقه كانت العلاقة بالقصر سالكة .

ونفس الشئ، حدث لجماعة أخرى من الشباب ، وهى حركة "مصر الفتاة" وقد تزعمها "أحمد حسين" ، وبرز إلى جواره جمع من الشباب المرموق بينهم "فتحى رضوان" و"نور الدين طراف" .

هكذا فإن اهتمام مصر بثورة الشعب الفلسطينى سنة ١٩٣٦ لم يكن عشوائيا ، وكذلك لم يكن من قبيل المصادفات اشتراك مصر فى مؤتمر فلسطين فى لندن سنة ١٩٣٨ .

ثم حدث أن الحرب العالمية الثانية زحفت بجيوشها إلى ميادين القتال بما فيها مصر.

ومما يستحق الاهتمام مراجعة ما حدث لمدرسة الشرق وقت الحرب العالمية الثانية ، وحين فرض الإنجليز فى ظروفها سلطتهم العسكرية على مصر ، كما كانت تقريبا فى وقت الحماية أثناء الحرب العالمية الأولى .

لقد تم اعتقال "على ماهر" باشا ، والمزعج أنه اعتقل داخل مجلس الشيوخ بطلب من السفير البريطانى وقع عليه "مصطفى النحاس" باشا .

كذلك جرى اعتقال "عزيز المصرى" (باشا) بصرف النظر عن الظروف ، وجرى تحديد إقامة آخرين من رجاله مثل "صالح حرب" (باشا) ، كما جرى حصر نشاط آخرين منهم مثل "محمد على علوبة" (باشا) و"عبد الرحمن عزام" (باشا) وغيرهما .

ونفس المصير : السجن أو العزل أو الحصار ، لحق برجال من أمثال "أحمد حسين" و"فتحى رضوان" و"نور الدين طراف" والشيخ "حسن البنا" .

بدا أن أعدى أعداء الإنجليز فى مصر وقت الحرب هم أنصار مدرسة الشرق . فقد كانت السياسة البريطانية ما زالت تعمل وفق الخطوط التقليدية القاضية بعزل مصر فى أفريقيا بعيدة عن تفاعلات ما كان يجرى فى الشرق .

وفى نفس الوقت وتحت ضغط الظروف وبادراك أعمق لحقائق التاريخ فبان الاحتجاه نحو الشرق فى مصر بدأ يرى بوضوح خطوط المستقبل وآفاقه .



وكان التاريخ يؤكد نفسه حتى من خلال تصرفات هؤلاء الذين يعملون على عكس اتجاهه .

والحاصل أن الإنجليز أنفسهم كانوا أول من أعطى للحركة العربية مرة أخرى رخصة للفعل . وهكذا فإن ما حدث فى الحرب العالمية الأولى ، عاد ليعرض نفسه بطريقة مختلفة فى ظروف الحرب العالمية الثانية .

ثم كان - لضرورات استعمار الحرب قبل معركة العلمين الفاصلة التى أنهت حلم "هتلر" بالوصول إلى قناة السويس ثم سوريا والعراق وما بعدها - أن الشرق العربى كله وُضع تحت سلطة وزير بريطانى - عضو كامل فى مجلس الوزراء - مقيم فى الشرق الأوسط . ونظرا لصعوبة وسائل المواصلات والاتصالات بسبب ظروف الحرب ، فإن الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط أصبح حاكم المنطقة ، فى مجالى السياسة والاقتصاد .

ودون أن يقصد أحد فقد برزت خلال الحرب حقيقة كبرى ، تلك هى أن المنطقة من وادى الفرات إلى وادى النيل - وسوريا وسطها - ضلع مكمل للضلع المصرى على الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الأبيض ، أصبحت وحدة واحدة ، لها خصائص مشتركة . وبينها تكامل جغرافى لا يمكن قطعه ، وأمن يصعب الفصل بين مقتضياته ، ومصالح متصلة ، وتمائل ثقافى من نوع فريد ، ومركز ثقل واحد - فى القاهرة - ليس من السهل تعويضه .

وفى هذه الفترة تبدى المعدن الحقيقى لخيوط الحرير التى نسجها الشعراء والفنانون والكتاب ، فإذا خيوط الحرير تتحول إلى جسور من حديد .

كانت قيادة الشرق الأوسط - وتحت إشراف الوزير البريطانى المقيم - تنسق على اتساع المنطقة كل شىء :

الإنتاج ، التموين ، المواصلات ، القرار السياسى . إلى جانب المشاركة بالجهود العسكرية اللازمة لتحقيق النصر ضد ألمانيا وإيطاليا وشركائهما فى الحرب .

ولم يكن ممكنا لذلك أن يحدث إلا ويصاحبه ، يسبقه ويلحقه ، تفاعل من داخل

المنطقة ذاتها يتصل بما يجرى فيها ويجرى حولها ، خصوصا إذا كانت هناك من الأصل قواعد ولحقت على القواعد وبقوة الأشياء .. جسور .

والحاصل أنه في سنوات الحرب ، سواء والقتال يجرى قريبا من المنطقة أو عندما ابتعدت الجيوش متحركة إلى ميادين أخرى كانت منطقة الشرق الأوسط قائمة بذاتها ، معتددة على بعضها ، متصلة بغير عوائق أو فواصل لأنها كانت فى إطار مسرح استراتيجى واحد .

ولعل الحكومة البريطانية - دون أن تقصد - سمحت للقواعد والجسور أن تؤدى دورها فى جلاء حقائق ، وفى ربط أطراف ، وفى تنسيق حركة تيارات . وقد فعلت ذلك لأغراضها وكان فى بعضه تكرار لما حدث فى الحرب العالمية الأولى .

ثم إن الحكومة البريطانية تمننت أن يخلص لها الشرق الأوسط بغير شريك ، وقد تصورت أن فرنسا التى شاركتها مرة من قبل فى قسمة المنطقة خرجت من القسمة باستسلامها لـ "هتلر" سنة ١٩٤٠ وقيام حكومة موالية فى فيشى للمحور يتزعمها الجنرال "بيتان" .

واستغللت بريطانيا سقوط فرنسا فى الغرب ومدت يدها إلى ممتلكاتها فى الشرق - سوريا ولبنان - فأخرجت منها الإدارة التابعة لحكومة "فيشى" ، ودخلت إلى بيروت ودمشق محررة بجيش يقوده الجنرال (جامبو) "ويلسون" .

لكن ضرورات الحرب فى الغرب اقتضت مهادنة فرنسا التى يمثلها الجنرال "ديجول" ، وهو وقتها لاجئ بحكومته إلى لندن . ومن أجل بناء مصداقية حركة فرنسا الحرة - وقائدها "ديجول" - وعلى أمل دور منتظر لهما فى إعادة غزو أوروبا عندما يجرى الوقت ، فإن بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية سمحتا مرة أخرى لفرنسا - "ديجول" - أن تعود إلى سوريا ولبنان . لكن المشكلة أن "ديجول" بشخصيته العنيدة ، وبتصوره لعظمة فرنسا ، أخذ الموضوع جدا أكثر من اللازم ، واعتبر إدارته فى سوريا ولبنان فعلا سلطة حاكمة .

وقامت بريطانيا بتشجيع حركة وطنية فى سوريا ولبنان وجدت أن متغيرات الأحوال وسرعة هذه المتغيرات تتيح لهما فرصة تاريخية فى الاستقلال عن فرنسا .

ونشط جنرال بريطانى من المخابرات مرة أخرى - هو الجنرال "سبيرز" - إلى الاتصال بزعماء الثورة الوطنية فى الشام ، وإذا الجنرال "ديجول" يفقد أعصابه للحظة ويسمح للحاكم الفرنسى العام (فى ديسمبر ١٩٤٣) بأن يلقي القبض على صفوة الزعماء السياسيين فى دمشق وبيروت ، وأن يودعهم فى السجون والقلاع البعيدة !

ولم تكن بريطانيا قادرة على أن تتصدى للتصرفات الفرنسية بنفسها ، وهكذا فإنها تركت الحركة الشعبية العربية تعبر عن نفسها ، وقد كان . وتقدم رئيس وزراء مصر "مصطفى النحاس" فى هذه الظروف يقود من القاهرة موجة رد فعل واسع ضد تصرفات فرنسا .

ومع جرعة من الضغط البريطانى ، بدواعى أن شبح الحرب لم يبتعد بعد عن آفاق المنطقة ، اضطر "ديجول" إلى التراجع ، وجرى إعلان استقلال سوريا ولبنان .

وكانت تلك تجربة للقوى القومية لا بأس بها بصرف النظر عن كل الملابس الدولية التى أحاطت بها .



كان "أنتونى إيدن" وزير خارجية بريطانيا قد وقف يعلن فى مجلس العموم فى صيف ١٩٤٢ أن بريطانيا سوف تنتظر بعين العطف بعد الحرب إلى آمال الشعوب العربية فى تحقيق نوع من الوحدة بينها . وفى هذا التصريح الأول على لسان "إيدن" فإن وزير الخارجية البريطانى لم يشر إلى مصر .. وإنما تحدث عن العرب بدونها .

لكنه بعد شهر وقف "أنتونى إيدن" فى مجلس العموم مرة أخرى يكرر تصريحه . وفى هذه المرة أضاف مصر إلى العالم العربى .

ولم تكن تلك نوبة تطوع بالإحسان اعترت وزير الخارجية البريطانية - فى وزارة "ونستون تشرشل" - وإنما كانت على وجه القطع استجابة لحقائق جديدة بدأت تتضح وراحت تكسب لنفسها أرضا جديدة كل يوم .

وقبل أن تنتهى الحرب وتتوقف معاركها فى أوروبا ، كان "مصطفى النحاس" باشا يواصل التزام مصر العربى الذى تجلى فى معركة استقلال سوريا ولبنان ، بالعمل على وضع الأساس لجامعة الدول العربية . وكان "النحاس" باشا قد تحول هو الآخر بتجربة الحرب ودروسها ، وبما نشأ وتراكم داخل مصر وحولها من تيارات سياسية وفكرية إلى مدرسة الشرق . وكان هو الذى تفاوض وقام بتوقيع ميثاق الجامعة العربية فى خريف سنة ١٩٤٤ ، ومن المغارقات أنه وقع ميثاق الجامعة ، ثم جرت إقالته فى اليوم التالى مباشرة .

وكانت سنوات الحرب وظروفها قد خصمت ضرائبها من جميع الأطراف ، وأولها حزب الوفد الذى فقد قوته كمثل رئيسى للقوى الشعبية فى مصر نتيجة لعنصرين :

* أولهما حادث ٤ فبراير (حين حاصرت الدبابات قصر عابدين وفرضت وزارة وفدية ع الملك بدواعى سلامة الجهد الحربى . ومن الانصاف أن "مصطفى النحاس" باشا - ط لما تقول به وثائق الحرب - لم يكن أمامه غير القبول بتأليف الوزارة .) - لكن ذلك ينفى واقع أن قبوله الوزارة "على أسنة الحراب الإنجليزية" - كما كان يقال - أدى نوع من الانكسار فى شرعيته السياسية .

* والعنصر الثانى أن ظروف الحرب أثرت فى نوعية قيادات الوفد ، ونقلت مركز القه فى هذا الحزب العتيد من جماعات المثقفين - الذين قادوا حركته فى السنوات الصه الأولى - إلى قيادة كبار ملاك الأراضى الذين كانوا على استعداد باستمرار لحلول و ب تتصل بالمصالح الطبقيه أكثر من اتصالها بحركة الوفد الأصلية وتوجهاتها السياسه والاجتماعية .

كانت سنوات الحرب وظروفها قد فعلت فعلها وأكثر فى موقع آخر ، وهو القه الملكى الذى ظل لسنوات معقلا لسياسة الشرق فى السياسة المصرية .

إن الملك "فاروق" الذى شهدته بداية الحرب شابا وطنيا متحمسا ، خرج فى نه الحرب رجلا آخر ، ومن الحق أن هناك عوامل ظاهرة لعبت دورها فى تغيير شخصيته

● كان هناك أثر حادث من نوع ٤ فبراير عليه ، وقد تعرض فيه لإهانة كبيره وعامله المندوب السامى البريطانى ، السير "مايلز لامبسون" - (اللورد "كيلسن" فيما بعد معاملة طفل شقى لا يستحق قطعة حلوى فى فمه وإنما يستحق علقه على مؤخره وكانت تلك تجربة مريرة أورثت الملك كراهية عميقة للتيارات الشعبيه التى كان الو يمثلها آنذ .

● وكانت هناك المحنة الشخصية التى تعرض لها الملك كإنسان .

فقد خانته أمه الملكة "نازلى" مع رئيس ديوانه "أحمد حسنين" ونشأت بين الا علاقه غير شرعية رغم محاولات لاحقة قاما بها لتغطية العلاقه بعقد زواج عرفى . وك تلك ضربة لكبرياءه، الملك !

والحاصل أن الملكة الأم كانت ذات شخصية غير متوازنة فى أقل القليل ، ومن أنها فى سنوات حياتها الأخيرة فى الولايات المتحدة ، قررت أن ترتد عن الإه وتتنصر وتعتنق المذهب الكاثوليكى . وقد أثرت "نازلى" على ابنتيها اللتين عاشتا ه فى أمريكا، وهما "فايزة" و"فتحية" ، وكلتاها ماتت وهى مسيحية كاثوليكية .

● والأدهى من ذلك أن أمه لم تكن وحدها التي خانته ، وإنما خانته زوجته "فريدة" أيضا (رغم محاولات لا لزوم لها لرسم صورة مغايرة) ^(١) .

والحقيقة المرة أن وثائق القصر ووثائق الخارجية البريطانية تحفل بتفاصيل كثيرة عن العلاقات المضطربة بين الملك الشاب وزوجته الشابة .

ويبدو في الظاهر أن التماثل في السن بين الاثنين خلق لدى "فريدة" حاجة إلى رجل أكثر نضجا ، وكان أن وقعت في غرام "وحيد يسرى" (باشا) ، وهو بمثابة ابن عمه للملك (أو أسوأ لأن أمه الأميرة "شويكار" هي الزوجة الأولى للملك "فؤاد" .

لكن مشكلة الملكة "فريدة" كانت فيما يبدو أعمق من ذلك ، فوثائق القصر والسفارة البريطانية والخارجية البريطانية تربطها بعلاقة غير شرعية مع ضابط بريطاني اسمه الكابتن "سيمون إلويس" ، وكان قبل الحرب رساما له مستقبل ، وقادته خدمته في مصر إلى التعرف على بعض العائلات الكبيرة بها ، ورسم بالفعل صورا لبعض شخصياتها بما في ذلك صورة للسيدة "ناهد سرى" وهي قرينة "حسين سرى" باشا الذي كان رئيسا للوزراء ، وفي نفس الوقت خالة الملكة "فريدة" ، وهكذا فإن "سيمون إلويس" دخل القصر أول مرة يرسم صورة زيتية للملكة ، ثم تدرب بأن زحام القصر يفسد إلهامه فدعاها إلى تكملة الصورة في "مرسمه" ، وتطورت الأمور بين الاثنين . وحين انكشفت العلاقة قام السفير البريطاني نفسه بالتحقيق مع الضابط الفنان الذي بلغ به السخف حد أن يقول "إنه لا يستطيع أن يرسم صورة إلا إذا أحس مباشرة بموضوعها" . وقد جرى ترحيل هذا الضابط إلى جنوب أفريقيا في ظرف أربع وعشرين ساعة .

(إن تفاصيل القصة لسوء الحظ كاملة في مذكرات لورد "كيلرن" ومخطوطاتها جميعا في مكتبة كلية "سانت أنتوني" بجامعة أكسفورد ، وقد وردت أول إشارة للقصة في يوميات ٣٠ مارس ١٩٤٣ ، وظل ذكرها يرد في الصفحات حتى يوم ٤ يناير ١٩٤٤ . كذلك فإن اللورد "كيلرن" أشار إلى الواقعة في بريقة إلى وزارة الخارجية بتاريخ أول مارس ١٩٤٤ ، وهي تحت رقم ٣٧١/٣٥٥٣٠) .

ويظهر أن الملك "فاروق" مات في آخر عمره مجروحا مما حدث له في زواجه الأول ، وقد روى لبناته الثلاثة من "فريدة" وهن : "فريال" و"فوزية" و"فادية" تفاصيل

(١) لقد تردت كثيرا قبل أن أضغ هذه القصة في سياق هذا الكتاب ، لكن مأساة الملك "فاروق" لا تتضح في كامل أبعادها بدون فجيعة في والدته وفي زوجته ، وتأثير ذلك على شخصيته وعلى تصرفاته فيما بعد .

ما جرى له معها ، وكان من نتيجة ذلك أن البنات الثلاثة قاطعن أمهن إلى درجة رفض زيارتها في مرض موتها !

ولعله كانت هناك - إلى جانب أوجاعه العائلية - أسباب قصور وتهافت في شخصيته أثرت عليه ، أو لعل حادث السيارة الذي وقع له في قرية "القصاصين" أصابه في رأسه بما استعصى دواؤه .

لكن الحقيقة النهائية تبقى مع الأسف وهي أن ملك مصر الذى عاش أول أيام الحرب العالمية الثانية - شابا وطنيا يحمل بشارة أمل - وصل في الأيام الأخيرة من الحرب إلى أن أصبح كتلة شحم مترهلة تبحث عن الكرامة والسعادة ولا تعثر للثنتين على أنسرا

كان ملك مصر الشاب وعدا ، لكنه وعد أخلف مواعده !

ومهما يكن فإن مصر وقعت على ميثاق الجامعة العربية بقوة الأشياء وليس أكثر . فحزب الأغلبية ورئيسه "مصطفى النحاس" لم يكونا في وضع يسمح لهما بالتخطيط للمستقبل ، والملك الشاب - الذى راوده الحلم في سنوات ملكه الأولى - أضع أحلامه بصرف النظر عن أن ظروفه ساقته إلى الضياع !

وهكذا وجدت مصر نفسها تدخل إلى عالمها العربى ، وهي ليست بعد واثقة من خطاها ، وكان ذلك تأثير واقع الحال ، وربما ساعدت عليه عوامل إضافية .

الحاخام حايسيم ناحوم

" المسيحيون تركوا القدس إلى روما ، والمسلمون
تركوها إلى مكة ، واليهود وحدهم بكوا عليها "
(الحاخام الأكبر "حايم ناحوم أفندى" للملك "فاروق")

كان وجود جالية يهودية قوية من بين العوامل الإضافية التي ساعدت على تحويل نظر
مصر عن هويتها العربية . ومما يستحق الاهتمام أن تزايد دور الجالية اليهودية ترافق مع
ظهور المشروع الصهيوني في فلسطين ، وتوافق بشكل أو بآخر مع الاحتلال
البريطاني لمصر .

كانت في مصر جالية يهودية منذ عصور قديمة ، لكنه حتى عصر الخديو
"إسماعيل" وقبل الاحتلال البريطاني مباشرة لم يزد عدد اليهود في مصر عن سبعة آلاف
نسمة ، وكان تركيزهم في القاهرة والإسكندرية . ففي القاهرة كانت هناك حارة اليهود
التقليدية ، وكانت حيا نشيطا من أحياء القاهرة على صلة مباشرة بالقلب التجارى للمدينة .
وفي الإسكندرية كانت هناك جماعات من اليهود يمكن اعتبارهم جزءا من مجتمع البحر
الأبيض المتوسط ، وأغلبهم عائلات تراجعت ضمن الخروج المسلم اليهودى من الأندلس بعد
العودة الكاثوليكية إليه ، وتوزعت على شواطئ البحر الأبيض من المغرب حتى إستانبول في
شبه دائرة كاملة . واستقر بعضهم في الإسكندرية كوسطاء ووكلاء للتجارة مع المدن
الإيطالية ، مثل "جنوا" و"فينيسيا" (البندقية) و"فلورنسا" ، فى العصر الذهبى لازدهار
التجارة الأوروبية مع الشرق عبر مصر .

لكنه مع بداية الاحتلال البريطانى لمصر راحت أعداد من اليهود تصل إليها . وهكذا
فإن إحصاء سنة ١٩٠٧ يكشف أن عدد اليهود في مصر ارتفع فجأة من سبعة آلاف قبل

الاحتلال البريطاني إلى ٣٨٦٣٥ سنة ١٩٠٧. ثم تواصلت الزيادة ، فإذا عدد اليهود فى مصر طبقا لإحصاء سنة ١٩٢٧ يتضاعف تقريبا ويصل إلى ٦٣٥٥٠ نسمة . ولما كان معظم المهاجرين اليهود إلى مصر جاءوا إليها من بلدان عربية (مثل المغرب) ، وإسلامية (مثل تركيا) ، فإن اندماج هؤلاء اليهود بالحياة المصرية ، خصوصا مع الطبقة المتوسطة ، كان مسألة سهلة ، وزاد من سهولتها أن قمة الطبقة المتوسطة فى مصر كانت غالبا من أصول أجنبية . وهكذا أصبح اليهود فى مصر وبسرعة جزءا من نسيج الحياة العامة ، خصوصا فى مجال النشاط الاقتصادى وفى مجال النفوذ الاجتماعى .

وكانت هذه هى الفترة التى ظهرت وبرزت فيها عائلات يهودية مثل "قطاوى" و"موصيرى" و"منشة" و"شيكوريل" و"سوارس" و"رولو" و"ساسون" وغيرها .

وعندما جاء "ثيودور هيرتزل" إلى مصر سنة ١٩٠٢ حاملا مشاريعه : دولة يهودية فى فلسطين ، أو محطة تجديع مؤقتة فى سيناء ، فإنه اعتمد فى اتصالاته بالدرجة الأولى على عدد من العائلات اليهودية وبالأذات فى الإسكندرية حيث قام "هيرتزل" نفسه بتأسيس جمعية صهيونية تتولى الدعوة إلى مشاريعه بعد سفره ، ثم تتولى الترويج للفكرة الصهيونية فى مصر . وظلت هذه الجمعية وفروعها نشيطة حتى قيام الحرب العالمية الأولى .



ومع قيام الحرب العالمية الأولى ، بدأت أعداد كبيرة من المهاجرين اليهود من روسيا تحاول الوصول إلى فلسطين . ولما كان الأتراك يحتلون فلسطين وقتها ، فإن الوكالة اليهودية أمرت بتحويل هؤلاء المهاجرين إلى الإسكندرية حيث كلفت الجالية اليهودية فيها ورئيسها فى ذلك الوقت هو "إدجار سوارس" باستقبال هؤلاء المهاجرين ورعايتهم . وفى شهر ديسمبر ١٩١٥ بلغ عدد اليهود الذين وصلوا إلى ميناء الإسكندرية ١١٢٧٧ مهاجرا . وقررت السلطات البريطانية تسهيل دخولهم إلى مصر ، لكنها أرادت أن يكون هناك إذن مصرى يعزز قرارها . وتولى "إدجار سوارس" مهمة إقناع السلطان "حسين كامل" ورئيس مجلس الوزراء "حسين رشدى" باشا بقبول دخول هؤلاء المهاجرين إلى مصر وإقامتهم فيها . وبالفعل ، فقد وافق السلطان ورئيس الوزراء ، وصدرت الأوامر بفتح معسكر استقبال كبير لهم فى منطقة "القبارى" بالإسكندرية .

ولم يكن وقت هؤلاء المهاجرين ضائعا فى معسكر "القبارى" . وإنما تولت الجالية اليهودية فى مصر تنظيمه بطريقة تنبئ بدلالات لها معنى :

- ◊ كانت هناك دروس مكثفة لتعليم اللغة العبرية والتاريخ اليهودى .
- ◊ وكانت هناك عملية تدريب عسكرى مستمرة اتخذت فى البداية شكل الألعاب الرياضية .
- ◊ ثم كانت هناك عملية تعبئة صهيونية قام بها دعاة كبار من أمثال "فلاديمير جابوتنسكى" .

وتسجل الوثائق البريطانية أنه فى يوليو سنة ١٩١٦ توجه "موسى قطاوى" باشا رئيس الطائفة اليهودية فى مصر إلى مقابلة الجنرال "ماكسويل" القائد العام للقوات البريطانية فيها، وكان طلب "قطاوى" فى هذه المقابلة هو السماح بتشكيل كتائب يهودية تدخل ضمن إطار جيش الجنرال "اللسبى" الذى كان يستعد للزحف على الأتراك فى فلسطين والشام بعدها ووافق الجنرال "ماكسويل" ورتب لهذه الكتائب اليهودية فرصة أن تلتحق بجيش الجنرال "اللسبى" . وأكثر من ذلك سمح لجنودها أن يضعوا نجمة داوود علامة على مقدمة قبعاتهم، لكى يكون واضحا أنها كتائب يهودية .



كانت تلك بداية راحت بعدها العائلات اليهودية فى مصر تتسابق ربما بدون تخطيط إلى خدمة ما بدا لها وكأنه قضية مستقبل الشعب اليهودى .

وقام يهودى بارز هو : "فيليكس منشة" بالدعوة إلى مؤتمر عام يضم كل الجمعيات اليهودية فى مصر بحيث يخرج من اتحادها جميعا تنظيم واحد حدد "فيليكس منشة" نفسه أهدافه على النحو التالى :

- * تركيز الاهتمام على عملية إنشاء الوطن اليهودى فى فلسطين .
- * جمع التبرعات لتنظيم ومساعدة حركة هجرة منظمة إلى فلسطين عن طريق مصر .
- * العمل على إنشاء جامعة عبرية فى فلسطين وجمع التبرعات لها (كانت تلك مقدمات إنشاء الجامعة العبرية فى القدس) .
- * التحضير لإنشاء مركز طبي متقدم فى فلسطين وجمع التبرعات لإنشائه (كانت تلك مقدمات إنشاء مستشفى "هداسا" الطبي والتعليمى فى القدس) .

ثم بدأ هذا النشاط الصهيونى للعائلات اليهودية يأخذ منحى خطيرا إلى حد أن اجتماعا عاما لكل المنظمات اليهودية فى فلسطين عقد فى الإسكندرية يوم ١٤ أغسطس ١٩١٨ ، وكان الذى تولى رئاسته هو "حاييم وايزمان" الذى كانت جهوده وجهود المنظمة الصهيونية العالمية التى يرأسها فى ذلك الوقت قد توصلت إلى إعلان "وعد بلفور" .

وفيما يبدو فإن هذا النشاط المتزايد للجالية اليهودية أقلق الحاخام الأكبر للطائفة اليهودية فى القاهرة ، وهو يومئذ "رافاييل هارون بن سيمون" ، فدب الخلاف بينه وبين العمدة الكبار للعائلات اليهودية فى مصر .

وليست هناك تفاصيل كافية حول هذا الخلاف ، لكن بيانا مقتضبا نشر فى مصر سنة ١٩٢١ أشار إلى أنه "بعد نشوء سوء فهم بين مجلس الطائفة اليهودية فى مصر وبين الحاخام "رافاييل هارون بن سيمون" ، فإن الحاخام تخلى عن وظيفته وقرر أن يعتكف حتى نهاية حياته فى القدس ."

ثم كان أن اختار مجلس الطائفة اليهودية فى مصر حاخاما آخر هو "حاييم ناحوم أفندى" الذى كان حاخاما لإستانبول . وجاء "حاييم ناحوم أفندى" إلى مصر ، وكان هناك دور كبير ينتظره فيها ، وكان الرجل مؤهلا لهذا الدور . فقد كان ذكيا وعالما ضليعا يملك معرفة واسعة باللغات الشرقية .

ولم تمض شهور على وصول الحاخام "حاييم ناحوم أفندى" حتى أصبح صديقا ومستشارا للملك "فؤاد" الذى كلفه بإعداد دراسة عن حقوق "الخدوية المصرية" كما وردت فى الوثائق التركية ، وكان ذلك إبان اهتمام الملك "فؤاد" بمسألة الخلافة وإرثها من آل عثمان" . ثم تقدم "حاييم ناحوم أفندى" خطوة تالية وأصبح عضوا فى مجلس الشيوخ المصرى . ثم خطوة أخرى ليصبح عضوا بارزا فى مجمع اللغة العربية ، وصديقا مؤثرا على النخبة السياسية الثقافية والفكرية فى مصر ، داخل القصر الملكى وخارجه .

وكانت هناك ظروف مساعدة لدور الحاخام "حاييم ناحوم أفندى" :

- * منها مثلا أن "يوسف قطاوى" باشا أصبح وزيرا للمالية فى أكثر من وزارة .
- * ومنها مثلا أن عددا من اليهود دخلوا لعضوية مجلس النواب ومجلس الشيوخ ، وبينهم "رينيه قطاوى" بك و"دى بتشوتو" بك .
- * ومنها مثلا أن زوجة "يوسف قطاوى" باشا أصبحت كبيرة وصيفات الملكة "نازلى" .
- * ومنها مثلا أن يهوديا من جنوب أفريقيا هو "أوزوالد فينى" قام بتأسيس شركة الإعلانات الشرقية التى صدرت عنها مجموعة من الصحف الإنجليزية والفرنسية ، بينها

"الإجيشيان ميل" ، و"الإجيشيان جازيت" ، و"البورص إيجيشيان" وكان أن شركة الإعلانات الشرقية سيطرت بالكامل على سوق الإعلان الناشئ في مصر ، وأصبح لها نتيجة لذلك نفوذ على الصحف المصرية الوطنية .

* وإلى جانب ذلك كله فقد كان في القصر الملكي نفوذ يهودى قوى . فإن مدام "سوارس" أصبحت عشيقة للملك "فؤاد" ، وهو أمر لاحظته السير "بيرسى لورين" المندوب السامى البريطانى وكتب عنه أكثر من مرة في تقاريره إلى لندن .

كان هوى اليهود في مصر موزعا بينها وبين حلم الدولة اليهودية ، وذلك يتضح من حقيقة أن الجالية اليهودية في مصر بدأت تجمع التبرعات لإنشاء مستعمرة في فلسطين تهديها باسمها إلى المستوطنين المهاجرين . وقد تأسست هذه المستعمرة بتكلفة قدرها ثلاثون ألف جنيه مصرى ، وافتتحت رسميا سنة ١٩٣٣ وأطلق عليها اسم "كلار جوديا" — القرية اليهودية !

لكن الهوى الموزع ليهود مصر كان ما زال مضبوطا بحرص يظهره الحاخام الأكبر الذى يدرك حساسية وضع اليهود في مصر وهى في رأيه بلد عبرى . والحاخام يقر بحق اليهود في تأسيس دولة لهم في فلسطين ، إلا أنه ينصح كل الأطراف بالحدز . وقد بلغ من حدزه أن طلب إلى "موصيرى" باشا أن يلفت نظر ممول يهودى كبير هو "ليون كاسترو" أن "يهدأ قليلا في جمع التبرعات للحركة الصهيونية" لأن ذلك من شأنه أن يخلق وضعا يؤدي إلى إحراج اليهود في مصر ، وهو أمر لا لزوم له الآن !



وفى فترة ما بين الحربين كان نفوذ اليهود في مصر قد بلغ مداه تحت توجيه "حاييم ناحوم أفندى" ، وبغسل عمل ونشاط جالية أثبتت أنها تملك قدرا هائلا من الكفاءة والحيوية ، ومنحتها الامتيازات الأجنبية نوعا من الحصانة يحميها ، ذلك أن كثيرا من المهاجرين اليهود الذين تمكنوا من الثروة وجدوا مناسبا أن يطلبوا جوازات سفر فرنسية أو إيطالية أو أسبانية تعطيهم مزايا الأجنبي أمام القانون ، وتحمى معاملاتهم مع الآخرين . وهكذا كان اليهود يحتلون ما نسبته ٣٩ ٪ من مقاعد مجالس إدارات جميع الشركات الصناعية والمالية في مصر ، وهى نسبة تفوق نسبتهم في عدد السكان بمئات المرات .

* ويكل ما لهم من نفوذ مالى فقد شاركت عائلات منهم في إنشاء بنك مصر نفسه . ويظهر اسما "شيكوريل" و"موصيرى" ضمن الأعضاء المؤسسين لشركاته .

* وكانت لهم شبه سيطرة مؤثرة على عدد من الشركات الزراعية بالتحديد ، وبينها شركة "وادي كوم اببو" ، وشركة "أراضي البحيرة" ، وشركة "الشيخ فضل الله" .

* وبفضل هذا الحجم من التأثير الاقتصادي فقد استطاعوا أن يجمعوا من حولهم دائرة من الساسة المصريين المتصلين أكثر من غيرهم بمجالات النشاط الاقتصادي ، وأبرزهم فى ذلك الوقت "إسماعيل صدقى" باشا الذى أصبح وزيرا للمالية ورئيسا للوزراء عدة مرات ، كما أصبح رئيسا شبه دائم لاتحاد الصناعات المصرية .

ويمكن أن يقال إن نخبة مصرية - يهودية ظهرت فى تلك الفترة ومارست قدرا من التأثير فى الحياة الاجتماعية واضحا وفعالا . وعلى سبيل المثال فإن فرقة "الهابيمما" المسرحية التى أنشأها اليهود فى فلسطين كانت لها مواسم فى القاهرة ، وكذلك كان الحال مع الفرقة الموسيقية الفيلهارمونية اليهودية التى أصبحت فيما بعد الأوركسترا الأولى فى إسرائيل بعد إنشاء الدولة العبرية .

وكانت الجامعة المصرية فى فترة تألقها فى الثلاثينات على صلة وثيقة بالجامعة العبرية الجديدة فى القدس . وقام مديرها الدكتور "ماجنس" بدعوة زميله "لطفى السيد" باشا مدير الجامعة المصرية لحضور احتفال افتتحها . ولم يتمكن "لطفى السيد" باشا من حضور الحفل ، ولكنه أناب عنه الدكتور "طه حسين" الذى شارك فى الاحتفال وألقى بنفسه كلمة جامعة "فؤاد الأول" هناك .

وفى سنوات الحرب وما تلاها مباشرة ، وعندما كانت إمكانيات السفر إلى أوروبا مقيدة ، واستيراد السلع محظورا علنا ، فإن "سلفاتور شيكوريل" بك صاحب محلات "شيكوريل" كان ينفخ بأنه يجرى بأحدث وأفخر أزياء مصمى أوروبا - وكان كثيرون منهم قد نقلوا نشاطهم من باريس بعد أن احتلها الألمان ، إلى "بورديو" و"مدريد" - وإن الثلاثى النسائى القوى فى القاهرة وقتها : الملكة "نازلى" (الملكة الأم) ، واللىدى "كيلرن" (زوجة السفير البريطانى) ، والسيدة "زينب الوكيل" (زوجة "مصطفى النحاس") ، يلبسن جميعا مما يستورده لهن ، وكذلك تفعل كثيرات من أميرات البيت المالك وسيدات "المجتمع الراقى" .

ومن الغريب أن ملتنى الإجازات المفضل فى سنوات الحرب كان فندق "الملك داود" فى القدس . وفى احتفال ليلة رأس السنة - ١٩٤٥ - كانت أهم المواد فى قاعة الاحتفال محجوزة لشخصيات مصرية جاءت لتتري بداية العام الجديد فى القدس ا





وفى سنوات الحرب العالمية الثانية ، كان النشاط اليهودى الصهيونى فى مصر على أشده . فالعائلات اليهودية الكبرى أعادت إقامة المعسكرات لليهود الهاربين من ألمانيا الهتلرية ومن المواقع التى انتشرت فيها الحرب فى أوروبا . ومرة أخرى - كما حدث فى الحرب العالمية الأولى - كانت مهمة المعسكرات تتخطى مسألة الإيواء المؤقت . وإنما أصبحت هذه المعسكرات مراكز تأهيل لتعليم اللغة العبرية والتاريخ اليهودى ، والتدريب العسكرى . ومرة أخرى جرى تجنيد اليهود فى كتائب اتسعت بانضمام وحدات يهودية أخرى قدمت من أوروبا إليها وتشكل منها الفيلق اليهودى الذى اتخذ من منطقة برج العرب فى الصحراء الغربية مقرا لإقامته ، والذى أشرف على تدريبه الكولونيل "أورد وينجيت" ، وهو أكبر الخبراء البريطانيين فى الحرب غير التقليدية ، وبينها حرب المدن وحرب العصابات .

ولما كانت مصر بظروف الحرب العالمية الثانية قد أصبحت مرة أخرى ميدانا من أهم ميادين الصراع فإن الادماء بالعمل التطوعى للترفيه عن جنود الحلفاء أصبح واجهة مفضلة للنشاط اليهودى والصهيونى فى مصر .

كانت هناك سيدات من الجالية البريطانية تقمن بهذا النوع من النشاط ، لكن العدد كان محدودا . وتطوعت بعض سيدات المجتمع المصرى أيضا ، لكن عملية التطوع ظلت محصورة بسبب التقاليد . وأما بالنسبة لسيدات المجتمع اليهودى فلم تكن هناك عوائق من أى نوع .

وفى داخل هذا الإطار فإن النشاط الاجتماعى اليهودى (والصهيونى) المتصل بأحوال الحرب بلغ حدودا ونفودا من الصعب تصورها . ومن ذلك مثلا أن أميرة مصرية (وهى "نازلى حليم") أعطت مزرعتها على طريق المنصورة لتكون معسكرا لتدريب شباب "هاشمير هاشمير" وهى حركة حراس المستعمرات الاستيطانية فى فلسطين .



كانت هناك فترة انقطاع واحدة فى هذا الجهد المتسع يوميا ، وهى الفترة التى اقتربت فيها جيوش "روميل" من العلمين ، وبدا أن جيوش الحلفاء عاجزة عن إيقافها ، وبالتالي هرع اليهود هاربين إلى السودان ، ومنه إلى جنوب أفريقيا ، قبل أن تحصرهم جيوش الفيسالق الألمانية الزاحفة . وفى هذه الفترة باع أغنياء اليهود إلى بعض المصريين من أصدقائهم عقارات

وأملًا كما "بسر التراب" كما يقولون . وعلى سبيل المثال فإن الوكالة اليهودية قدرت فيما بعد أن تمتلك تساوى أربعين مليون جنيه استرليني - بعملة ذلك الوقت - بيعت إلى باشوات مصريين بثمن لا يزيد إجمالًا عن مائتي ألف جنيه .

لكن حملة "روميل" على مصر فشلت ، وعاد اليهود الذين هربوا إلى القاهرة أكثر شوقًا وأكثر رغبة في العمل مما كانوا . وكان هناك من باشوات مصر من كانوا على استعداد لرد الجميل وإن لم يكن رد العقارات والأموال !

وهكذا فإنه في سنة ١٩٤٣ أعيد إنشاء المنظمة الصهيونية في مصر تحت اسم "الاتحاد الصهيوني العام" ، وحضر اجتماعه وتحدث فيه كل من "دافيد بن جوريون" و"إسحاق بن زفي" (الذي أصبح فيما بعد رئيسًا لدولة إسرائيل) .

وفي نفس الفترة فإن الماجور "أبا إيبان" أصبح أبرز المتحدثين باسم الجيش البريطاني في القاهرة . وكان "أبا إيبان" (الذي أصبح فيما بعد وزيرًا لخارجية إسرائيل) مستشرقًا عربيًا ، وقد عكف في ذلك الوقت - إلى جانب عمله في الجيش البريطاني - على ترجمة أعمال عدد من الكتاب المصريين الكبار إلى الإنجليزية ، وكان بينهم "توفيق الحكيم" الذي ترجم له "إيبان" كتابين هما : "عودة الروح" و"شهرزاد" .

وزاد على ذلك كله أن الملك "فاروق" كان قد فعل ما فعله والده الملك "فؤاد" من قبل ، فاختار لنفسه عشيقته اليهودية هي "إيرين كيونيللي" .

ومن المفارقات أنه في الوقت الذي كان زعماء الطائفة اليهودية في مصر يستولون فيه على مساحة كبيرة من النفوذ في الطبقة العليا المصرية ، كان شبابهم يستولون بالكامل على الحركة الشيوعية في مصر . وفي ذلك الوقت ظهرت في مصر ثلاث حركات شيوعية فاعلة ونشطة :

- كانت هناك حركة "حدثو" (حركة ديمقراطية للتحرر الوطنى) وكان يتزعمها يهودى من أصول راسمالية هو "هنرى كوريبيل" .
- وكانت هناك حركة "إسكرا" ("الشرارة" على اسم جريدة "لينين" الشهيرة) وقد تزعمها "هيلل شوارتز" (يهودى من أصل ألماني) .
- وكانت هناك حركة "طلبة الطبقة العاملة" وكان يتزعمها "ريمون دويك" (يهودى مصرى) .

وهكذا فقد بدأ أن اليهود (باتجاهات صهيونية أو غير صهيونية) يملكون مواقع مهمة للتأثير على قمة المجتمع المصرى ، وعند قاعدته في الطبقة العاملة . وفى المسافة ما بين القمة والقاعدة كان هناك تداخل كبير ومؤثر فى المجتمع المصرى ، فقد برزت فى

مجالات الفن على سبيل المثال شخصيات يهودية لبعضها إسهام بارز في الحياة الثقافية والإعلامية في مصر .

وعلى سبيل المثال فإن أسرة "موصيري" أنشأت مجلة باسم "مجلة إسرائيل" كانت تصدر في ثلاث لغات في نفس الوقت : عبرية وفرنسية وعربية . وكان هناك عدد من اليهود بين مؤسسي نقابة الصحفيين المصريين .

وكان أهم شخصية في "الأهرام" - بعد رئيس تحريره - هو "حاييم إدجمان" مدير الإعلانات فيه . كما كان "إيلسى بوليتي" أهم شخصية في جريدة "المصرى" . وعند إنشاء "أخبار اليوم" سنة ١٩٤٤ كان مراسلها في لندن هو "جون كيمشى" (ابن عم "دافيد كيمشى" مسئول "الموساد" المشهور ووكيل الخارجية الإسرائيلية فيما بعد) ، كما أن مراسل الجريدة في نيويورك كان "جوزيف ليفى" الذى ظهر فيما بعد أنه هو الآخر من أبرز رجال تنظيم المخابرات التابع للوكالة اليهودية .



ومع قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وإحساس اليهود أن الوقت قد حان لإنشاء دولتهم في فلسطين ، فإن اتحاد المنظمات الصهيونية في مصر أصبح أكثر جراءة في عمله بإحساس أن الحلم الصهيونى فى سباق مع الزمن . وعقد اتحاد المنظمات الصهيونية فى مصر مؤتمرا كبيرا فى شهر فبراير سنة ١٩٤٤ فى الإسكندرية وفى بيت أحد كبار تجار القطن فيها وهو "البيبر روزانو" . وكان منظم الاجتماع هو "إيلسى بوليتي" (مدير مكتب جريدة "المصرى" فى الإسكندرية وقتئذ) ، وكان خطيب المؤتمر الرئيسى هو الدكتور "فيلكس ألتمان" الذى أصبح رئيسا للاتحاد . وكان الخطاب الافتتاحى لـ "ألتمان" إنذارا بأن "الوقت قد حان لقيام دولة اليهود فى فلسطين ، وإنهم إذا فشلوا فى تحقيقها سلما ، فإنهم سوف يحققونها حربا . ولفت ذلك نظر حكمدار بوليس الإسكندرية ، وهو يومئذ اللواء "جورج جيز" باشا ، الذى كتب إلى السفير البريطانى فى مصر اللورد "كيلرن" ، وإلى المستشار الشرقى فى السفارة - السير "التر سمات" - ولفت نظريهما إلى أن النشاط الصهيونى فى مصر "بدأ يتعدى الحدود المقبولة ، وأنه -بمن المحتمل أن - يؤدى إلى توريط اليهود المصريين فى مشكلة فلسطين ، وقد يؤدى فى نفس الوقت إلى تأثيرات ليست مطلوبة حتى من وجهة نظر الصهيونية بالنسبة لمشاعر الشعب المصرى . وأخيرا فإن هذا النشاط قد يخلق تعقيدات للحكومة البريطانية فى مصر ."

ولكن اتحاد المنظمات الصهيونية لم يكن على استعداد لوقف نشاطه ، ووصل به الأمر إلى أن تقدم فى صيف سنة ١٩٤٤ بطلب إلى رئيس الوزراء "مصطفى النحاس" باشا يطلب إليه "الاعتراف بالاتحاد كمثل للشعب اليهودى فى مصر". وكان أن طلب "النحاس" باشا إلى وكيل وزارة الداخلية - "حسن رفعت" باشا - أن يستدعى زعماء الاتحاد الصهيونى فى مصر وأن يبلغهم "أن الحكومة المصرية ترفض طلبهم ، وأكثر من ذلك فإنها قررت وقف نشاطهم".

وكان "النحاس" باشا وقتئذ مشغولا فى عملية إنشاء جامعة الدول العربية . وكان قد دعا إلى مؤتمر لرؤساء الحكومات العربية ينعقد فى قصر "أنطونىادس" بالإسكندرية للفراغ من إقرار نص ميثاق جامعة الدول العربية وتوقيعه . ومن الغريب أن رد الاتحاد الصهيونى على رفض "النحاس" باشا التصريح له بالعمل رسميا كان الترتيب مع جماعة "شتيرن" فى فلسطين لنسف قصر "أنطونىادس" يوم الاحتفال بالتوقيع .

وكان المحرك للعملية هو "جابهوتنسكى" نفسه ، وكان أهم الممولين لنشاطها رأسماليا يهوديا فى مصر هو "ليون كاسترو" (الذى أصبح بيته على نيل الجيزة فيما بعد مسكنا للرئيس "أنور السادات") .

إن محاولة نسف قصر "أنطونىادس" بمن فيه يوم توقيع ميثاق جامعة الدول العربية لم تنجح . وكان أن تحولت منظمة "شتيرن" إلى هدف آخر نجحت فى تنفيذه بالفعل ، وهو اغتيال اللورد "والتر موين" الوزير البريطانى المقيم فى الشرق الأوسط . وكان السبب فى قتله هو معارضته لمشروع هجرة مائة ألف يهودى من أوروبا إلى فلسطين .

ومن المفارقات أن اللورد "موين" قتل أمام مدخل بيت كان يستأجره سكنا له فى الزمالك ، وكان صاحب البيت هو "داود عدس" ، وهو مليونير يهودى أيضا .

ويظل هناك سؤال معلق وهو :

هل كان يهود مصر من دعاة إنشاء إسرائيل لتكون وطنيا قوميا لليهود ، وهل كان فى خيالهم أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه من علاقات مع مصر ؟

إن السؤال محير لأن الإجابة عليه بطريقة قاطعة تكاد تكون مستحيلة ، وربما كان الأقرب إلى الحقيقة هو القول بأن يهود مصر كانوا متعاطفين مع فكرة هجرة اليهود إلى فلسطين ، لكنهم كانوا يحبون حياتهم فى مصر ولا يريدون استبدالها بأى حياة أخرى ولا حتى فى الوطن الموعود . ولعل شأنهم فى ذلك كان شأن غالبية يهود أوروبا ، يهتما بمساعدة المهاجرين من اليهود ، لكنها لا تريد أن تلحق بهم فى أى مكان ، بل تفضل الحياة حيث هى .

ومن المحتمل أن بعض اليهود المصريين لم يجدوا تضاربا في السواء بين رغبتهم فى قيام دولة يهودية ، وبين حياتهم فى دولة مصرية - عربية أعطتهم مستوى من الحياة يصعب عليهم أن يتصوروه فى أى مكان على الأرض .

وعندما بدأ توجه مصر إلى هويتها العربية يظهر ، فإن معظم يهود مصر حاولوا بكل جهدهم أن يضغطوا لتقليل سرعة الحركة .

وفى ذلك الوقت كان الحاخام "ناحوم" أفندى على اتصال دائم بالملك "فاروق" ، وتكررت لقاءاته مع رئيس الديوان الملكى بالنياابة "حسن يوسف" باشا . بل إن لقاءاته تكررت مع الملك "فاروق" نفسه . وقد حاول الحاخام الأكبر فى إحدى المقابلات التى حضرها "حسن يوسف" باشا - وكتب تقريرا عنها أودع فى سجلات قصر عابدين - أن يتنقح الملك بأن القدس حق لليهود .. "المسيحيون تركوا القدس وذهبوا إلى روما ، والمسلمون غيروا توجههم إليها وتحولوا إلى مكة ، وأما اليهود فقد بقوا طول العمر يبكون ضياعها" .

والغريب أنه حينما كان الحاخام الأكبر يتغيب فإن العمل على تهدئة الأمور كان ينتقل إلى عشيقات الملك اليهوديات ، سواء فى ذلك "إيرين كيونيللى" أو واحدة أخرى علا نجمها وتنوعت صلاتها فى ذلك الوقت وهى "بولندا هامر" التى أوقعت فى نفس الفترة سياسيا عربيا بارزا فى غرامها ، وهو السيد "تقى الدين الصلح" وكان يومها مساعدا للأمين العام لجامعة الدول العربية (ولم يكن قد تزوج بعد) .

وتولت عائلتنا "موصيرى" و"قطاوى" ترتيب لقاءات مع ساسة مصريين شارك فيها "دافيد بن جورىون" (أول رئيس لوزراء إسرائيل) بنفسه ، وكذلك شارك فيها "موشى شرتوك" (أول وزير لخارجية إسرائيل) ، و"ناحوم جولدمان" (رئيس المجلس الصهيونى العالمى) ، و"إياهو ساسون" (المستشار الشرقى للوكالة اليهودية) .

وفى نفس الوقت كان الدكتور "ماجنس" مدير الجامعة العبرية يقود دعوة موجهة إلى مجتمع المفكرين والأدباء المصريين تدعوهم إلى المشاركة وبحث مستقبل مجتمع البحر الأبيض ، وتوافق ذلك مع استعداد أسرة "هرارى" لإصدار مجلة "الكاتب المصرى" التى رأس تحريرها الدكتور "طه حسين" . ومن السخف أن يزعم أحد - كما يحلو للبعض الآن - أن الدكتور "طه حسين" كان يعمل لليهود . وإنما الصحيح - وهذا هو السياق التاريخى للحوادث - أن عميد الأدب العربى كان شريكا فى الاعتقاد - سواء كان الخلاف أو الاتفاق معه - بانتماء مصر إلى مجتمع البحر الأبيض ، وتلك هى رسالته فى كتابه الهام عن مستقبل الثقافة المصرية . ويمكن أن يقال أيضا - وللانصاف - إن أسرة "هرارى" نفسها لم تكن متأمرة فى تصورها بأن مصر لا علاقة لها بمشكلة فلسطين لأن انتماءها الغالب هو إلى ثقافة البحر الأبيض المتوسط .

وفى نفس الوقت أيضا فإن الأحزاب الشيوعية الثلاثة تحت قيادة زعمائها ، وكلهم من اليهود ، كانت تسعى لتعطيل الاندفاع من موقف آخر طبقى ، وكانت حجتها أن الصراع هو فى حقيقته بين الرأسمالية العربية والرأسمالية اليهودية ، وأن ضحاياه هم المهاجرون العائدون من التيه فى فلسطين ومعهم الطبقة العاملة فى مصر ، وكلاهما - المهاجرون اليهود والعمال المصريون - يجب أن يتحالفوا معا ضد الرأسمالية المحلية المرتبطة بالرأسمالية العالمية .

وكانت المشكلة أعقد من هذا كله سواء فى ذلك القصور ، أو الشركات ، أو الجامعات، أو دور النشر ، أو الخلايا الشيوعية !

فرانكلين روزفلت

“ أمريكا هي إسرائيل الموعودة وليست
فلسطين ”

(الصيحة بين موجات الهجرة اليهودية الأولى إلى
العالم الجديد)

من المصادفات التاريخية اللافتة للنظر أنه في الوقت الذي ظهر فيه دور مصر في العالم العربي - وبدأت هي نفسها تدرك هويتها ودورها معه - كانت الولايات المتحدة الأمريكية تدخل إلى تجربة مماثلة . فمن خلال تجربة الحرب العالمية الثانية أدركت الولايات المتحدة وقبلت أن تقوم بدور في العالم تردت طويلا في قبول مسؤولياته متوهمة أن مستقبلها مكفول وراء عازل المحيط الأطلنطي من الشرق والمحيط الهادى من الغرب .

وفى حين أن يهود مصر كانوا يحاولون تعويق وصول مصر لإدراك هويتها ودورها ، فإن يهود الولايات المتحدة كان لهم دور مماثل فى تأثيره ، وإن اختلف اتجاه حركته .

كانت الحركة الصهيونية منذ البداية تركز بشدة على أوروبا لأسباب متعددة ، منها أن أوروبا كانت فى ذلك العصر مركز القرار الدولى . ثم إن أفكارها المتمثلة أساسا فى الثورة الفرنسية بكل ما قالته عن المساواة بصرف النظر عن الدين والعرق واللون ، كانت من الأفكار المؤثرة بشكل ما فى الفكر الصهيونى . ثم أضيف إلى ذلك دور “نابليون” وورقته اليهودية ، ولحق بذلك دور بريطانيا فى الشرق الأوسط الذى تبنى ورقة “نابليون” اليهودية ، ثم إن بريطانيا أصبحت الدولة الحامية لليهود ، وهى الراعية لمشروع دولتهم فى فلسطين ، الأمر الذى عبر عنه “وعد بلفور” الذى أصبح أساسا عمليا لفكرة إقامة دولة يهودية فى فلسطين .

فى تلك الحقب كانت الولايات المتحدة الأمريكية تبدو بعيدة ، وكانت هناك أسباب موضوعية تجعل يهودها بعيدين بمسافة ما عما كان يجرى فى أوروبا . وكانت الأسباب الموضوعية لهذه الحالة تتمثل أساسا فيما يلى :

١ - إن عناصر الهجرة الأوروبية الأولى إلى أمريكا كانت أصلا من العناصر الأنجلو - ساكسونية ، ودافعها إلى الهجرة - ضمن أسباب أخرى اقتصادية - دافع دينى متشدد متأثر بالإنجيل وبما فيه من مسئولية اليهود عن صلب "المسيح" . وفى الحقيقة فإن كراهية اليهود كانت جزءا من ثقافة هؤلاء المهاجرين الأول إلى العالم الجديد . وكانت موجات الهجرة الأولى تلك متجهة إلى الجنوب الأمريكى الذى أصبح بالفعل معقلا للأنجلو ساكسونية .

٢ - إن موجات هجرة يهودية لحقت بالمهاجرين الأنجلو - ساكسون الأول . والحاصل أن موجات الهجرتين الثانية والثالثة إلى أمريكا كانت فى معظمها من شرق أوروبا ، واليهود عنصر رئيسى فيها . وكان وجود اليهود من هذه الموجات مركزا فى المدن وعلى السواحل . فاليهود بتجربتهم التاريخية قريبون من مجالات التجارة والمال ، وهذه موقعها المدن والموانئ وليس العمق أو غزو البرارى البعيدة والخطرة فى ذلك الوقت باحتمالات الصدام مع سكان القارة القدامى من الهنود الحمر .

٣ - وعندما بدأت موجات الهجرة الكثيفة من شرق أوروبا فى القرن التاسع عشر فإن أعدادا كبيرة من اليهود المهاجرين من الشرق اعتبروا أن "الأرض الموعودة" هى أمريكا وليست فلسطين . وهكذا فإن الحركة الصهيونية ، وبالذات على أيام "هيرتزل" ، نزعته إلى الشك فى أن أمريكا مركز منافس أكثر منه مركزا مساعدا على مشروعها الصهيونى . وكان قلق المنظمات الصهيونية من البديل الأمريكى شديدا ، لأن اليهود الذين سبقوا بالهجرة إلى أمريكا بدؤوا يكتبون إلى عائلاتهم و إلى أصدقائهم يدعونهم إلى القارة الجديدة وينصحونهم بأن أمريكا هى فى الواقع "إسرائيل الموعودة" . وكان ذلك يأخذ من المشروع الصهيونى ولا يعطيه . فاليهود الذين ذهبوا إلى أمريكا تخلوا تماما عن فكرة العودة إلى فلسطين وراحوا يدعون غيرهم إلى التخلي أيضا .

٤ - وبطبيعة الحيوية التى اكتسبتها حركة المجتمع الأمريكى - مجتمع جديد تخلص من عقد التاريخ - والفرص فيه مفتوحة والامتيازات الطبقية لم تعرف طريقها إليه بعد - فإن أعدادا كبيرة من اليهود المهاجرين من شرق أوروبا وراحوا يبرزون على سطح مجتمعات العالم الجديد خصوصا فى مجالات المال والفنون والإعلام . وكانت قوة الحراك الاجتماعى فى العالم الجديد تعطى لهؤلاء جميعا فرصا ظاهرة للتأثير لا يحتاج أصحابها كما هو الحال فى أوروبا إلى إخفاؤها أو التنصل منها أو الاعتذار عنها إذا عرفت وبانت . وكان هؤلاء اليهود الأمريكيون يطمحون إلى زيادة أعدادهم تدعيما لمواقعهم فى العالم الجديد كنوع من تعزيز

قدرتهم التنافسية إزاء عناصر عرقية ودينية وطائفية أخرى وجدت لنفسها مكانا فى قارة "الفرص المفتوحة".

٥ - وبعد فترة من المنافسة بين المركز الصهيونى الأوروبى الداعى إلى الهجرة لفلسطين وبين المركز اليهودى الجديد فى أمريكا المطالب بالهجرة عبر المحيط ، فإن الحركة الصهيونية فى أوروبا أدركت أن عليها أن تتنازل أو تدخل فى صدام يهودى - يهودى . ومع الاضطرابات التى سادت أوروبا فى أعقاب حرب السبعين ، فإن الحركة الصهيونية الأوروبية بدأت تدرك أن المركز اليهودى الجديد فى أمريكا يمكن أن يكون قسوة دعم لها ، وليس مجرد منافس يعترض خططها ، خصوصا مع إدراك القيادة الصهيونية فى أوروبا إلى حقيقة أن هناك قدرة استيعابية محدودة لفلسطين ، ثم إنه ليس من مصلحة المهاجرين اليهود حصرهم جميعا فى الشرق . وكان مما ساعد على سد الجسور بين يهود أمريكا وبين الحركة الصهيونية فى أوروبا ظهور عدد من الشخصيات اليهودية المؤثرة فى المجتمع الأمريكى ، وهى شخصيات تستطيع بعقيدتها الدينية وولائها العرقى أن تصبح مددا لليهود فى دولة تقوى اقتصاديا وسياسيا وعسكريا بسرعة كبيرة . وهكذا فإنه فى سنوات ما بين الحربين أصبح يهود أمريكا قوة دعم ماضى ومعنوى مفيد للحركة الصهيونية الأوروبية . لكن الأمر حتى ذلك الوقت لم يتعد كتابة المقالات وإقامة الحفلات وجمع التبرعات .

وكان أقصى ما حاولته الجهود الصهيونية للتأثير على الرأى العام فى أمريكا هو محاولة تصوير حلم إسرائيل وكأنه تكرار للمغامرة الأمريكية الكبرى : هجرة من الاضطهاد - حركة استيطان فى أرض جديدة - خطر عدائى من سكان محليين لا يحسنون استغلال الأرض التى يعيشون عليها ، ويمنعون الأقدار والأقوى من تحقيق حلم طموح ومشروع .

٦ - ثم كانت نقطة التحول الكبرى المتمثلة فى الحرب العالمية الثانية . فقد تقدمت الولايات المتحدة إلى المعركة ضد "هتلر" وهو العدو الرئيسى لليهود . وقد نجحت بريطانيا فى تجنيد وتوجيه عداة اليهود الأمريكيين لـ "هتلر" للضغط على المجتمع الأمريكى ليرضى بالحرب مرة أخرى فى أوروبا . وبالطبع فإن إنجلترا استخدمت يهود أوروبا والحركة الصهيونية القوية فيها كجسر اتصال مع يهود أمريكا . وأدى ذلك بدوره إلى لقاء حميم بين المركزين الأوروبى والأمريكى فى الحركة اليهودية والصهيونية .

٧ - وأكثر من ذلك ، فإن دخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى ساحة الحرب العالمية الثانية - وقيادة معسكر الحلفاء فيها بواقع الأمور - أتى بالولايات المتحدة إلى قلب الشرق الأوسط وهو من أهم وأخطر ميادين الحرب وساحاتها العسكرية والسياسية . وفى التفكير الأمريكى لعالم ما بعد الحرب - حتى مع استمرار معاركها - فإن الولايات المتحدة بدأت

محاولة لتعريف وتوصيف مصالحتها في هذه المنطقة الغريبة عنها . وأظهرت الدراسات - وفقا لما تقول به الوثائق الأمريكية - حقيقتين حول السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط .

أولاهما - أن المنطقة سوف تصبح في مستقبل قريب جدا أهم منابع النفط في وقت تتضاءل فيه الموارد الأمريكية نسبيا وترتفع تكاليف استغلالها .

وثانيتها - أن المنطقة هي قلب العالم الإستراتيجي بعد الحرب ، وبالتالي فهي مكان يتحتم على الولايات المتحدة أن ترتب نفسها لوجود طويل فيه ، كما أن عليها أن تخلق أسبابا وظروفا ملائمة لهذا الوجود الطويل على كل المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية .

٨ - ومع إدراك السياسة الأمريكية بأن مصالحتها الغالبة مع العرب حيث مواطن البترول فإن تتابع الحوادث على مسارح العمليات في الشرق الأوسط وضع بذورا وجدت من يرعاها فيما بعد . ذلك أن تقدم الفيلق الألماني بقيادة المارشال "روميل" في الصحراء الغربية - سنة ١٩٤٢ - حتى العلمين ، واستعداده بعد ذلك لاختراق دلتا النيل إلى قناة السويس ثم إلى فلسطين ، أحدث قلقا هائلا بين اليهود في العالم . فوصول جيوش "هتلر" إلى فلسطين كان كفيلا بتشتيت قرابة ربع مليون يهودي هاجروا إليها واستوطنوا فيها .

كانت أمريكا قد شاركت في الحرب في ديسمبر ١٩٤١ . ومع تقدم معركة العلمين ، ومع الخوف من تقدم "روميل" إلى فلسطين ، فقد بدأت صيحة يهود العالم - متوافقة مع إلحاح إنجلترا وبقية الحلفاء الأوروبيين - بضرورة العمل على وقف زحف "روميل" فورا نحو قناة السويس وفلسطين . وهكذا فإن أول ظهور للدبابات الأمريكية كان على مسرح الشرق الأوسط مشاركة في معركة العلمين . كما أن السلاح الأمريكي وصل إلى الفيلق اليهودي الذي توجه بسرعة إلى فلسطين . ثم إن الأسلحة الصغيرة الأمريكية بدأت توزع على المستوطنين في المستعمرات حتى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم إذا وصل الغزاة الألمان إلى أسوار مستعمراتهم في فلسطين .



كان واضحا في ذلك الوقت أمام الحركة الصهيونية وغيرها ممن تعنيهم موازين القوى في العالم ، أن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تخرج من الحرب العالمية الثانية متريعة على قمة العالم سواء من الناحية الاقتصادية أو العسكرية ، أو التأثير الدولي الواسع بما في

ذلك سلطة رسم خرائط ما بعد الحرب . وكان على الحركة الصهيونية أن ترتب نفسها لهذه الحقيقة الجديدة الحاكمة في عالم متغير . وكانت وسيلتها التي طرحت نفسها – تلقائيا ومنطقيا – هي أن يكون يهود أمريكا هم الجسر الذي يعبر عليه مشروع إقامة الوطن اليهودي في فلسطين من أحضان أوروبا إلى حضن أمريكا .

ومن الواضح أن يهود أمريكا أصبحوا على استعداد لأسباب كثيرة :

• بينما بداية معرفة تبلورت لديهم بما حدث لليهود في ألمانيا ثم في أوروبا التي خضع معظمها للاحتلال النازي سنوات الحرب . وكانت المعلومات في هذا الشأن متوفرة من قبل الحرب عن طريق موجة الهجرة في الثلاثينات ، وقد حملت إلى الشواطئ الأمريكية يهودا من طراز "ألبرت آينشتين" وحتى طراز "هنري كيسنجر" . ثم لحق بذلك ما تسرب من معلومات عما كان يجري وراء دخان الحرب .

• ومن نتيجة ذلك أنه تولد لدى يهود الولايات المتحدة إحساس بنوع ما من عقدة الذنب ، وظنوا أن في استطاعتهم التعويض عنه بدمج شبه كامل بين الحركة الصهيونية في أوروبا وبين نظيرتها الأمريكية التي كانت قوتها تنتمى .

• ولم تكن الحركة الصهيونية في أوروبا تريد من يهود أمريكا مجرد حفلات تجمع فيها التبرعات ، وإنما كانت تريد منهم أن يحملوا قسوة الولايات المتحدة أو الجزء الأكبر منها وراء المشروع الإسرائيلي ، وذلك بالتأييد السياسي والدعم العملي اقتصاديا كان أو عسكريا .

• وكانت أهم مقولات الحركة الصهيونية الأوروبية لنظيرتها الأمريكية في تحديد الواجبات المستقبلية هي القول بأن "يهود أوروبا استطاعوا الحصول على الوعد بالدولة – وعد بلفور – وقد أوشكوا على تحقيق قيام الدولة بمقتضاه ، وعلى يهود أمريكا أن يستكملوا الطريق بتحقيق هدفين تحددنا بوضوح ، وهما :

١ - تأكيد وتثبيت قيام الدولة .

٢ - تحقيق اعتراف العرب بقيامها باعتبار أن ذلك هو الضمان الشرعي الوحيد لبقائها . فمن الممكن للطرف الأقوى أن يفرض على طرف أضعف منه أمرا واقعا يريده، لكن ذلك لا يحق لهذا المراد شرعيته ، وإنما تستقر الشرعية حين يقدم الضعيف اعترافه بالأمر الواقع حتى وإن كان مفروضا عليه .



كان اجتماع "بلتيمور" هو الموعد الذى التقت فيه كل التنظيمات الصهيونية فى أوروبا وفى أمريكا . إن "بلتيمور" فندق صغير فى نيويورك قدر له فيما بين ٩ - ١١ مايو سنة ١٩٤٢ أن يشهد امتزاج الصهيونية الأوروبية مع الصهيونية الأمريكية لتكون من الاثنتين قوة واحدة وراء مشروع الدولة اليهودية فى فلسطين . ثم أن يكون هذا المشروع تحت رعاية وحماية القوة الجديدة البازغة فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية .

كان لقاء الحركة اليهودية (الصهيونية) الأوروبية مع الحركة اليهودية الأمريكية - (التي انتقلت إليها العدوى الصهيونية بسرعة) - لقاء شديد الخطورة فى تاريخ اليهود وإسرائيل عموما . فقد كانت لكل من هاتين الحركتين صفاتها وخصائصها :

• فاليهودية (الصهيونية) الأوروبية كانت بالدرجة الأولى نخبا مثقفة اشتغلت طويلا بالفلسفة ، وأطالت التفكير فى التاريخ وانتقت منه ما شاءت ، وكتبت مذكرات بأرائها وألفت كتبها ، كما أنها كانت تضم مجموعات من كبار الرأسماليين الذين يفضلون العمل بهدوء ومن وراء الستار . وكان معظمهم من رجال البنوك الذين يفضلون أن يكون تأثيرهم بعيدا عن الأضواء . وكانت صلة الفريقتين (المثقفون والرأسماليون) بالسياسة صلة بالهمس وبالطرق غير المباشرة فى معظم الأحيان ، وباتصالات خفية مع رؤساء الوزارات فى إنجلترا، والسلطين فى إستانبول أو القاهرة .

• وأما اليهودية (الصهيونية) الأمريكية ، فإنها كانت من نوع آخر . كان توجهها عمليا لا يتوقف كثيرا أمام النظريات . وكانت منشئة أكثر منها متفلسفة ، وكانت قادرة على التأثير الجماهيرى المباشر عن طريق التصاقها بمجالات الفنون والإعلام والنشر . وفوق ذلك فإن المجتمع الأمريكى أعطاهما الفرصة لتتصرف دون عقد . وقد لاحظ "بن جوريون" نفسه هذا الاختلاف بين يهود أوروبا ويهود أمريكا ، وعبر عنه بقوله "إن اليهودى الأوروبى تعود أن يكتفم مشاعره إذا أحس بالتمييز ضده ، وعلى عكس ذلك فإن اليهودى فى أمريكا مستعد لأن يصرخ بأعلى صوت إذا أحس بشبهة تمييز ولو من بعيد".



وشاركت فى مؤتمر "بلتيمور" ستمائة شخصية من أوروبا وأمريكا . وحضر "حايم وايزمان" و"دافيد بن جوريون" و"ناحوم جولدمان" . وكان عليهم أن يعطوا لليهود الأمريكيين فكرة كاملة عما تحقق فى المشروع الصهيونى منذ بدايته وحتى الآن . وحضر من اليهود

الأمريكيين عدد كبير من الرجال البارزين في الحياة العامة في الولايات المتحدة ، وبينهم "ليون جيلمان" و"لويس ليبسكى" و"إسرائيل جولدستاين" والحاخام "أباهيل سيلفسر" وغيرهم. ثم اتخذ المؤتمر مجموعة قرارات أعلنها وسط حملة إعلامية وسياسية كثيفة .

كان إعلان "بليتيمور" عملية تأكيد لما حققته الحركة الصهيونية في أوروبا حتى الآن من الهجرة إلى الاستيطان إلى وعد بلفور إلى وضع قوائم بناء مشروع الدولة فعلا في الفترة اللاحقة وحتى قيام الحرب العالمية الثانية . وهنا لم ينس المؤتمر أن يشيد بجهد الفلاليق اليهودية في ميادين القتال مما يعطى للدولة اليهودية المنتظرة حقا لا ينازع في صياغة عالم ما بعد الحرب .

وكان هذا حديث الماضي . وانتقل بيان "بليتيمور" بعده إلى حديث المستقبل ، فبدأ في المادة الثامنة منه بإعلان مؤثر يقول "إن هناك نظاما عالميا جديدا سوف ينشأ بعد انتهاء هذه الحرب . وفي ظل هذا النظام العالمي الجديد فإن الصلة بين الشعب اليهودي وبين أرضه في فلسطين لا بد أن تتأكد وتحقق ذاتها بقيام دولة إسرائيل لتعطي اليهود حقوقهم التي هي مطلب شرعى وتاريخى لهم بعد ألفى سنة من الغياب في التيه . ثم مضى بيان المؤتمر يحدد ثلاثة أهداف للمستقبل القريب يتحمل مسؤوليتها يهود أمريكا أكثر من غيرهم :

١ - فتح أبواب الهجرة في فلسطين أمام اليهود دون أى قيود يضعها طرف محلى أو دولى .

٢ - ضرورة مساعدة المجتمع الصهيونى في إنشاء الدولة ، وذلك عن طريق مساعدات مادية وسياسية وعسكرية كافية لتحقيق هذا المطلب .

٣ - اعتبار الدولة اليهودية المنتظرة جزءا من بناء العالم الديمقراطى الجديد الذى ستكون قيادته دون منازع للولايات المتحدة الأمريكية .

وكانت هناك أصوات يهودية ارتفعت بالاعتراض على قرارات المؤتمر ، وتخوفها من احتمال أن يؤدى برنامج "بليتيمور" إلى إدخال يهود أمريكا فى مشاكل كبيرة بعد الحرب . بما فى ذلك ما يبدو من دلائل تشير إلى وجود حركة قومية عربية فى المنطقة سوف تتصادم يقينا مع مشروع الدولة الجديدة . وهذا من شأنه أن يزعج يهود فلسطين ويهود العالم وراهم فى حرب ممتدة لأن أى ادعاء بالعودة بعد ألفى سنة من الغياب يفرض على العائدين - أرادوا ذلك أو ترددوا دونه - أن يزهوا و"يكنسوا" حيزا يتسع لهم فى منطقة ملأها التاريخ بأقوام جدد عاشوا فيها وازدهروا إليها وأصبحوا كل نسجها الوطنى .

لكن أصوات التحفظ والاعتراض ضاعت فى الهواء ، وأقرت معظم التجمعات اليهودية فى الولايات المتحدة قرارات مؤتمـر "بـلـتـيمـور" ، وخرجت نشيطة تـبـنـهاـ وتعمل على تحقيقها .



وكان الرئيس الأمريكى "فرانكلين ديـلانـو رـوزـفـلـت" على وشك أن يرشح نفسه للرئاسة لمرّة رابعة ، وهو أمر غير مسبوق فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية . وكان منافسه الجمهورى فى هذه الانتخابات "ويندل ويلكى" صاحب نظرية شهيرة لخصها فى كتاب أصدره فى ذلك الوقت بعنوان "عالم واحد" ، مؤداها "أن العالم خارج بعد تجربة الحرب العالمية الثانية إلى قرية عالمية واحدة" . وكانت دعوة "ويلكى" تلقى استجابة . والحرب ضد "هتلر" على وشك أن تنتهى بانتصار الحلفاء . وكان "روزفلت" فى حاجة إلى كل الأصوات وإلى كل أدوات التأثير وإلى كل الأموال اللازمة لدعم حملته الانتخابية .

وتوجه "روزفلت" يطلب مساعدة عدد من الشخصيات اليهودية بينهم "ستيفن وايز" (وهو حاخام شهين) ، و"فيلكس فرانكفورت" (وهو رئيس المحكمة الدستورية العليا) ، و"برنارد باروخ" (وهو أقرب المستشارين إليه) ، و"هنرى مورجنتاؤ" (وهو وزير خزانته) . وربما كانت تلك أول مرة فى التاريخ يمارس فيها اليهود دورا منظما فى معركة انتخابات لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية .

ويمكن أن يقال إن "روزفلت" كان واقعا تحت تأثيرين متناقضين :

- دينه الانتخابى لقوة اليهود مائل أمامه ، من ناحية .
 - ومن ناحية أخرى فإن خبراء وزارة الخارجية ، مضافا إليهم مجموعة من أصحاب شركات البترول ، يلفتون نظره إلى أهمية المصالح الإستراتيجية والبتروولية للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط ، وكلها واقعة فى بلاد عربية .
- وبدأ "روزفلت" يحاول أن يجد لنفسه خطا وسطا ، وكان ذلك صعبا لأن الدين الانتخابى لليهود لم يكن قاصرا على رئيس الولايات المتحدة ، وإنما امتد تأثيره إلى كثيرين من أعضاء الكونجرس . وكانت تلك نشأة ما عرف باسم "اللوبي الصهيونى"^(٢)

(٢) كلمة "لوبي" (lobby) تعنى مداخل القصور أو الفنادق الكبرى وممراتها ، وهى بذلك ترمز إلى وكلاء ووسطاء المصالح التى تتعقب الساسة عند دخولهم أو خروجهم من الاجتماعات لتنفرد بهم دقيقة أو دقيقتين . تهمس إليهم بالكلمات أو بالوعود إذا ما سايروا وساعدوا .

وكانت معركته الأولى هى فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية لكى تقوم "دولة إسرائيل" !

وأصبح اللبى الصهيونى فى الولايات المتحدة ظاهرة غريبة حتى بين جماعات الضغط التى عرفتھا الحياة السياسية الأمريكية .

كانت هناك من قبل فى الولايات المتحدة جماعات ضغط تنتمى إلى أصول أوروبية من حيث جاء المهاجرون إلى العالم الجديد وحاولوا أن يحافظوا على شىء من الهوية والصلة بأعراقهم القديمة . كانت هناك مجموعة الضغط الأيرلندية ومعقلها ولاية "ماساشوسيتس" ، ومجموعة الضغط الإيطالية ومعقلها ولاية "كاليفورنيا" .. إلى آخره .

لكن مجموعة الضغط الصهيونية كانت كيانا مختلفا ، فهو يمثل بلدا لم يصل منه مهاجر إلى أمريكا ، ولن يعود منه مهاجر إلى الشرق الأوسط ، والكل لا يعرف لغته ، وحتى أجداد الأجداد من المهاجرين اليهود لم يروه بأعينهم ، ولا يتذكرون منه أو عنه شيئا !

مصطفى النحاس

“ قل للنحاس باشا إننى لم أتحدث مطلقا عن
دولة يهودية فى فلسطين ”

(تعليمات من وزير الخارجية الأمريكى إلى وزيره
المفوض فى القاهرة)

كانت المعركة الأولى التى خاضتها الجماعات اليهودية الصهيونية فى الولايات المتحدة
هى معركة فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية ، وإلغاء الحدود التى وضعتها السياسة
البريطانية فى ظروف خطر الحرب العالمية ، ثم وقوع هذا الخطر فعلا . وكانت السياسة
الرسمية الأمريكية تتفهم الدواعى البريطانية إلى وضع هذه الحدود ، لكن الجماعات اليهودية
الصهيونية لم تكن على استعداد لتفويت الفرصة السانحة بصرف النظر عما تراه السياسة
الأمريكية من اعتبارات . وفى واقع الأمر فإنه لم يكن هناك خلاف كبير على الهدف ،
ولكن الخلاف كان على الأسلوب بما فى ذلك ملاءمة التوقيت . وهكذا بدت خطأ السياسة
الأمريكية مرتبكة ، ويظهر ذلك أكثر ما يظهر من دراسة لبعض وثائق البيت الأبيض ووزارة
الخارجية الأمريكية سنة ١٩٤٤ :

• وثيقة رقم ١١/٢٣٧٣ ن ٨٦٧

مذكرة من أدولف بيرل (مساعد وزير الخارجية الأمريكى)

التاريخ : ٢٨ يناير ١٩٤٤

عزيزى الوزير ،

أرفق لكم مع هذه المذكرة نص مشروع القرارين رقمى ٤١٨ و ٤١٩ المعروضين على مجلس الشيوخ ومجلس النواب ، وهما بنفس الصيغة :

”الكونجرس قرر :

الطلب إلى حكومة الولايات المتحدة بأن تبذل كل مساعيها الحميدة وأن تقوم بكافة الخطوات الضرورية لفتح أبواب هجرة اليهود إلى فلسطين ، وأن يكون لهم الحق فى استعمار هذه البلاد وإنشاء دولة يهودية حرة ديمقراطية فيها .“

إن زعيم الأغلبية فى مجلس النواب جون ماكورمك وكذلك زعيم الأقلية جوزيف مارتن فى نفس المجلس اتصلا بى تليفونيا وأبلغانى بهذا المشروع ، وطلبا تقديمه لك .

إمضاء

أدولف بيرل

● وثيقة رقم ٠١/٢١٨٧ ن ٨٦٧

مذكرة عن حديث بين مساعد وزير الخارجية أدولف بيرل والوزير المفوض البريطانى السير رونالد كامبل .^(٣)

التاريخ : ٣١ يناير ١٩٤٤

جاء رونالد كامبل ليرانى ويتحدث معى فى شأن قرار الكونجرس بفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين وإقامة دولة يهودية فى هذا البلد . وقد بدأ كلامه معى بقوله إن الحكومة البريطانية لا تعود أن تعلق على عمل السلطة التشريعية الأمريكية ، ولكنه يريد أن يلفت نظرنا إلى أن الموضوع الذى تتعرض له القرارات يتضمن التزامات كبيرة بينها التزامات عسكرية . إن القرار البريطانى فى هذا الشأن سوف يكون متماشيا بالطبع مع الرغبات الأمريكية . لكن ذلك يقتضى أن تكون حكومة الولايات المتحدة على علم بالأعباء المترتبة على ذلك .

إمضاء

أدولف بيرل

(٣) وزير مفوض فى السفارة البريطانية فى واشنطن وقتها ، وفيما بعد سفير لبريطانيا فى القاهرة . وكان هو السفير الذى خلف اللورد ”كيلرن“ سنة ١٩٤٥ واستمر فى القاهرة إلى ما بعد حرب فلسطين

• وثيقة رقم ٧٤٤ - ٠١/٢ ن ٨٦٧

مذكرة من وزير الحربية هنرى ستمسون إلى السناتور كونلى رئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ .

التاريخ : ٧ فبراير ١٩٤٤

عزيزى السناتور كونلى

تلقيت خطابك الذى يتضمن نص قرار الكونجرس بشأن فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية بدون حدود . وأود أن أفنت نظرك إلى أن هذا القرار ينطوى على أمور مهمة بالنسبة لوزارة الحرب . ذلك أن أى صدام بين اليهود والعرب الآن سوف يتطلب الاحتفاظ بقوات عسكرية كبيرة فى منطقة الشرق الأوسط ، فى حين أن ضرورات الحرب ضد ألمانيا تقتضى توجيه هذه القوات إلى ميادين أخرى أكثر تأثيرا على مجرى الحرب .

إمضاء

هنرى ستمسون



وبدأت بعض الدول العربية تتنبه إلى ما يجرى فى واشنطن وتستشعر آثاره عليها .
وتمضى الوقائع طبقا للوائح :

• وثيقة رقم ٢١٩٣/٠١ ن ٨٦٧

مذكرة عن مقابلة بين إدوارد ستينيوس وكيل وزارة الخارجية وكل من الوزير المفوض لمصر محمود حسن باشا والوزير المفوض للعراق على جودت .

التاريخ : ٩ فبراير ١٩٤٤

عزيزى الوزير

حضر لمقابلتى بناء على طلبهما كل من الوزير المفوض المصرى والوزير المفوض العراقى وقد دام لقاؤى معهما خمسا وعشرين دقيقة .

إن الوزير المفوض المصري بدأ الحديث بالإعراب عن قلق حكومته الشديد من قرار الكونجرس بشأن المشكلة الفلسطينية . وقد أخبرني أنه التقى بالرئيس روزفلت عدة مرات في الشهور الأخيرة وسمع منه تأكيدات عن أن كل موضوع فلسطين بما في ذلك موضوع فتح أبوابها لهجرة اليهود سوف يؤول إلى ما بعد انتهاء الحرب . لكن قرار الكونجرس الأخير يدخل عتصرا جديدا إلى الموضوع . وإن رئيس وزرائه مصطفى النحاس باشا طلب إليه الحصول منا على إيضاحات في هذا الأمر .

وقد انضم الوزير العراقي إلى زميله المصري ملحا على ضرورة تأجيل موضوع فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية للمناقشة بعد انتهاء الحرب .

ومن جانبي فقد شرحت للسيدان أن وزير الخارجية "كوردل هل" يتابع الموقف باهتمام وإننا نقدر أنهما جاءا إلينا بوجهة نظرهما .

إمضاء

إدوارد ستنتيوس

• وثيقة رقم ١٢١٨٥/٠١ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض في بغداد لوى هندرسون إلى وزير الخارجية .

بغداد : ١٤ فبراير ١٩٤٤ الساعة السابعة مساء

عزيزي الوزير

طلبني أمس رئيس الوزراء نوري (السعيد) باشا وقال لي إنه سوف يكون ممثنا لو قمنا بإبلاغ حكومتنا برقيا بالقلق الشديد من الضغط الذي تمارسه الجماعات الصهيونية على السياسة الأمريكية . وإن النفوذ الصهيوني المتنامي في الولايات المتحدة قد يحمل إلى موقع القرار الأمريكي مسئولين واقعين تحت هذا التأثير الصهيوني ، مما يؤثر على العلاقات مع العرب ، ومما يחדش المبادئ المعلنة في ميثاق الأطلنطي وفي إعلان الأمم المتحدة . إن نوري باشا أشار إلى التأثير الصهيوني على أعضاء مجلس الشيوخ البارزين ، وهو أمر بدأ في تصريحات السناتور واجنر والسناتور تافت والسناتور باركلي . وكلهم أيدوا في تصريحات تم نشرها على نطاق واسع ضرورة فتح الأبواب لهجرة اليهود إلى فلسطين . وقال نوري باشا إن

مثل هذه التصريحات سوف تخلق شعورا بالعداء ضد أمريكا ، وهو شعور قد تستغله الدعاية النازية ، وإنه سمع بنفسه من راديو برلين باللغة العربية تحريضا شديدا للعالم العربي بسبب هذه المسألة ضد الولايات المتحدة . وقال لي نوري باشا إن العرب لا يملكون من وسائل التأثير في الكونجرس ما تملكه الجماعات الصهيونية ، لكنه يأمل أن تقوم الحكومة الأمريكية بما تراه لازما لعمل شيء من التوازن .

إمضاء

لوى هندرسون

● وثيقة رقم ١١/٢٢٠٩ ن ٨٦٧

برقية من القائم بالأعمال في دمشق فاريل إلى وزير الخارجية .

دمشق : ٢٤ فبراير ١٩٤٤ الساعة الثانية بعد الظهر

استدعاني وزير الخارجية السوري إلى مكتبه وسلمني رسالة احتجاج صدر بها قرار من مجلس النواب السوري محال إليه من فارس الخوري رئيس المجلس وهو احتجاج موجه إلى الكونجرس الأمريكي . النص كما يلي :

"إن قرارات الكونجرس الأمريكي بشأن قيام دولة يهودية في فلسطين توجه ضربة مميتة إلى الحقوق العربية . وإن الدول العربية جميعها التي وضعت مواردها في خدمة الحلفاء لتحقيق النصر تشعر بالخيانة من أثر هذه القرارات التي تراها مخالفة لكل المبادئ المعلنة في ميثاق الأطلنطي . إن إعطاء ميزات لليهود على حساب العرب لا يمكن تبريره أو قبوله ، ونحن نطلب أن توضع الحقوق العربية في فلسطين موضع اعتبار قبل أي قرار ."

إن وزير الخارجية السوري الذي سلمني هذا القرار أضاف أن حكومته تشارك مجلس النواب السوري فيما أعرب عنه من مشاعر وآراء ، وإنه يأمل أن تأخذ الحكومة الأمريكية ذلك كله مأخذ الجد وتعالج الأمر باهتمام ومسئولية .



كان الجيش الأمريكي بعيدا عن تأثيرات جماعات الضغط اليهودى والصهيونى حتى ذلك الوقت ، ولم يكن فى صف العرب بالطبع ، ولكن العنصر الوحيد الذى يحكمه وقتها هو الضرورات العسكرية ، وكان الجيش الأمريكى متخوفا من فتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين - وإنما لأسبابه الخاصة - وتتواصل الوثائق :

• وثيقة رقم ٢٦٤٤ - ٠١/٢ ن ٨٦٧

مذكرة من مساعد وزير الحربية (جون ماكلوى) إلى مساعد وزير الخارجية (لونج) .

واشنطن : ٢٦ فبراير ١٩٤٤

إحافا بحديشى التليفونى معكم فإننى أرسل لكم الآن مذكرة رفعتها إلى الجنرال مارشال (رئيس هيئة أركان الحرب المشتركة) تمهيدا للقائه مع عدد من أعضاء الكونجرس .

المذكرة

إن قرارات الكونجرس بشأن فتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية غير محدودة سوف تلقى علينا مسئوليات كبيرة عند تنفيذها ، ثم إننا نلاحظ أن هذه القرارات أجرت نقلة واضحة بين ما ورد فى وعد بلفور عن إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين (National Homeland) ، وهى تتحدث الآن عن دولة يهودية فى فلسطين .

إن قرار الكونجرس بكل ما يحتويه سوف يزيد من التوتر بين العرب واليهود فى فلسطين، وكلاهما الآن يملك كميات كبيرة من الأسلحة . وقد حدثت بالفعل هجمات بالقنابل على مكاتب الهجرة اليهودية التابعة للحكومة البريطانية فى حيفا وفى القدس وفى تل أبيب . وليس من صالح الولايات المتحدة زيادة التوتر الآن. ولا بد أن نضع فى الاعتبار عدة عوامل بينها :

١ - إن الحلفاء لديهم قوات عسكرية كبيرة فى المنطقة الآن وهم يريدون نقلها إلى ميادين أخرى . وهم يسعون إلى تخفيف التزاماتهم فى هذه المنطقة وإعطاء الأولوية لميادين أخرى مثل شمال إيطاليا وعمليات أخرى .

٢ - إن قوات أمريكية مسلحة موجودة فى العالم الإسلامى كله وليس فقط فى فلسطين. وفى العالم الإسلامى حول البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا فإن

قضية فلسطين قد أصبحت لها حساسية خاصة . وهناك اضطرابات بالفعل بين
قبايل مراكش ، ومع أن هذه الاضطرابات ليست لها علاقة مباشرة بفلسطين ،
إلا أن الدعاية الألمانية قد تستغل القضية لزيادة النار اشتعالا .

٣ - إن خطوط مواصلاتنا الحيوية تجرى آمنة في كل منطقة الشرق الأوسط ، ومن
المحتمل أن تتعرض للخطر في حالة ظهور انحياز أمريكي مبكر لطالب
اليهود في فلسطين .

٤ - إن خط إمداداتنا الإستراتيجية لروسيا يمر عن طريق الخليج الفارسي وعن
طريق الشرق الأوسط . وهذه كلها أماكن يقطنها مسلمون . وقد تتعرض
إمداداتنا لمشاكل عدائية في حالة ظهور انحيازنا لليهود .

٥ - إن الشرق الأدنى منطقة مهمة كقاعدة لأي عمليات تقوم بها في أوروبا . وخط
الأنابيب من العراق إلى البحر الأبيض هو شريان حيوي مهم لا يصح تعريضه
لخطر أي قلاقل .

٦ - وأنا لا أريد أن أبالغ في المصاعب التي تواجهنا ، لكنني أعرف أننا على اتصال
بالمملكة العربية السعودية بشأن بناء خط أنابيب بترول إلى البحر الأبيض .
وأخشى أن تتعطل مفاوضاتنا مع السعوديين إذا ما ظهر انحيازنا للمشروع
الصهيوني .

أردت أن أحيطك علما بهذا ، وأنا على استعداد لإضافة أي نقط أخرى قد تراها
مناسبة .

إمضاء

جون ماكلوي



وانضم الملك "عبد العزيز آل سعود" إلى مصر وسوريا والعراق ، كما انضمت دول عربية
أخرى تعطي للموقف العربي وزنا إضافيا يحوله إلى لقاء إجماع عربي . ويستمر حديث
الوثائق :

• وثيقة رقم ١١/٢٢١٥ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض المقيم في المملكة العربية السعودية (موس) إلى
وزير الخارجية .

جدة : ٢٧ فبراير ١٩٤٤ الساعة الحادية عشرة صباحا

عزيزى الوزير

جاء إلى مقابلتى وزير المالية عبد الله السليمان وكان يحمل معه برقية تحمل أمرا تلقاه من الملك بن سعود حول موضوع فلسطين ، وقد قرأه لى على النحو التالي :

"قابل الوزير الأمريكى فى جدة وأخطره بأن الأخبار التى سمعناها أفلقتنا وسيكون لها أثر سيئ على الجميع . ونحن نعتقد أن البتت فى موضوعات تتصل بفلسطين الآن غير مطلوبة ، وسوف تشير المشاعر وتحدث البلبلة . ونطلب منه إبلاغ حكومته بأن صداقة العرب مع الولايات المتحدة لا بد أن تثبتت نفسها الآن ، وأن تقوم الحكومة الأمريكية الصديقة بإظهار حسن نواياها ."

• وثيقة رقم ١/٢٢١٧ ن ٨٦٧

برقية من القنصل العام فى بيروت (واديورث) إلى وزير الخارجية .

بيروت : ٢٨ فبراير ١٩٤٤ الساعة الثانية عشرة ظهرا

استدعانى وزير الخارجية سليم تكللا وسلمنى مذكرة تعرب عن قلقه من القرارات الموالية للصهيونية ، كما تحمل أيضا نص قرار صادر عن مجلس النواب اللبنانى يؤكد اهتمام اللبنانيين بمصير الأرض المقدسة ، وخطر قيام دولة يهودية على مسيحيى لبنان ومسلميه على السواء . وأرفق لكم نص المذكرة .

إمضاء

واديورث

• وثيقة رقم ٣٤٤ - ١٠/٣ ن ٨٦٧

رسالة من الأمير عبد الله أمير شرق الأردن إلى الرئيس روزفلت .

عمان : ٣ مارس ١٩٤٤

فخامة الرئيس فرانكلين روزفلت

إن ما يدور في الكونجرس الأمريكي بشأن فلسطين وإقامة دولة يهودية فيها سبب لنا أسى قلبيا عميقا سرى في كل الشرق . وأنا مقتنع أن الكونجرس لا يملك معلومات كافية عن القضية . وأرجو أن تتذكر الاحترام العظيم والإعجاب الشديد الذي نحتفظ به لكم وللشعب الأمريكي . إنني ألفت نظر فخامتكم إلى هذه الأمور باعتبار أن بلدي نفسه مجاور لفلسطين ، ثم إنني أذكره كصديق وفسى للأمم المتحدة .

إمضاء

الأمير عبد الله



وفي ذلك الوقت بدأ اللويس الصهيوني الأمريكي يشعر بالضغط العربي المنسق ، ويشعر أيضا بأن عناصر من وزارتي الخارجية والدفاع الأمريكيتين تبدى تفهما لوجهة النظر العربية حتى وإن اختلفت الأسباب . وهكذا يوم ٩ مارس ١٩٤٤ توجه اثنان من زعماء الحركة الصهيونية إلى مقابلة الرئيس "فرانكلين روزفلت" في البيت الأبيض وتحدثا إليه ، ثم خرجا من عنده ومعهما تصريح حولهما إعلانه رسميا . وقد أعلنه بالفعل عند مدخل البيت الأبيض ، وكان نصه - طبقا لبرقية لوكالة "رويتر" صادرة من واشنطن في نفس اليوم (٩ مارس ١٩٤٤) - كما يلي :

" إن الحاخامين الدكتور ستيفن وايز والدكتور أباهيلل سيلفر ممثلين عن الحركة الصهيونية الفلسطينية (١١) قابلا الرئيس روزفلت اليوم ، وقد صرح لهما بإعلان البيان التالي على لسانه :

"إن الحكومة الأمريكية لم توافق مطلقا على الكتاب الأبيض الصادر في لندن سنة ١٩٣٩ والذي حدد هجرة اليهود إلى فلسطين . إن الرئيس روزفلت يعلن عن

سعادته لأن أبواب فلسطين سوف تفتح الآن أمام اللاجئين اليهود . وعندما يجنى الوقت لتقرير شئون منطقة الشرق الأوسط فإن الحقوق العادلة سوف تتأكد لكل هؤلاء الذين يطالبون بوطن قومي لليهود فى فلسطين . إن ذلك هدف تنظر إليه الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكى بعطف عميق . والآن أكثر من أى وقت مضى فإن مأساة مئات ألوف من اليهود لا بد أن تلفت نظر الجميع وأن توجههم إلى العدل والخير".

وكما يمكن توقعه ، فإن هذا البيان أحدث صدى مزعجا فى العالم العربى . وكانت مصر أول من تحرك . واستدعى "مصطفى النحاس" باشا رئيس الوزراء بنفسه الوزير المفوض الأمريكى فى القاهرة "كيرك" وأبلغه بقلقه وباستياء الشعب المصرى كله من تصريح الرئيس "روزفلت" كما ورد فى بيان الحاخامين "ستيفن وايز" و"أبا هيلل سيلفر" . كما أن "النحاس" باشا كلف الوزير المفوض المصرى فى واشنطن بإبلاغ قلقه إلى الحكومة الأمريكية .

• وثيقة رقم ١١/٢٣٠٤ ن ٨٦٧

مذكرة من الوزير المفوض المصرى محمود حسن باشا إلى وزير الخارجية .

(أرسلت نسخة منها إلى مكتب الرئيس)

التاريخ : ١٤ مارس ١٩٤٤

سيدى ،

إن رئيس الوزراء مصطفى النحاس باشا طلب إلى هذه البعثة أن تنقل اليكم احتجاجه على التصريح المعلن على لسان الرئيس فرانكلين روزفلت بشأن فلسطين . إن هذا التصريح بشكله ومضمونه يسئ إلى مشاعر الشعب المصرى وإلى ارتباطه بالعالم العربى . وسوف يكون رئيس الوزراء ممتنا إذا ما تلقى من رئيس الولايات المتحدة إيضاحا لهذا البيان .

• وثيقة رقم ١١/٢٢٥٥ ن ٨٦٧

برقية من وزير الخارجية إلى الوزير المفوض فى مصر (كيرك)

التاريخ : ١٥ مارس ١٩٤٤ الساعة التاسعة مساء

- اتصل برئيس الوزراء النحاس باشا وأبلغه بما يلي ردا على رسالته للرئيس:
- ١ - أوضح له أن البيان المنسوب للرئيس تحدث عن وطن قومي لليهود في فلسطين طبقا لوعده بالفور، ولم يتحدث عن دولة يهودية في فلسطين كما جاء في قرار الكونجرس .
 - ٢ - تستطيع إبلاغه أيضا بأن حكومة الولايات المتحدة لم تعط أية موافقة من جانبها على الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩ .
 - ٣ - تستطيع أن تؤكد للنحاس باشا أن هذه الحكومة لسن تحدث تغييرات أساسية بالنسبة لسياستها في فلسطين بدون تشاور كامل مع كسل من العرب واليهود .

إمضاء

وزير الخارجية

• وثيقة رقم ١١/٢٢٩٩ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض في مصر (كيرك) إلى وزير الخارجية
(أرسلت نسخة إلى مكتب الرئيس)

القاهرة : ٢٩ مارس ١٩٤٤ الساعة الرابعة بعد الظهر

عزيزي وزير الخارجية

قابلت النحاس باشا وقد أبدى لي على الفور أسفه لمبدأ أن يقبل الرئيس الأمريكي بصور بيان منسوب إليه بواسطة زعماء يهود . وهو مرتاح لما نقلته إليه من أن مشاورات سوف تجري مع العرب واليهود قبل اتخاذ قرارات كبيرة تؤثر على مستقبل المنطقة . وهو يأمل في الوقت نفسه وفي الظروف الراهنة أن تمتنع كل الأطراف عن إصدار تصريحات يمكن أن تؤدي إلى تعقيدات كبيرة في البلاد العربية . إن الولايات المتحدة تعتبر في نظر الشعوب العربية نصيرا للحرية والديمقراطية . ولهذا فإن تصريحات من نوع ما صدر منسوباً للرئيس وقرارات من

نوع ما يصدر عن الكونجرس تسيء إلى الصورة العامة . وقد عاد وكرر لي أنه يسلم بأن هناك اضطهادا وقع لليهود في أوروبا ، لكنه لا يفهم لماذا يجري تعويض هذا الاضطهاد على حساب الفلسطينيين وحقهم في السيادة .

سوف أرسل لكم بالحقيبة الدبلوماسية تفصيلات أوفى عن المقابلة ، لكن ما سبق هو جوهر رد النحاس .

إمضاء

كـسـيرك



ومع التركيز على واشنطن فإن الحركة الصهيونية كانت لا تزال تمارس دورها في بريطانيا التي كانت قائمة على الانتداب ، فموقفها في النهاية له وزن لأنها الحارس الواقف على بوابات فلسطين حتى هذه اللحظة . وكانت أهمية لندن إلى جانب ذلك أنها مصدر معلومات وتوجيه له أهميته وتكمل الوثائق قصتها في هذه المرحلة :

• وثيقة رقم ٦٤٤ - ٠١/١٢ ن ٨٦٧

مذكرة من مدير إدارة الشرق الأدنى والشؤون الأفريقية (مسوراي) إلى وزير الخارجية .

واشنطن : ٨ ديسمبر ١٩٤٤

سيدي الوزير

وصلت إلينا نسخة من خطاب كتبه الدكتور حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية إلى الحاخام سيلفر في واشنطن ، وهي تحتوي على معلومات مهمة عن مناقشة دارت بين الدكتور وايزمان ورئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل .

إن أهم المعلومات في هذه المذكرة ترد على النحو التالي :

١ - إن الحكومة البريطانية لم تصل بعد إلى قرار بشأن مستقبل فلسطين . وفي الغالب أنها ستنتظر إلى ما بعد انتهاء الحرب مع ألمانيا .

٢ - إن رئيس الوزراء تشرشل وحماسته للصهيونية معروفة رغم عناد بعض وزرائه يرى أنه هو والرئيس روزفلت يستطيعان معا وضع خطوط عملية للمستقبل .

٣ - إن رئيس الوزراء ونستون تشرشل يعتقد بضرورة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود . كما أنه يقبل طلب وايزمان منه بتسهيل دخول مليون ونصف مليون يهودي إلى فلسطين خلال السنوات العشر القادمة .

٤ - بناء على ذلك فإن الدكتور وايزمان طلب من الحاخام سيلفر اتخان الخطوات التالية :

(أ) إن رجالا مؤثرين على الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت من أمثال باروخ ومورجنتاوى ويوجين ماير (صاحب جريدة الواشنطن بوست ، ووالد صاحبها الحالية كاثرين جراهام) وفيلكس فرانكفورتز وبن كوهين (محام مشهور) يجب أن يطلبوا مقابلة الرئيس وأن يطرقوا الحديد وهو ساخن وأن يقتنعوه على الأقل بفتح أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بلا شروط .

(ب) ثم أن يلفتوا نظره إلى مشروع أمريكي أعده الدكتور "لاودر ميلك" من وزارة الزراعة الأمريكية ، وهو خاص بتنمية موارد فلسطين باعتبار أن التنمية مدخل ضروري لإقناع العرب بأن المستقبل يكمن فى تعاونهم مع اليهود .

إننى أعتقد أنك سوف تجد لهذه الملاحظات أهمية خصوصا ما هو متعلق منها بنوايا رئيس الوزراء تشرشل عن تقسيم فلسطين .

إمضاء

مـــــوراي

إليانور روزفلت

" أى مساعدة للصهاينة خيانة لرسول
الله وللمؤمنين "
(الملك "عبد العزيز آل سعود" فى حديث مع
"ونستون تشرشل")

مع سكوت المدافع ، وارتحال الدبابات من الشرق الأوسط إلى ميادين أوروبا والشرق
الأقصى راحت التطورات والتفاعلات التى جمدهتها ضرورات الحرب تتحرك فى حرية أكثر.
كما أن الأضواء التى كانت معتمة باللون الأزرق بغرض الستر والإخفاء وجهت أشعتها إلى
المسرح السياسى فى المنطقة ، وكانت كل القوى تتحرك ، كل منها تريد أن تسبق وأن
تقترب من أكثر المواقع ملائمة لوثوبها نحو تحقيق ما تريد .

وكان بعض المشاهد بالقصد ، كما أن بعضها الآخر كان بالقدر .

وبدا فيها ما هو بالقطع تفاصيل من خطط مرسومة ، ومن ناحية أخرى بدا فيها ما
هو على الأغلب عشوائى رمت به المصادفات .

وكان ظاهرا من أول نظرة أن هناك ثلاث قوى تدخل إلى الساحة جاهزة لأدوار دعيت
إليها أو صورتها لنفسها :

• كانت القوة الأولى هى قوة الولايات المتحدة الأمريكية . وقد أعطتها مواردها
الاقتصادية وطاقاتها العسكرية حق قيادة عالم ما بعد الحرب . والغالب أن الولايات المتحدة

لم تكن مستعدة للمسؤولية لكن القوة لها خاصية أنها تدعو أصحابها إلى مواقعهم مرات بدون إرادتهم ومرات بدون كامل استعدادهم .

وعلى أى حال فقد كانت منطقة الشرق الأوسط أول ما جذب انتباه الولايات المتحدة عبر البحار ، وكان عنصر الجذب الرئيسى هو : موارد البترول . ولم تكن القوة الأمريكية بعد قد تزودت بثقافة كاملة فى ممارسة القوة ، وهكذا فإن دخولها إلى ساحة الشرق الأوسط وإلى موارد البترول فيه بدت عملية انقراض مباشر للشركات ، كأنها جيش يستولى على غنائم حرب !

وكان لا بد لذلك أن يؤدى إلى احتكاكات مع القوة المالكة لهذه الموارد وهى بريطانيا التى تعتبر نفسها شريكا رئيسيا فى الحرب سبق أمريكا إليها ، وليس عدوا تستباح غنائمه !

وكان لا بد لانتباه الولايات المتحدة أن يتوجه فى نفس الوقت إلى السكان الأصليين لموطن هذه الموارد وهم العرب بنوع من حسن النية وبالاسترضاء ، وبتغطية نقص الفهم والمعرفة بزيادة المجاملات ، وبتوهم أساليب فى المعاملات من نوع ما يتخيله السياح فى بلاد غريبة يسمعون عن أساطيرها ، مما يدفعهم إلى تصرفات تبدو أقرب إلى "الفولكلور" منها إلى "السياسة" .

وفى الجانب الموضوعى من العلاقة مع العرب فقد كانت التصورات السياسية الأمريكية الأولى لا تزال تدرس ، وكانت التجارب الإمبراطورية السابقة غير بعيدة عن التفكير الأمريكى ، فالفكر الإستراتيجى لا يخترع ، لأنه محكوم بالجغرافيا والتاريخ وغيرهما من الثوابت وإنما هو يعيد الصياغة مع تغير العصور .

● وكانت القوة الثانية - الداخلة إلى الساحة - هى الحركة الصهيونية العالمية ، وقد تملكها الشعور بأن تحقيق الحلم قريب ، وأنه إذا فاتت الفرصة الآن فقد لا تعود فى زمن قريب ومرئى .

وكانت الحركة الصهيونية قد شددت كل إمكانياتها على الآخر ، سواء فى مكامن التأثير السياسى فى أوروبا وأمريكا ، أو على أرض فلسطين ذاتها بما أمكن تحقيقه من واقع على الأرض سواء بحركة الهجرة أو الاستيطان أو بناء القوة المسلحة .

كان تعداد اليهود فى فلسطين يقترب من نصف المليون ، وأدرك قادة الداخل فى الوكالة اليهودية ، وعلى رأسهم "دافيد بن جوريون" ، أن موجات الهجرة الكبيرة التى ينتظرونها من أوروبا لن تتحقق إلا إذا كان الوطن القومى اليهودى فى فلسطين حقيقة تقدر على منافسة إغراءات الهجرة إلى العوالم الجديدة : أمريكا الشمالية وكندا وأستراليا.

وعندما نوقش "بن جوربون" في مخططاته المتسارعة في فلسطين ، وقيل له من رجال على مستوى "ناحوم جولدمان" إنه "يدفع الأمور إلى الحافة ، بينما هجرة اليهود إلى فلسطين لم تصل بعد إلى الحجم اللائق لإنشاء دولة" ، كان رده "إن الهجرة لن تصل إلى المستوى اللائق إلا إذا كانت هناك دولة بالفعل" .

● وكانت القوة الثالثة - الداخلة إلى الساحة - هي قوة مصر ودورها المشرقي الذي لمحّه الأدب والفن والفكر قبل أن تراه السياسة ، واكتشفته مدرسة الشرق بين السياسيين المصريين المستقلين قبل أن تكتشفه أحزاب الأغلبية والأقلية ، وتحرك الملك "فاروق" مقرباً منه تحت تأثير بعض ساسة مدرسة الشرق مثل "عزيز المصري" و"على ماهر" و"عبد الرحمن عزام" وغيرهم ، وأخيراً مارسه حزب الأغلبية ممثلاً في "مصطفى النحاس" الذي قاد معركة التضامن مع سوريا ولبنان ، ووضع إمضاءه في النهاية على ميثاق جامعة الدول العربية .

كانت المشكلة الحقيقية أن مصر خرجت من غليان الحرب كأنها سفينة تمزق شرعياً وتمثرت دفتها وتعطل محركها أثناء عاصفة .

* كان الصراع هو حزب الوفد ، وقد تمزق الصراع بالحق أو بالباطل على مسار بدأ من قبوله الوزارة بعد إنذار ٤ فبراير ١٩٤٢ ، وحتى ظهور الكتاب الأسود الذي كتبه السكرتير العام للوفد الذي انشق عليه ، وهو "مكرم عبيد" باشا .

* وكانت الدفة هي القصر الملكي ، وقد تمثرت قدرته عندما تأكلت هيئته بسبب ما حدث من تغييرات خلال فترة الحرب على شخصية الملك "فاروق" ، وما أدى به في النهاية إلى حالة كاملة من الترهل السياسي والأخلاقي والبدني أيضاً .

* وكان المحرك القابع في بطن السفينة هو سلطة الاحتلال البريطاني ، وهذه أصابها العطب عندما غمرتها موجات الوطنية المطالبة بالاستقلال وجلاء الجيوش البريطانية عن كل بقعة من أرض مصر .



ومضت الحوادث تتدافع سنة ١٩٤٥ في تلاحق مثير .

● جاء "روزفلت" بعد مؤتمر "يالطا" الذي شارك فيه مع "تشرشل" و"ستالين" إلى مصر، ورسا بعمدرة أمريكية (الطراد "كوينسي") في مياة البحيرات المرة وسط قناة

السويس . وهناك قابل الملك "عبد العزيز آل سعود" (أكبر شيوخ البترول) وتحدث إليه واستمع منه .

وخرج "روزفلت" من الاجتماع وهو يصف الملك "عبد العزيز" بأنه "المتوحش النبيل" .
ثم التقى "روزفلت" على ظهر الطراد "كوينسى" بالملك "فاروق" (البلد الدعو إلى دور
عربى فاعل) وتحدث إليه واستمع منه أيضا .

وخرج من اجتماعه مع الملك "فاروق" وهو يسميه "الملوك الشرقى المزركش" .
وعاد "روزفلت" إلى بلاده بعد كل ما قال وسمع ، ولكن الموت داهمه ، وخلفه
نائبه "هارى ترومان" .

● وكان الملك "فاروق" قد ألقى أمام الرئيس الأمريكى الزائر بشحنات أله وعذابه من
استبداد السفير البريطانى اللورد "كيلرن" به وفرضه للوزارات عليه ، وكان رأى
"روزفلت" أن الضغط بالإهانة على "الملوك الشرقى المزركش" لم يبق له سبب بعد أن
ابتعدت الحرب . وتم للملك "فاروق" ما طلب ، وانزاع عنه هم وجود اللورد "كيلرن" على
رأسه ، فأقال "النجاس" باشا وجاء بالوزارة التى يريدتها برئاسة "أحمد ماهر" باشا .
ولكنها أسابيع قليلة مضت فإذا "أحمد ماهر" باشا يلقي مصرعه بثلاث رصاصات
وجهت إليه فى البهو الفرعونى بمجلس النواب ، وخلفه نائبه "محمود فهمى
القراشى" باشا .

● وكان "أحمد ماهر" باشا قبل اغتياله قد عاش أزمة كبرى حين قام بتنظيم
"شتيرن" الصهيونى بإرسال اثنين من أفراده قتل اللورد "موين" الوزير البريطانى المقيم فى
الشرق الأوسط . وهكذا بدا أن العمل الصهيونى قد دخل إلى مرحلة العنف وقرر أن يفتح
الأبواب بالرصاص وأن يبدأ ، وفى مصر بالذات وهى المركز المؤهل لقيادة الحركة العربية
التي بدأت تحلم بآمال كبيرة بعد انتهاء الحرب .

● ثم جرت الانتخابات البريطانية ، وإذا "ونستون تشرشل" القائد الأسطورى لمعركة
الحرب العالمية الثانية يفقد رئاسة الوزارة البريطانية ، وإذا نائبه العمالى "كليمنت أتلى"
يخلفه . ويبدو أن الناحب البريطانى أدرك بوعيه أن مرحلة كسب الحرب العسكرية قد
انتهت ، وأن مرحلة إعادة توزيع الحقوق الاجتماعية بعدها واجبة . وجاءت وزارة حزب
العمال ووزير الخارجية فيها "ارنست بيفن" ، وكان فى خياله أن الإمبراطورية كيان
تجاوزه الزمن ، وأن بريطانيا مطالبة بعلاقة جديدة من نوع ما مع مستعمراتها القديمة
وأولها الهند .



ومن نتائج هذه المتغيرات المتلاحقات أنه مع بداية سنة ١٩٤٥ ، اختلفت قواعد اللعبة السياسية في المنطقة ، كما اختلف اللاعبون ، واختلفت أيضا علاقتهم ببعضهم .

وظهرت مراكز تأثير وعلاقات مستجدة ، لكنها جميعا مشست إلى المسرح مرتبكة تخبّر جوانبه وأركانها :

١ - الجامعة العربية تقوم . ومصر في المقدمة منها لكنها غير قادرة بعد على القيادة . وبريطانيا هي التي أعطت الضوء الأخضر لإنشاء الجامعة العربية لكن الولايات المتحدة هي القوة المقبلة التي تتقدم نحو المنطقة طلبا لموارد البترول أو غيرها .

٢ - والولايات المتحدة تقبل على عجل لكي تضع خطوط نظام جديد للشرق الأوسط ، وهي في عجلتها تمارس حتى دون أن تقصد ضغوطا على بريطانيا تصل في بعض الأحيان إلى درجة الإزاحة ، كما حدث مع امتيازات البترول في السعودية والخليج .

٣ - وبريطانيا حائرة إزاء سياسة الإزاحة ترفضها أو تقبل بها مؤقتا بأمل الالتفاف عليها تحت دعوى من نوع "وحدة الأسم الناطقة بالإنجليزية" أو "خصوصية العلاقة بين بريطانيا والولايات المتحدة" لكن الولايات المتحدة في إقبالها المنذفع لا تبال إذا داست على أقدم غيرها ، وهي تعتذر أحيانا إذا سمعت صرخة ألم لكنها تعتذر وهي تجرى .

٤ - والمأزق الحقيقي للسياسة الأمريكية هو أن قوتها الداخلة إلى الشرق الأوسط توافقت زمنيا مع اللحظة التي وصلت فيها القوة الصهيونية إلى مواقع القرار الأمريكي وعند قفته . أى أن الولايات المتحدة وصلت إلى المنطقة ومعها في نفس الوقت تأثير النفوذ اليهودي الظاهر فيها .

وهكذا نشأ وضع خطير كانت فيه المصالح الأمريكية عند العرب ، وبرغم ذلك كان القرار الأمريكي مكشوفاً أمام الضغط المعادى للعرب .

٥ - وكانت فرنسا أشبه ما تكون بشبح غاضب فقد أرضه المسكونة في المشرق العربي وراح ينفث شررا ولهبها ، وفي نفس الوقت يقوم بتحسين مكامن يريد أن يسكنها إلى الأبد في المغرب العربي ، وبخاصة في الجزائر .

٦ - وكانت الحركة اليهودية الصهيونية على أرض فلسطين تتحرك فيها وحولها وبعبدا عنها بكل وسائل العنف والخديعة والمداينة والإفساد ، مستغلة فرصة تاريخية نادرة كان القرار الدولي فيها ملتبسا ، وكان القرار الإقليمي فيها مرتبكا ، وكانت الأرض مهيأة لمن يملك جسارة الفعل وجرأته وليس بلاغة اللفظ وفصاحته .

وسرة أخرى تكشف الوثائق ألوان المرحلة وظلالها :

• الوثيقة رقم ٢٤٥ - ٠٠/١ ن ٨٦٧

مذكرة من وزير الخارجية ستيتنيوس إلى الرئيس روزفلت

التاريخ : ٤ يناير ١٩٤٥

الرئيس ،

تلقيت معلومات تفيد بأن الصهيونيين سوف يطلبون منك أن تتبنى مشروع لاودر ميلك لتنمية فلسطين . إن المشروع بتفاصيله نشر أخيرا في كتاب تحت عنوان "فلسطين أرض المعاد" للدكتور والتر كلاي لاودر ميلك من وزارة الزراعة الأمريكية ، وهو يقترح إنشاء مشروع لوادي الأردن على نمط مشروع وادي التنيسي ، وهدف المشروع أن يجعل فلسطين قادرة على استيعاب أربعة ملايين مهاجر يهودي .

.....

.....

ظننت أنه قد يهمك أن تعرف ذلك مبكرا .

إمضاء

إدوارد ستيتنيوس

• وثيقة رقم ٥٤٥ - ٠٠/١ ب ٨٩٠

برقية من الوزير المفوض في السعودية (ويليام إيدى) إلى وزير الخارجية .

جدة : ٥ يناير ١٩٤٥

أخبرني عبد الرحمن عزام باشا (وزير الدولة للشؤون العربية في مصر وقتها، وقد أصبح فيما بعد أول أمين عام للجامعة العربية) أنه عندما جاء بمسودة مشروع بروتوكول إنشاء جامعة الدول العربية لكى يوقعه الملك عبد العزيز فإن الملك أشار معه مسألتين :

١ - ضرورة إنشاء تحالف عسكري بين الدول العربية يحميها بالسلح إذا دعا الحال .

٢ - ضرورة الحصول على تعهدات من الولايات المتحدة الأمريكية بالدفاع عن العرب الفلسطينيين ضد الصهيونية ، وبالسلح إذا اقتضت الضرورة .

قال الملك عبد العزيز أيضا لعزام إنه سوف يشرفه أن يموت في ميدان القتال كشهيد لحق فلسطين العربية .

أرجو ملاحظة أن إذاعات المحور تبالغ في التأييد الأمريكي للمطالب الصهيونية في فلسطين وأنا أوصى بضرورة الحذر في اتخاذ أي خطوات مؤيدة للصهيونية بواسطة الحكومة الأمريكية . وسوف يكون من سوء الحظ أن يحدث شيء من هذا النوع . سأبعث بتفاصيل أكثر عن هذا الموضوع بالبريد .

- إمضاء

ويليام إيسدى

• وثيقة رقم ٣٠٤٥ - ١/١ ن ٨٦٧

مذكرة عن حديث بين الوزير المفوض المصرى ومساعد وزير الخارجية جوزيف كرو .

التاريخ : ٣٠ يناير ١٩٤٥

جاء الوزير المفوض المصرى محمود حسن باشا بعد ظهر اليوم لمقابلتى بناء على طلبه. إن الوزير المفوض المصرى بدأ فقال إنه ليس قادما هذه المرة لبحث أى موضوع مما يخص العلاقات بين بلدينا ، ولكنه قادم ليتحدث فى موضوع فلسطين وهى فى رأيه واحدة من بؤر الخطر الكبيرة فى العالم . وهو يخشى أنها فى المستقبل سوف تثير فى هذه المنطقة حربا على نطاق واسع . وهو يعتقد أن فلسطين يجب أن تبقى بلدا عربيا إسلاميا - مسيحيا ، وأن تكون فيه لليهود حقوق طبيعية لا تؤثر على مستقبله السياسى . وهو يرى أن الوقت قد حان لوضع مسألة فلسطين للتفاوض ، ويعتقد أنه عن هذا الطريق يمكن تحقيق الكثير . وأضاف محمود حسن باشا أن مصر بلد صغير ، وهى تعتمد بالدرجة الأولى على تعاطف الولايات المتحدة الأمريكية وعلى تأييدها المعنوى . كما أن المصريين يعلمون أن الولايات المتحدة دولة غير طامعة وليست لديها الرغبة فى السيطرة على مناطق أخرى .

إمضاء

جوزيف كرو

• وثيقة رقم ١٤٥ - ١/٢ ن ٨٦٧

مذكرة من الوزير المفوض في السعودية (ويليام إيمدى) إلى وزير الخارجية .

(جرى تحويلها إلى الوزير في بالغا حيث كان يحضر مؤتمر القمة)

التاريخ : ١ فبراير ١٩٤٥

أدى الملك عبد العزيز بتصريح مذهل أمس أثناء استقباله للضباط الأمريكيين الملحقين بالمفوضية . ويمكن اعتبار تصريحه في الواقع إعلانا لسياسة جريئة في قيادة الشؤون العربية تتناقض مع تقرير وصلنا من البريطانيين عن أن الملك بدأ يتردد في تأييد عرب فلسطين .

إن تصريح الملك كان على النحو التالي :

” إن الأمة العربية تواجه تهديدين :

أولهما - الضغط الفرنسي على سوريا .

والثاني - الضغط اليهودي على فلسطين .

ونحن كنا نأمل أن يحترم الحلفاء اعترافهم باستقلال سوريا . وإذا لم يتم الحلفاء بإعادة العقل إلى التصرفات الفرنسية لكي يتركوا السوريين ينعمون بحقوقهم وحريتهم التي حاربتهم من أجلها لصالح كل الشعوب فإن العرب سوف يقومون بحماية سوريا بأنفسهم .

وأما فيما يتعلق بفلسطين ، فإن أمريكا وبريطانيا أمامهما حرية الاختيار بين عالم عربي هادئ ومسالم أو دولة يهودية غارقة في الدم .

إننا نطلب من أمريكا تسوية لمشكلة فلسطين على أساس تقاليد العدل الأمريكى . وإذا اختارت أمريكا أن تمالئ اليهود الملعونين في القرآن إلى آخر الدنيا ، فإن أمريكا تكون بذلك خسرت صداقتها معنا وسوف تندم على ذلك . إن الاختيار على أي حال لأمريكا ، ونحن قلنا رأينا ، ونرغب منكم أن تنقلوه إلى حكومتكم .”

إمضاء

ويليام إيمدى

• وثيقة رقم ١٤٥ - ٠١/٢- ن ٨٦٧ (وهي ملحقة بالوثيقة السابقة وتحمل نفس رقمها لاتصال الموضوع والموعد) .

مذكرة من مساعد وزير الخارجية جوزيف كرو إلى وزير الخارجية .

التاريخ : ١ فبراير ١٩٤٥

جاء لمقابلي كل من الدكتور ستيفن وايز (رئيس المجلس الصهيوني العالمي) والدكتور ناحوم جولدمان والمستر هرمان شولمان والدكتور هاييم جريشبرج . إن الحاخام وايز فتح المناقشة على الفور بقوله "إن أسوأ فلسطين يجب أن تفتح أمام اليهود" . وهو وزملاؤه يعرفون أن الرئيس روزفلت أخذ مذكرة تهتم التي قدموها له قبل سفره إلى بالطا (لحضور مؤتمر القمة الشهير مع تشرشل وستالين) وهم يطلبون تذكير الرئيس بوعوده لهم .

إنهم واثقون أن تشرشل متعاطف معهم ، وسيأملون أن يقصف الرئيس روزفلت بحزم إذا ما أظهر ستالين مشاعر معادية لليهود .

.....

.....

إمضاء

جوزيف كرو

• وثيقة رقم ٢٢٤٥ - ٠١/٢- ف ٨٩٠

مذكرة من الوزير المفوض في السعودية (ويليام إيدى) إلى وزير الخارجية .

جدة : ٢٢ فبراير ١٩٤٥

سيدي ،

لى الشرف أن أحيلكم إلى بريقيمة المفوضية رقم ٨٩ بتاريخ ٢١ فبراير وأن أقدم لكم تفاصيل ما سمعت من الملك عبد العزيز عن لقائه مع المستر تشرشل .

إن الملك دعاني أمس لكي أعود إليه بعد الغداء للقاء لا يحضره إلا هو وأنا . بل إنه لا يريد أن يكون حارسه الخاص موجودا . إن الملك قال لي إنه يريد أن تعرف حكومتى تفاصيل ما جرى بينه وبين المستر تشرشل (عندما التقى الاثنان في الفيوم في مصر بعد اجتماع الملك مع الرئيس روزفلت في البحيرات المرة) . وكانت رواية الملك للقاء كما يلي وبالحرف تقريبا :

“إن تشرشل بدأ يتحدث معي مظهرا ثقته الكبيرة في نفسه ، وبدأ وكأنه يلوح لي بمصا غليظة قائلا لي “إن إنجلترا أيدتني وساعدتني ماليا عشرين سنة ، كما أنها ساعدت على استقرار ملكي وأوقفت كل الطامعين فيه . وبما أن بريطانيا ساعدتني في الأيام الصعبة فإنها الآن تطلب مني أن أساعدها في موضوع فلسطين ، وترى أنه يجب أن أثبت قدرتي كزعيم عربي قوى وأمنع عناصر التهبيج العربي من الإثارة ضد الخطط الصهيونية في فلسطين . وقال تشرشل لي (للملك) إن على أن أقود المعتدلين من العرب إلى حل وسط مع الصهيونية ، وهو يتوقع مني أن أساعد على تهيشة الرأي العام العربي لقبول تنازلات لليهود .

جاوبت تشرشل وقلت له إنني لم أنكر إطلاقا صداقتي لبريطانيا وعرفاني لها . وكصديق فإنني قدمت ما أستطيع عندما كان الحلفاء يحاربون عدوهم . وقلت له إن ما يقترحه علىّ ليس مساعدة لإنجلترا أو للحلفاء ، ولكنه بالنسبة لي عمل من أعمال الخيانة لرسول الله ولكل المسلمين المؤمنين . ولو أنني أقدمت عليه لأضعت شرفي ودمرت روحي . وأنا لا أوافق على تنازل للصهيونيين فضلا عن أن أقتنع غيري . وحتى إذا قبلت أن أفعل ذلك ، فلن يكون ما أفعله مساعدة لبريطانيا ، وإنما سوف يكون عبئا عليها لأن تأييد المظالم الصهيونية من جانب أي جهة سوف يؤدي إلى إراقة الدماء ، وسوف ينشر الفوضى في العالم العربي . وهذا لن يكون في صالح بريطانيا .

وقال لي الملك إنه عند هذه النقطة بدا له أن تشرشل أنزل عصاه الغليظة من الهواء ، فانتهز هو الفرصة بدوره ورجاه في تأكيدات يعطيها له بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين . ورفض تشرشل أن يعد بشيء .

إمضاء

ويليام أيدي

• وثيقة رقم ٥٤٥ - ١٠١/٣ ن ٨٦٧

مذكرة من الكولونيل هارولد هوسكنز (الملحق بالمفوضية الأمريكية بالقاهرة
والشرف على تنسيق العلاقة بين المفوضية الأمريكية في سوريا ولبنان والمملكة
العربية السعودية والعراق وإيران وأثيوبيا - وهو ما يظهر أن مهمته في الشرق
الأوسط كانت في واقع الأمر مهمة مخابرات) - إلى المستر بول إيلنج مدير شؤون
الشرق الأدنى وأفريقيا .

التاريخ : ٥ مارس ١٩٤٥

عزيزي بول

إنك طلبت إلى حسين التقيينا أن أبعث إليك بملخص لما دار أثناء غداثي مع
الرئيس روزفلت يوم السبت الماضي .

إن الغداء كان خاصا إلى أبعد حد ، ولم يكن هناك غير الرئيس والمسز
روزفلت (إليانور روزفلت زوجة الرئيس) والمسز بوتيجر ، وهذا ملخص ما جرى
فيه فيما يتعلق بفلسطين . إنني سألت الرئيس عما إذا كانت مشكلة فلسطين قد
نوقشت في يالطا ، ورد (الرئيس روزفلت) بقوله "ليس تماما" . ثم قال الرئيس "إن
المستر تشرشل شديد الاقتناع بالصهيونية كما هي عادته دائما ، وقد جاء هذه المرة
يطلب إعطاء اليهود ليس فلسطين فقط وإنما ليبيا أيضا" . وقال الرئيس إنه أشار إلى
كلام تشرشل أثناء حديثه مع ابن سعود الذي اعترض بعنف قائلا إن هذا ظلم
للمسلمين في شمال أفريقيا .

إن السيدة إليانور روزفلت تدخلت في الحديث عند هذه النقطة مشيرة إلى
العمل الجيد الذي قام به الصهيونيون في أجزاء من فلسطين ، وقد وافقتها على
ذلك . وقال الرئيس إن ذلك قد يكون صحيحا في المنطقة الساحلية من فلسطين ،
ولكنه عندما طار فوق هذا البلد عاندا إلى الولايات المتحدة (بعد انتهاء رحلته في
يالطا ، وبعد انتهاء اجتماعه مع الملك عبد العزيز آل سعود والملك فاروق) ، لاحظ أن
فلسطين الداخل تبدو جرداء وصخرية . وردت مسز روزفلت بقولها "إن الحركة
الصهيونية تشعر أنها قادرة على كل شيء بما في ذلك مواجهة العرب في قتال
سلح في فلسطين" .

إن الرئيس روزفلت وافق زوجته على أن ذلك احتمال وارد ، ولكنه ذكرها أن
هناك ما بين ١٥ - ٢٠ مليون عربي يحيطون بفلسطين . وفي المدى البعيد فإنه
يظن أن العدد سوف تكون له الغلبة . ومن جانبي ذكرت الرئيس بأن الحركة
الصهيونية هاجمتني شخصيا بسبب تقرير قدمته له سنة ١٩٤٣ قلت فيه إن

الصهيونية لا تستطيع أن تقيم دولتها في فلسطين وتحافظ عليها إلا من خلال القوة. وقد سألت الرئيس عما إذا كان موافقا على ما استخلصته، ورد على بقوله "تماما".

وسألت الرئيس عن رأى ستالين في اليهود ، وقال لى إن ستالين قال له إنه ليس صديقا للصهيونية ولا عدوا لها . وعقب الرئيس (روزفلت) على ذلك بقوله "إن ستالين لم يكن ذلك العدو المخيف لليهود والذي حاول البعض تصويره لنا هنا".

إمضاء

هارولد هوسكنز

• وثيقة رقم ١٠٤٥ - ٠١/٣ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض من بغداد (لوى هندرسون) إلى وزير الخارجية .
بغداد : ١٠ مارس ١٩٤٥

استدعاني الأمير عبد الله الوصى على العرش (فى العراق) وسلمنى مظلوما مقفولا يحوى رسالة منه إلى الرئيس . وقد أعطانى ترجمة غير رسمية للرسالة .

إن الوصى على العرش راح يحدثنى عن خطر الصهيونية ، وانتهى إلى خلاصة قال فيها : "إن العرب يعتقدون أن اليهود يريدون فلسطين كخطوة أولى لتحقيق سيطرتهم على العالم العربى اقتصاديا وكذلك سياسيا . ومطلبهم فى المستقبل هو السيطرة على كل البلاد العربية المجاورة . وبالطبع فإن العرب من حقهم مقاومة هذه الخطط . إن العرب (فى رأى الوصى على العرش) لا يستطيعون تحقيق وحدتهم المتبغاة من غير أن تكون فلسطين جزءا منها . إن موقع فلسطين الجغرافى يمكن أن يعرقل وحدة العرب إذا ما وقعت فلسطين فى أيد غير عربية . والعرب الذين يعتقدون بأهمية وحدتهم لن يقبلوا سلخ فلسطين عن دورها فى الوصل الجغرافى بينهم ، كما أنهم لن يقبلوا وقوعها فى أيد معادية لهم ."
ثم قال لى الوصى على العرش "إن العرب فرادى وجماعة يعتبرون أن مستقبل فلسطين قضية حياة أو موت".

إن ما سبق هو مضمون خطاب الوصى على العرش إلى الرئيس روزفلت ، وسوف أرسل الخطاب نفسه إليكم بالحقيبة الدبلوماسية بأسرع ما يمكن .

إمضاء

لوى هندرسون



وفي يوم ١٧ مارس ١٩٤٥ نشرت جريدة "النيويورك تيمس" الخبر التالي :

"اجتمع الحاخام وايز أمس مع الرئيس روزفلت في البيت الأبيض ، وقد خرج بعد المقابلة التي استمرت خمسين دقيقة ليدلى ببيان جاء فيه : إن رئيس الولايات المتحدة خولني أن أنقل عنه التصريح التالي وعلى لسانه :

"إنني أوضحت لكم موقفي فيما يتعلق بالصهيونية في لقاءات سابقة ، ولم يتغير موقفي اليوم عما كان عليه ، وسوف أظل أعمل من أجل هذا الهدف الصهيوني وتحقيقه في أسرع وقت ممكن" .

(كان نص البيان السابق المعلن على لسان الرئيس "روزفلت" كما يلي :

"إن الحكومة الأمريكية لم توافق مطلقا على الكتاب الأبيض الصادر في لندن سنة ١٩٣٩ والذي حدد هجرة اليهود إلى فلسطين . إن الرئيس روزفلت يعلن عن سعاداته لأن أبواب فلسطين سوف تفتح الآن أمام اللاجئين اليهود . وعندما يجئ الوقت لتقرير شؤون منطقة الشرق الأوسط فإن الحقوق العادلة سوف تتأكد لكل هؤلاء الذين يطالبون بوطن قومي لليهود في فلسطين . إن ذلك هدف تنظر إليه الحكومة الأمريكية والشعب الأمريكي بعطف عميق. والآن أكثر من أي وقت مضى فإن مأساة مئات ألوف من اليهود لا بد أن تلفت نظر الجميع وأن توجههم إلى العدل والخير" .)

وأحدث هذا التأكيد الجديد للأهداف الصهيونية صدى واسعاً في العالم العربي . وتوالى احتجاجات العواصم العربية على البيت الأبيض . ولكن الضجة لم تأخذ مداها ولم تحدث آثارها لأن الرئيس "روزفلت" توفي فجأة .

ترومان

“ انتظر إلى ما بعد موسم الحج ... ”

(نصيحة من وزير الخارجية البريطاني إلى
وزير الخارجية الأمريكى)

وأصبح نائب الرئيس “هارى ترومان” ، رئيساً للولايات المتحدة ، وكانت تلك صفحة جديدة تفتتح ، لكن الصفحة الجديدة كانت مهياةً لبقع من الحبر ، وليس لمجرد حروف وكلمات . وتتحدث الوثائق عن “هارى ترومان” :

• وثيقة رقم ١٣٤٥ - ٤ / ١٠ ن ٨٦٧

مذكرة من وزير الخارجية (ستيتينيوس) إلى الرئيس ترومان .

التاريخ : ١٨ ابريل ١٩٤٥

عزيزى الرئيس ،

إن هناك احتمالاً قوياً بأن بعض القادة الصهيونيين سوف يحاولون الحصول منك على التزام مؤيد لبرنامج الحركة فى فلسطين . وبالطبع فأنت تدرك أن حكومة الولايات المتحدة وشعبها لديهما تعاطف شديد إزاء المحنة التى تعرض لها اليهود فى أوروبا ، كما أن كليهما لديه الرغبة فى عمل أى شىء للتخفيف من آثار هذه المحنة . لكن مشكلة فلسطين نسي واقع الأمر شديدة التعقيد ، وهى تمتد إلى مسائل تتخطى ما وقع لليهود فى أوروبا . وإذا ما جرت محاولة من هذا النوع معك ، فإنى أمل أن يكون ردك هو أنك سوف تبحث وتدرس وتطلب أوراقاً من المختصين ، مما يعطيك وقتاً لتقدير موقفك .

المخلص

إدوارد ستيتينيوس

• وثيقة رقم ٢٠٤٥ - ٠١/٦ ن ٨٦٧

مذكرة من إيغان ويلسون رئيس إدارة شئون الشرق الأدنى إلى وزير الخارجية عن مقابلته مع الدكتور ناحوم جولدمان رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الصهيونى العالمى . وقد حضرها المستر هندرسون من إدارة الشرق الأدنى ، وكذلك المستر ميريام والمستر ويلسون من نفس الإدارة .

التاريخ : ٢٠ يونيو ١٩٤٥

إن الدكتور جولدمان جاء إلى هذه الإدارة ليقدم تحيته إلى المستر هندرسون . وينتظر الفرصة ليحيط الإدارة علما بالموقف الخطير الذى يواجه قيادة الحركة الصهيونية نتيجة لتردد الحكومة البريطانية والحكومة الأمريكية فى إعلان نواباهما بشأن فلسطين . وقد قال إنه لمدة خمس سنوات أو أكثر فإن قيادة صهيونيين مثل الدكتور وايزمان والحاخام وايز ، وهو نفسه ، ينصحون شعبهم باتباع سياسة معتدلة تجاه مطالبهم فى فلسطين .

والآن ، فإن المجتمع اليهودى فى فلسطين تسوده روح من العزم والتصميم والاستعداد لاتخاذ إجراءات عملية على الأرض لتحقيق الهدف الصهيونى . ولدى المجتمع اليهودى فى فلسطين الآن ستون ألف جندى مسلح ومدرب ، وهم على استعداد للقتال دفاعا عن حقوقهم . وهم وقياداتهم يتهمون زعماء الحركة الصهيونية بالتفريط والاستسلام . وهو نفسه (أى الدكتور جولدمان) سمع من يصفه عندما كان فى فلسطين بأنه خائن . ويخشى الدكتور جولدمان أنه ما لم يحدث تحرك سريع فإن المعتدلين فى قيادة الحركة الصهيونية بمن فيهم حايزم وايزمان نفسه سوف يطاح بهم ويطردهم من مواقعهم .

.....

.....

إمضاء

إيغان ويلسون

• وثيقة رقم ٢٧٤٥ - ١١/٦ ن ٨٦٧

مذكرة عن مقابلة أجراها إيفان ويلسون من إدارة الشرق الأدنى مع عدد من القيادات الصهيونية .

التاريخ : ٢٧ يونيو ١٩٤٥

إن الدكتور جولدمان عاد إلينا بعد أسبوع من مقابلتنا السابقة ومعه المستر دافيد بن جوريون رئيس الوكالة اليهودية في فلسطين ويصحته المستر إيلعازر كابلان من الوكالة اليهودية . وقد جاءوا جميعا لمناقشة مسألة فلسطين معنا . وكان المستر دافيد بن جوريون عنيفا ، وقال إن الحكومات الغربية تؤخر الحقوق المشروعة للشعب اليهودي استرضاء لبعض الباشوات المصريين في القاهرة ، ولبعض شيوخ البدو في الصحارى العربية . وطلب بن جوريون أن ننقل للحكومة البريطانية أن الحركة الصهيونية لا تريد مشاكل معها ، ولكن الأفضل ألا تؤخر تسهيل حصولهم على حقوقهم في فلسطين .

إمضاء

إيفان ويلسون



وفي شهر أغسطس ١٩٤٥ كانت الحركة الصهيونية في أمريكا قد وصلت مباشرة إلى الرئيس "ترومان" بواسطة "إيلسى جاكوبسن" ، صديقه الحميم وشريكه السابق في محل خردوات في "مينسوتا" قبل أن ينتخب "ترومان" عضوا في الكونجرس ويختاره "روزفلت" نائبا له . وتحت هذا التأثير أصدر "ترومان" أمرا من فوق رأس كل الوزارات والإدارات في حكومة الولايات المتحدة يعلن فيه أنه "قرر السماح لمائة ألف يهودي بالهجرة إلى فلسطين" . وبعث إليه الملك "عبد العزيز آل سعود" رسالة يستغرب فيها هذا القرار المناقض لتعهد حصل عليه من سلفه "روزفلت" مقتضاه أن شيئا ما لن يتقرر في فلسطين قبل الاتصال بالعرب كطرف معنى مباشرة بالأزمة . ورد الرئيس "ترومان" رسميا بأنه لا يعرف شيئا عن وجود مثل هذا التعهد .

ويبعث الملك "عبد العزيز" برّد على الرّئيس "ترومان" جاء كما يلي :

• وثيقة رقم ٣٤٥ - ٠١/١٠ ن ٨٦٧

رسالة من الملك عبد العزيز بن سعود إلى الرّئيس هاري ترومان .

التاريخ : ٢٥ شوال ١٣٦٤ الموافق ٢ أكتوبر ١٩٤٥

من الوزير المفوض بجدة - استدعاني الأمير فيصل وزير الخارجية وسلمني رسالة موجهة من والده الملك إلى رئيس الولايات المتحدة . وطلب سرعة إرسالها إلى الرّئيس . وفيها يلي نص رسالة الملك :

"يا صاحب الفخامة ،

أخطروني أنه طبقاً لما أذاعته محطات أجنبية أن تصريحاً منسوباً لفخامتكم أذيع يوم ١٦ أغسطس ١٩٤٥ . وطلبت من وزارة الخارجية في المملكة أن تتصل بالمفوضية الأمريكية لتحصل على نسخة من حديثكم ، وذلك طمأنناً بعض الشيء ، لكننا بعد ذلك علمنا بتصريح نسب إليكم في الجرائد قلتم فيه إنكم بحثتم في أوراقكم ولم تعثروا على تمهد قدمه لنا سلفكم الراحل وصديقنا العزيز الرّئيس روزفلت .

إن المرحوم الرّئيس روزفلت أعطانا التمهد المشار إليه في حديث معنا يوم ١٤ فبراير ١٩٤٥ ، كما أنه أكد بعد ذلك بخطاب مرسل يوم ٥ أبريل ١٩٤٥ .

يا صاحب الفخامة ،

نحن نظن أن التصريح المنسوب إليكم قد أسىء نقله . ولكننا نأمل موافاتنا بالحقيقة أو تأذنون بالبحث عن الخطاب المشار إليه ونشره . إن بلدكم دخل الحرب دفاعاً عن الحق والعدل ، ولا نتصور بعد النصر أنكم تؤيدون طرد شعب من بلده لكي يحل محله أقوام آخرون تحت حماية القوى المسلحة .

إمضاء

عبد العزيز



ويوم ٢ نوفمبر ذكرى وعد بلغور كانت التظاهرات تعم القاهرة والإسكندرية احتجاجا على تصرفات الحكومة الأمريكية . ووصف القائم بالأعمال الأمريكى فى مصر حوادث هذا اليوم فى برقية إلى وزير الخارجية :

• وثيقة رقم ٣٤٥ - ٠٠/١١ - ٨٨٣

برقية من القائم بالأعمال فى مصر (ليون) إلى وزير الخارجية .

القاهرة : ٣ نوفمبر ١٩٤٥

تواصلت التظاهرات فى شوارع القاهرة والإسكندرية اليوم أيضا ، وهوجمت بعض المحلات فى شوارع وسط المدينة ، وقذفت بعض المحلات التى يملكها أجنبى بالحجارة . وقد قام رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا (الذى تولى الوزارة بعد اغتيال أحمد ماهر باشا) بزيارة مواقع الدمار ، ولكنه يظهر أن الحكومة فقدت سلطتها فى مواجهة الرعاى . وقال لى الوزير المفوض الإنجليزى ريجينالد بوكور إن السفارة البريطانية تلقت احتجاجات ، كما تلقت مطالبات من عدد من أصحاب المحلات البريطانيين الذين كانت خسائرهم كبيرة ، وقد صدرت له تعليمات بأن يتوجه لمقابلة النقراشى اليوم ويطلب منه إظهار الحزم فى التصدى للتظاهرات .

إننا سمعنا أيضا أن هناك اتصالات من جهات رسمية ببعض نقابات العمال تطلب منها الخروج للتظاهر بقصد إظهار تأييد مصر للقضايا العربية .

وقد واصل طلبة الأزهر وجامعة القاهرة إضرابهم اليوم . وتلقينا فى المفوضية ١٢٠ تلغرافا تحتج على سياسة الرئيس ترومان .

إمضاء

ليون

• وثيقة رقم ٣٤٥ - ١١/٠١/٨٨٣ (وهي ملحقة بالوثيقة السابقة وتحمل نفس رقمها لاتصال الموضوع والموعد) .

برقية من القنصل العام في الإسكندرية (دوليتل) إلى وزير الخارجية

الإسكندرية : ٣ نوفمبر ١٩٤٥

كان مفروضاً أن يكون الإضراب الذي دعى إليه أمس ضد وعد بلفور تظاهرة سلمية ، لكنه تحول إلى عملية شغب واسعة . فقد اندفعت عصابات من الفوجاء تحمل الحجارة والمعصى وقامت باعتداءاتها على كل المنطقة المحيطة بمبنى القنصلية . وقد قتل عشرة أشخاص وجرح ثلاثمائة عندما اضطر البوليس للتدخل وإطلاق النار . وسمعت أن المتظاهرين كان يجري توجيههم بواسطة مصريين يلبسون ملابس نظيفة ويبدو عليهم أنهم من أنصار حزب الوفد . ولم يستطع البوليس أن يسيطر على الموقف إلا في الساعة الخامسة بعد الظهر ، وعندما كان الدمار قد أصاب بغير تمييز أعدادا كبيرة من المحلات اليهودية واليونانية والأرمنية وغيرهم من الأوروبيين . ولحقت أضرار بمبنى التسهيلات الأمريكى فى ميناء الإسكندرية . كذلك حدث اعتداء على قافلة من أربع لوريات عسكرية أمريكية وجرح اثنان من الجنود . كما تم تحطيم عيادة الدكتور كيرتس وهو يحمل جواز سفر أمريكيا . كذلك تحطمت نوافذ مبنى نادى البحارة الأمريكيين . لا تزال نتابع الحالة .

.....
.....

إمضاء

دوليتل



• وثيقة رقم ٥٤٥ - ١١/٠١/٨٦٧

مذكرة من السفير البريطانى فى واشنطن (السرور هاليفاكس) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : ٥ نوفمبر ١٩٤٥

تلقيت من المستر بيغن (وزير الخارجية البريطاني) اقتراحا كلفنى بعرضه عليكم ، وهو تهذئة التصريحات التي يبدو فيها التأييد لقيام دولة يهودية فى فلسطين ، ولفتح أبوابها لهجرة اليهود . فهو يرى أن موسم الحج إلى مكة يحل هذا الشهر ، وسيلبغ ذروته يوم ١٤ نوفمبر ، وليس من الضرورى أن نعطى لهذا المحفل الإسلامى الحاشد فرصة للتتهيج ضدنا إذا ما صدرت تصريحات يعتبرها العالم العربى معادية لهم . وأنتم تعرفون أن هناك تظاهرات عنيفة وسيئة قامت فى مصر أخيرا . كذلك قامت تظاهرات أشد عنفا فى كل مدن الشام . وهذا يشير إلى أن هناك تصلبا فى الرأى العام العربى .

إمضاء

هاليفاكسس

• وثيقة رقم ٦٤٥ - ١/١١ ن ٨٦٧

مذكرة من السفارة البريطانية فى واشنطن إلى وزارة الخارجية .

واشنطن : ٦ نوفمبر ١٩٤٥

يريد وزير الخارجية بيغن أن يلفت نظركم إلى تصاعد أعمال العنف المنظم التى تقوم بها القوات الصهيونية فى فلسطين ، الأمر الذى يضع السلطات المدنية والعسكرية فى هذا البلد تحت ضغوط شديدة . ومن الواضح أن الحركة الصهيونية تريد أن تدفع الأمور بأسرع مما هو لازم . وقد جاء كل من الدكتور وايزمان ومعه المستر شرتوك (شاريت) لمقابلة وزير الخارجية بيغن الذى لفت نظرهما بحزم إلى خطورة لوى نزاع السلطات البريطانية . وقد سألهما صراحة عما إذا كانت نيتهما هى حسم الموضوع بالقوة المسلحة ، لأن هذا هو ما تعنيه التصرفات الأخيرة . فالهجمات على المناطق العربية وحتى على القوات البريطانية تبدو منظمة ومخططة وتقوم بها قوات تعرف مهامها جيدا . وقد قال لهما المستر بيغن من نص مكتوب " ليس هناك من يدرك أكثر منى طبيعة الظروف والمناخ الفكرى الذى تواجهونه ، ومع ذلك فأنا لا أوافق على دفع الأمور بالقوة لأن ذلك سوف يؤدى إلى تعقيدات أنتم فى غنى عنها" .

إن وزير الخارجية يبعث إليكم رفق هذا بياناً عن حجم القوات الصهيونية المسلحة في فلسطين الآن ، وملخصه على النحو التالي :

١ - قوات الهاجاناه الخاضعة لتوجيهات الوكالة اليهودية وفيها الآن ما بين ستين ألفاً إلى ثمانين ألف جندي مسلح ، بمن فيهم قوات البالماخ أو وحدات الكوماندو وعددها ستة آلاف .

٢ - هناك القوات الأكثر تعصبا وهي قوات الإرجون زفاى لويصى ، وحجمها يقدر بما بين ستة آلاف إلى سبعة آلاف مقاتل .

٣ - هناك وحدات جماعات الإرهاب التابعة لشتيرن ، وهي تضم عدة مئات من المتخصصين المدربين على العمليات المثيرة .

.....

.....



بيـفـن

“ قرأت التوراة جيدا ولم أجد فيها ما يشير
إلى ضرورة أن يمتلك اليهود فلسطين”
(“إرنست بيغن” لـ“ناحوم جولدمان”)

توحى القراءة الأولى للوثائق البريطانية سنة ١٩٤٦ ، بأن الحكومة البريطانية بزعامة
“كليمينت آتلى” رئيس الوزراء العمالي ، كانت ترى في شأن فلسطين رأيا يختلف نوعا ما
عما ذهبتم إليه حكومة المحافظين بزعامة “ونستون تشرشل” رئيس الوزراء السابق والذي
اشتهرت عنه صهيونيته الجامحة .

لكن القراءة الثانية المتأنية لهذه الوثائق تظهر أن الحقيقة كانت أكثر تعقيدا من ذلك ،
لأن التأثير الصهيوني كان نافذا إلى قاعدة حزب العمال بأكثر من نفاذه في قمة حزب
المحافظين (فيما عدا “ونستون تشرشل” شخصا) .

وربما بدا أن سياسة “إرنست بيغن” وزير الخارجية العمالي القوي تأخذ منحى
مغايرا ، لكنه في الحقيقة كان طريقا آخر إلى نفس الهدف .

والحاصل أنه كانت أمام “بيغن” عدة اعتبارات تظهر واضحة في تصرفاته :

١ - وزير الخارجية البريطاني الجديد يريد قبل الحسم في فلسطين أن يصل إلى تسوية
لأوضاع البلدان العربية المحيطة بها ، وهي بالتحديد الأردن ، والعراق ، ومصر ،
وكلها بدرجة أو بأخرى تحت النفوذ البريطاني وفق ترتيبات أبرمت قبل الحرب .

- شرق الأردن منذ تنصيب "عبد الله" أميراً عليه سنة ١٩٢٢ ، تحت الحماية .
- والعراق مرتبط بمعاهدة سنة ١٩٣٠ .. وهي علاقة أكثر تقدماً بمسافة قصيرة من الحماية .
- ومصر ضيقة الصدر بمعاهدة سنة ١٩٣٦ التي أصبحت "غير ذات موضوع" ، على حد تعبير أحد وزراء خارجيتها في ذلك الوقت وهو "أحمد لطفى السيد" باشا .

وكان تقدير "بيغن" أن يبدأ بالأسهل وينتهي بالأصعب فى شأن هذه البلدان الثلاثة قبل البت النهائية فى موضوع الدولة اليهودية فى فلسطين . وفى ظنه أن الدولة اليهودية إذا نشأت قبل تسوية العلاقات مع شرق الأردن ، ومع العراق ، ومع مصر ، فإن المشكلة الفلسطينية سوف تتداخل بما هو أوسع منها ، ومن ثم تجعل المفاوضات المنتظرة مع هذه البلدان الثلاثة مشكلة عويصة بالاتصال والتشابك .

٢ - وكان "إرنست بيغن" يريد تفادى خطر آخر رآه قادماً ، وهو أن الولايات المتحدة الأمريكية تدخل منطقة الشرق الأوسط بطريق الاقتحام تقريباً ، وهذا يضع الحكومة البريطانية العمالية فى صورة تبدو معها وكأنها مستسلمة لمقادير أمريكية . فإذا حاولت أن تعترض فإن الاعتراض قد يؤثر على العلاقات الخاصة بين البلدين ، وهو أمر لا تتحمله بريطانيا التي خرجت من الحرب طامعة فى مساعدات أمريكية تعوض أعباءها .

وفى ذلك الشأن أيضاً فإن "إرنست بيغن" أحس بأن دول المنطقة التي يريد أن يسوى الأمور معها - الأردن والعراق ومصر - راحت تستند إلى التناقضات البريطانية الأمريكية وتلعب على أوتارها . وإذا لم يتوصل بسرعة إلى ترتيبات جديدة مع هذه الدول ، فإن الاقتحام الأمريكى قد يعطل ، وقد يخلق تعقيدات إضافية لا تتحملها الظروف .

٣ - ومن ناحية أخرى فإن "إرنست بيغن" كان يرى نفوذ الحركة الصهيونية الصاعد فى الولايات المتحدة . وهو لا يريد أن يترك الزمام فى يد الولايات المتحدة التي لا يعتقد بخبرتها فى قضايا الشرق الأوسط ، ويخشى أنها تقتحمه مثل "ثور اندفع إلى محل لبيع الزجاج والخزف والصينى ، ومن الأرجح أنه سوف يكسر كل ما فيه" . وكان "بيغن" يخشى من أن إنشاء الدولة الإسرائيلية قد يتم الآن برعاية الولايات المتحدة الأمريكية وليس بريطانيا ، وذلك ما لا يريده . ثم إنه إلى جانب ذلك يخشى أن تحصل الدولة اليهودية على كل فلسطين ، وإذا حدث ذلك فإنه سوف يعطيها وضعاً أكبر مما تريده بريطانيا التي كانت مستقرة على التقسيم بحيث تظل فى يدها فرصة إقامة ما تراه من توازنات .

وكان الفكر البريطاني الإستراتيجى منذ أكثر من قرن يقوم على ضرورة إنشاء العازل الحاجز بين مصر وسوريا ، تحقيقا لمطلب الفصل بين ضلعى الزاوية الاستراتيجية جنوب شرق البحر الأبيض . لكن وزير الخارجية البريطانى لا يريد لهذا العازل أن يملك قوة مستقلة غالبية تعتمد على واشنطن ولا تأبه بلندن ، ومن ثم تتمكن من السيطرة على المنطقة ولحسابها ، وليس لحساب السياسة البريطانية فى كل الأحوال .

وقد حاول "بيفن" أن يقنع الحركة الصهيونية كى تتذرع بالصبر ، وتكررت لقاءاته بقياداتها .

ويروى الزعيم الصهيونى "ناحوم جولدمان" فى مذكراته التى صدرت تحت عنوان "المأزق اليهودى" ، أنه فى لقاء مع "بيفن" سنة ١٩٤٦ فوجئ بوزير الخارجية البريطانى يوجه إليه سؤالاً صريحاً :

"- ماذا تريدون بالضبط فى فلسطين ؟

ورد "جولدمان" :

- نريد فلسطين نفسها .

وقال "بيفن" :

- هل أفهم أنكم تريدون فلسطين كلها ؟

وهز "جولدمان" رأسه إيجاباً .

وقال "بيفن" :

- هل تريد من الحكومة البريطانية أن تتنازل عن أهم منطقة استراتيجية فى العالم لدولة يهودية فى فلسطين ؟

ورد "جولدمان" طبقاً لقوله :

- سيدى وزير الخارجية .. ولم لا ؟

وابتسم "بيفن" وقال :

- لكن العهد القديم لا يقول ذلك . وقد قرأت التوراة ولم أجد فيها ما يشير إلى حق اليهود فى امتلاك كل فلسطين .

وكان رد "جولدمان" :

- وأنا أيضاً قرأت التوراة ولم أجد فيها ما يدل على أن الحكومة البريطانية لها الحق فى امتلاك كل فلسطين ."



وبدأ "بيفنن" سياسته فعلا بترتيبات جديدة مع شرق الأردن . وفى مارس ١٩٤٦ تم توقيع اتفاقية جديدة - تحل محل اتفاقية الحماية - بين الحكومة البريطانية وبين الأردن .

وبمقتضى الاتفاقية فإن إمارة شرق الأردن أعيدت تسميتها لتصبح المملكة الأردنية الهاشمية ، وأصبح "عبد الله" ملكا عليها وليس مجرد أمير .

وكان القصد المطلوب وقتها تهئية الملك "عبد الله" لكى يأخذ الجزء العربى من فلسطين التى سوف يجرى تقسيمها بين العرب و اليهود ، وبحيث تنشأ من الاثنين - شرق الأردن وغربه إلى خطوط التقسيم - دولة عربية تملك إمكانيات الحياة بمساعدة بريطانيا .

وكانت السياسة البريطانية ترى - استمرارا لتطبيق سياسة الفصل بين الداخل والساحل فى العالم العربى - أن الساحل الفلسطينى سوف يدخل معظمه فى الدولة اليهودية ، وأن الداخل الفلسطينى سوف يستحيل عليه أن يكون كيانا مستقلا ، وبذلك فإن توجيهه إلى عمان وربطه بملكها هما أفضل الترتيبات المطروحة .

ثم إن خلق دولة أردنية شرق النهر وغربه ، ووجود جيش لا بأس به - كالفيلق العربى تحت قيادة الجنرال البريطانى "جلوب" باشا أو أى قائد غيره - يعطيان بريطانيا فرصة ما فى ضبط التصرفات الإسرائيلية ، وبحيث لا تجمع بها المطالب وتخسرج عن طوع الاستراتيجية البريطانية .

كانت تلك خطوة "بيفنن" الأولى والسهلة !



وجاء الدور على الخطوة الثانية مع العراق .

وكانت الحركة الوطنية العراقية تلح على إعادة النظر فى معاهدة سنة ١٩٣٠ ، ودخل "بيفنن" فى مفاوضات بالفعل مع السيد "صالح جبر" رئيس وزراء العراق ، وتوصل الطرفان إلى خطوط اتفاقية دارت حولها المناقشات بين المعارضة والتأييد .

وكانت الأوضاع العامة فى العراق شديدة القلق ، فهذا البلد العربى عاش تقلصات سياسية عنيفة بدأت بوفاة الملك "فيصل" الأول ، ثم بأساسة مصرع ولى عهده غازى فى حادث سيارة غامض داخل قصر الزهور فى بغداد ، ثم جاء انقلاب عسكرى بقيادة "بكر صدقى" ، ثم جاءت ظروف الحرب وإذا الثورة تندلع فيه تحت زعامة السيد "رؤيد عالى الكيلانى" ، وبدأت الثورة معادية لبريطانيا وقريبة من ألمانيا ، وتعرض العراق لغزو الجيش البريطانى ، وكانت طليعته هى الفيلق العربى الأردنى بقيادة الجنرال "جلوب" باشا، ثم فشلت الثورة وعادت الأسرة الهاشمية - فرعها فى العراق - إلى بغداد فى ظروف عاصفة .

كان "نورى السعيد" (باشا) - ذلك الصديق القديم لـ "عزيز المصرى" - قد أصبح رجلا الهاشميين القوي فى العراق وكان من أنصار ترتيب مع بريطانيا يحصل محل معاهدة سنة ١٩٣٠ ، لكن المعارضة الوطنية العراقية كانت دائما تشك فى نواياه ، وهكذا فإن "بينن" كان عليه أن يتفاوض مع رجل آخر غير "نورى السعيد" الذى آثر أن يظل بعيدا حتى لا يثير الظنون .

وكانت تلك تجربة قلقة ومعرضة للشكوك !



ثم حان أوان الخطوة الثالثة مع مصر لترتيبات جديدة تحل محل معاهدة سنة ١٩٣٦ .

كانت مصر خارجة من الحرب العالمية الثانية فى حالة ثورة ، وكان مطلبها فى الاستقلال وجلاء القوات الأجنبية قاطعا لا لبس فيه .

وفوق ذلك فإن مصر كانت قد عثرت على هويتها العربية ، وتنهبت إلى دورها فى محيط أمتها ، وكان تأثير الشخصيات التى تنتمى إلى مدرسة الشرق قد تنامى ، وأكثر من ذلك فقد كان بين ساستها من لمحو أن ما يجرى فى فلسطين ، فضلا عن مشكلة إقامة دولة يهودية فيها ، هو فى جزء منه رغبة تسعى إلى عزل مصر وحجزها فى المشرق .

كانت الحركة الوطنية المصرية قد جمعت قوى كثيرة من كل الأحزاب والجماعات والاتجاهات فى شبه جبهة وطنية عريضة تمكنت من تحريك كل قوى الشعب المصرى فى مطلبين :

الاستقلال الوطنى - بوحدة مع السودان تحت التاج المصرى .

ثم قضية فلسطين - جار عربى ومعبر إلى الشرق .

وسقطت وزارة "النقراشى" تحت ضغط الحركة الوطنية ، وتألقت وزارة جديدة برئاسة "إسماعيل صدقى" باشا الذى ألف هيئة قومية للتفاوض مع الإنجليز - (قاطعها حزب الوفد) - ثم راح "صدقى" باشا يتباحث مع "إرنست بيغن" للوصول إلى اتفاقية جديدة تحل محل معاهدة سنة ١٩٣٦ .

وانقسمت هيئة المفاوضات وتعددت فيها الاتجاهات ، ومضى "إسماعيل صدقى" (باشا) وحده مصمما على التوصل إلى اتفاق بانست خطوطه تحت عنوان "مشروع معاهدة صدقى - بيغن". لكن مسار مشروع المعاهدة واجه عواصف شديدة .

وربما كان من الضروري ملاحظة أن مطلب الاستقلال تداخل بشكل واضح مع قضية فلسطين ، ولعله من الضروري ملاحظة أن اغتيال اللورد "موين" وزير الدولة البريطانى أمام بيته فى الزمالك ، ثم شمول قاتليه أمام محاكمة علنية ، أعطيا لمصر فرصة أن تطل من الداخل على فكر وتوجهات الحركة الصهيونية فى فلسطين . والذى حدث هو أن الشابين المتهمين بقتل اللورد "موين" وفقا أمام المحكمة وأسهب فى شرح "الدوافع الوطنية" التى دفعتهما إلى اغتيال وزير الدولة البريطانى فى القاهرة .

وكانت مصر كلها تتابع وترى وتصغى باهتمام .



وتحرك الملك "فاروق" بسرعة يريد أن يضع نفسه فى مقدمة الحركة الوطنية والقومية . ومع أن بعض الدارسين يرون أن تحرك الملك السريع كان متعلقا بمصالحه أكثر منه إيمانا بأفكار وطنية وقومية ، إلا أن ذلك منطوق ينطوى على تعسف شديد .

إن الناقدين للملك يرون أنه تحرك مدفوعا برغبة فى تعويض الخسائر التى لحقت بسمته وهيبته وشوهرته حتى بالمعنى الطبيعى المباشر ، وربما كان بعض ذلك صحيحا ، ولكن سحبه على الإطلاق ودون تدقيق هو موضع التعسف . ذلك أنه يصعب تجريد أى إنسان مهما كانت أحواله من إحساس بالمنافع العام المحيط به ثم التفاعل مع ذلك المناخ . وإذا كان هذا الإنسان هو ملك البلاد فمن الطبيعى أن يكون التزامه إزاء المناخ العام قويا حتى وإن قيل إن ذلك الالتزام أقرب إلى زاوية العلاقات العامة منه إلى زاوية القناعات والمبادئ .

وفى الحالتين ، سواء كان إحساس الملك عميقا أو كان مجرد تظاهر فإن موقفه فى حد ذاته يعكس حقيقة أنه كان أمام هدف يلتقى عليه إجماع شعبه ، أو إجماع أغلبية مؤثرة فيه .

وفى كل الأحوال فإن تبنى الملك "فاروق" لسياسة التوجه شرقا كان له صدق متجاوب مع فترات النهوض فى التاريخ المصرى القديم وعلى امتداده إلى العصر الحديث ، وآخره تجربة جده الأكبر "محمد على" .



إن الملك "فاروق" خطا خطوته الأولى بادئا من باريس !

كان الحاج "أمين الحسينى" مفتى فلسطين وقائد ثورة سنة ١٩٣٦ مختبئا فى باريس التى قصد إليها بعد سفرة طويلة ومرهقة . فهو بعد فشل الثورة وصدور أمر بالقبض عليه هرب من فلسطين قاصدا إلى العراق ، ومنها إلى إيران ، ومنها إلى تركيا ، ومنها إلى إيطاليا وألمانيا ، فلما انتهت الحرب بهزيمة آخر بلد لجأ إليه توجه خفية نحو باريس .

وفى باريس وجد الحاج "أمين الحسينى" أن السفارة المصرية فى العاصمة الفرنسية تبحث عنه فى هدوء بواسطة بعض اللاجئين العرب فيها ممن ظن السفير أنهم على اتصال بزملائهم فى المنفى . كان السفير وقتها هو "محمود فخرى" باشا ، وهو زوج الأميرة "فوقية" أخت الملك "فاروق" من أبيه . واستطاع "فخرى" باشا أن يعثر على المفتى ، والتقاء فعلا ليقول له "إن الملك "فاروق" يرحب به فى مصر وهو بلد عربى شقيق لفلسطين ومجاور لها" . وكان الحاج "أمين" ذكيا ، فبعد أن أبدى الترحيب أضاف ملاحظة قال فيها ما مؤداه "إنه وهو يضع دعوة الملك فاروق على رأسه وفى قلبه ، يتمنى ألا يكون من شأن إقامته فى مصر أن يسبب إحراجا لملكها أو لحكومتها" .

والغريب أن عملاء الوكالة اليهودية فى باريس ، وكانوا يبحثون عن مخبأ الحاج "أمين الحسينى" فيها ، رصدوا لقاءه مع "فخرى" باشا ، ورتبوا محاولة لخطفه وكانوا يريدون استجوابه ثم الخلاص منه بعدها . لكن مفتى فلسطين استطاع أن يدبسر أمره وأن يصل إلى "مارسيليا" ليستقل منها باخرة حملته إلى الإسكندرية حيث كان فى انتظاره ضابط من الحرس الملكى .

كان الملك يتصرف بعيدا عن حكومته وبدون علم رئيس وزرائه "إسماعيل صدقى" باشا . ومن المفارقات (وطبقا لرواية وكيل الديوان الملكى "حسن يوسف" باشا فى شهادة مسجلة

بصوته) أن رئيس الوزراء عرف من صديقه "رئيسه قضاوى" بك وهو من أقطاب الجالية اليهودية وزميل لـ "صدقى" باشا فى اتحاد الصناعات "أن مفتى فلسطين وصل إلى مصر خفية وأن القصر على علم بالموضوع". وأشار "صدقى" باشا مسألة المفتى مع الملك فى اجتماع بينهما كان يعرض فيه نتائج محادثاته مع اللورد "ستانسجيت" ، الذى رأس الجانب البريطانى فى هذه المحادثات . ويظهر أن الملك فوجئ بما أشاره رئيس وزرائه ، وكان رد فعله هو الإنكار ، لكنه عاد فى نهاية المقابلة وقال لـ "صدقى" باشا "إنه يتمنى لو كان ذلك صحيحا وهو لا يرى بأسا من لجوء المفتى إلى مصر ، وإنه إذا طلب الحاج أمين الحسينى هذا الحق فى مصر فإنه سوف يوافق عليه فوراً" .

وكان لـ "صدقى" باشا رأى مختلف عرضه على الملك ومؤداه "أنه من الخير أن نغرى من قضية المفاوضات مع الإنجليز فى جو هادئ . وإن كل هذا الجو العام السائد فى مصر عن القضايا العربية هو توريط لا لزوم له ومن شأنه أن يضايق "اليهود" وهم أصحاب أقوى نفوذ مالى فى مصر وفى العالم" .

ويظهر أن الملك الذى لم يجد تشجيعا من رئيس وزرائه آثر أن يتكتم على الموضوع وخشى أن يصل "صدقى" باشا إلى الحقيقة بواسطة وزارة الداخلية ، وهو فى ذلك الوقت مسئول عنها إلى جانب رئاسته للوزارة . وهكذا فإن الملك أمر بأن يتوجه المفتى ضيفا عليه فى مزارعه فى "أنشاص" ، وبالفعل ذهب الحاج "أمين" إلى هناك .



ثم قام الملك "فاروق" بخطوة ثانية ، فدعا إلى أول مؤتمر قمة عربى فى مزرعته الخاصة فى "أنشاص" ، واستجابت للدعوة كل الدول العربية القادرة على نوع من الحركة فى ذلك الوقت ، وهى السعودية واليمن والعراق وسوريا ولبنان والأردن .

وفى ٢٨ مايو ١٩٤٦ صدر عن الاجتماع بيان يمكن اعتباره بداية عمل عربى مشترك يتصدى لما يجرى فى فلسطين .

كان القرار الأول للمؤتمر "رفض توصيات لجنة بريطانية - أمريكية ، أشارت بفتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود" .

وكان القرار الثانى "إعلان من ملوك العرب ورؤسائهم بأنهم متمسكون باستقلال فلسطين والحفاظ على هويتها العربية" .

وكان قرار الملوك والرؤساء الثالث "تشكيل هيئة وطنية تمثل كل القوى الفلسطينية بحيث يتفقون جميعا على منهج واحد ينأى بهم عن الخلافات التي تستغلها الحركة الصهيونية وتنفذ من ورائها إلى تحقيق أهدافها".

كان المغزى الحقيقي لمؤتمر "أنشاص" أن مصر بدأت تتجه نحو المشرق . لم يعد شاغلها هو البحر الأبيض وما وراءه ، ولم يعد همها مجرد إلحاق السودان بها تحت التاج المصرى ، وإنما تحول اهتمامها بطريقة واضحة إلى فلسطين ، معبرها من سيناء إلى محيط أوسع ترتبط به وهى تستشعر عمق هذا الارتباط وجذوره التاريخية وآفاقه المستقبلية .

ثم تعزز هذا المغزى حين أنشئت الهيئة العربية العليا لفلسطين تحت زعامة مفتى القدس الحاج "أمين الحسينى" ، واتخذت الهيئة من القاهرة مقرا لها .



كان الملك "فاروق" قد أضاف إلى اجتماع "أنشاص" على مستوى القمة العربية لمسة مسرحية ألحقها به فى اللحظة الأخيرة . فقبل أن ينتهى الاجتماع ، أخطر الملك ضيوفه بأن الحاج "أمين الحسينى" موجود بنفسه فى "أنشاص" ، وهو يقترح أن يدعو ليرحبوا به إظهارا لتضامنهم مع الشعب الفلسطينى . ولم يعترض أحد لأن المفاجأة أخذت الكل . وفى الواقع فإن أحدا منهم لم يكن لديه اعتراض ، وحتى الملك "عبد الله" - الذى كان يعتبر المفتى عدوا له - لم يبد اعتراضا . وبالفعل فإن الحاج "أمين الحسينى" دخل فصاصح الجميع ، وبدا أن اللحظة له ، وللفلسطين .

وفيما بعد فإن الملك "عبد الله" قال^(٤) أنه من ساعة أن رأى المفتى تشاءم من ظهوره على ساحة الأحداث . واستطرد قائلا :

" هذا الرجل لم يظهر فى بلد إلا وحلت المصائب بهذا البلد" .

تصدى لثورة فلسطين وفشلت الثورة . وذهب إلى العراق فقامت فيه حركة رشيد عالى الكيلانى ، وضربها الإنجليز . وخرج من بغداد إلى طهران فإذا شاه إيران رضا خان يفقد عرشه ويخلسع وينفى إلى جنوب أفريقيا . وخرج من إيران إلى إيطاليا فسقط موسوليني

(٤) حديث للملك مع "محمد حسنين هيكل" جرى فى شهر يونيو ١٩٤٨ .

وقبض عليه وعلقت جثته من الخطاف الحديدى لجزار ، وتوجه إلى برلين فإذا الجيش الألمانى يهزم وهتلر يضطر إلى الانتحار ...

ثم ذهب المفتى إلى مصر . "وسكت الملك ، وقال له محدثه :
" ولكنه جاء إلى مصر ولم يحدث شيء " .

ولم يتردد الملك "عبد الله" وإنما قال على الفور :

" يا بنى .. جاءتها الكوليرا " !

ووقتها كان وباء الكوليرا قد تفشى فعلا فى مصر !

ولم يكن الملك "عبد الله" هو وحده الذى لم يسترح لظهور المفتى فى مصر ، ولكن "صدقى" باشا أحس هو الآخر بالضيق ، لأن الملك "فاروق" أخفى المسألة عنه وفاجأه بها ، وأيضاً لأنه كان قد أخطر عدداً من أصدقائه اليهود بأن المفتى ليس فى مصر كما قيل لهم.

وكان مما يستوقف النظر أن "صدقى" باشا أصدر بياناً عن رئاسة مجلس الوزراء بشأن مجىء المفتى إلى مصر ، جاء فيه بالنص :

" إذا كانت الحكومة المصرية قد سمحت بإقامة السيد "أمين الحسينى" فى ديارها ، فهى ترجو فى الوقت عينه ألا ينظر (المفتى) إلى هذه المسألة إلا بنفس الروح الكريمة التى انبعث عنها قرارها أداء لواجب المجاملة .

ولا يخفى أن مصر اليوم تجتاز مرحلة من أدق مراحل حياتها السياسية . نرجو لها التوفيق و الفلاح فى ظل الهدوء والنظام ، ولا ريب أن سماحته مقدر لذلك .
كان البيان الحكومى يعكس مشاعر رئيس الوزراء ، ولا يعكس أفكار الملك .



إن الحركة الصهيونية فى فلسطين وفى الوكالة اليهودية تحت قيادة "دافيد بن جوريون" كان لديها ما هو أكثر من حكايات ملك عربى عجوز ، ومأزق رئيس وزراء عراقى وقع معاهدة مع بريطانيا لا يستطيع تمريرها ، أو رئيس وزراء مصرى متوجس من مجىء مفتى فلسطين إلى القاهرة دون علمه . ولعلها كانت تتابع التحولات فى مصر وتستشعر أن دخول مصر إلى ساحة الصراع كفييل بإحداث تغيير فى موازين هذا الصراع .

فمصر بقوتها الذاتية خطر لا يستهان به .

ثم إن مصر بتأثيرها العربي يمكن أن تكون العامل المساعد على إبراز إرادة عربية موحدة .

وأخيرا فإنه إذا استقلت مصر ، ومضت بعد الاستقلال إلى مطالب التنمية ، فإنها تستطيع أن تعطي للعالم العربي قاعدة قادرة على مواجهة التحدى .

وهكذا فإن ربيع وصيف سنة ١٩٤٦ شهدا تركيزا يهوديا وصهيونيا غير مسبوق فى القاهرة :

● بعد يومين من اجتماع "أنشاص" طلب الحاخام "حاييم ناحوم" أفندى مقابلة مع الملك "فاروق" ، وليس هناك محضر لهذه المقابلة أو ورقة مكتوبة عنها ، ولكنه وفقا لشهادة مسجلة فإن وكيل الديوان الملكى "حسن يوسف" باشا يروى "إن الحاخام أبدى للملك خشيته من الاندفاع المصرى نحو قضية فلسطين ، وأبدى أنه لا يؤيد قيام دولة يهودية فيها ، ولكنه يرى أن وقوف مصر ضد هجرة اليهود إليها ينطوى على إنكار لكل ما تعرض له اليهود فى أوروبا تحت الاحتلال النازى ."

ثم إن الحاخام أظهر قلقه من أن يؤدى الاندفاع المصرى إلى موجة من العداء ضد "رعايا الملك" اليهود ، وهم دائما من المخلصين لعرشه ولبلده الذى هو بلدهم ، وأنه "حامى الجميع" ، واليهود بالذات معه ومع والده من قبله "أثبتوا دائما ولاهم وتفانيهم فى خدمته وخدمة البلاد" .

وعبر الملك "فاروق" عن مسئوليته عن حماية "رعاياه اليهود" لا يفرق بينهم وبين المسلمين أو الأقباط ، كما أبدى رغبته فى أن يستعمل "يهود مصر" نفوذهم مع يهود فلسطين لكى يخففوا من غلوائهم ضد العرب ، موضحا أنه فى حالة وقوع صدام فى فلسطين فإن حكومته لا تستطيع أن تظل بعيدة عن المشاعر العربية .

● وطوال صيف ١٩٤٦ فإن "إياهو ساسون" - مستشار الشؤون العربية فى الوكالة اليهودية (ووالد "موشى ساسون" الذى أصبح فيما بعد سفيرا لإسرائيل فى القاهرة) - أقام إقامة شبه كاملة فى مصر . وتظهر تقارير القسم المخصوص (البوليس السياسى) المرفوعة للديوان الملكى أن "إياهو ساسون" اجتمع برئيس الوزراء المصرى "إسماعيل صدقى" باشا ، كما اجتمع بعدد من الساسة المصريين ، وبينهم "محمود فهمى النقراشى" باشا الذى كان رئيسا للوزراء قبل "صدقى" باشا وبعده . واجتمع أيضا مع "مصطفى النحاس" باشا وهو زعيم المعارضة فى ذلك الوقت ، واجتمع أيضا مع عدد من كبار موظفى وزارة الخارجية . كما أن "رئيسه قطاوى" بك رتب له اجتماعا فى بيته مع عدد من المثقفين وقادة الرأى العام فى مصر .

• إن "إلباهو ساسون" عقد أيضا ثلاثة اجتماعات أو أربعة مع "حسن يوسف" باشا وكيل الديوان الملكي ، ونقل إليه رسائل موجهة إلى الملك "فاروق" من زعماء الحركة الصهيونية وبيّنهم "وايزمان" و"بن جوريون". بل إن "بن جوريون" جاء بنفسه إلى القاهرة ونزل في بنسبون صغير في عمارة الخديو بشارع عماد الدين ، وكان هدفه أن "يقدم للملك ولبن يهيمه أن يسمعه من المصريين كل التأكيدات التي يريدون سماعها عن حسن نوايا الوكالة اليهودية في فلسطين تجاه مصر وشعبها".



إن هناك استدرাকা يقتضيه الإنصاف ، فكل هؤلاء السياسيين المصريين الذين قابلوا "إلباهو ساسون" وغيره ، لم يكونوا متورطين في شيء ولا يمكن اتهام أحد منهم بالتعاون مع الصهيونية ، ذلك أن هذه الحركة لم تكن ظاهرة بعد للوعى المصرى العام ، سواء على مستوى الشعب أو على مستوى الحكومة . ثم إنه كان هناك خلط باستمرار بين ما هو مألوف من أمر يهود مصر وما بين الحركة الصهيونية ، مضافا إلى ذلك أنه بدا أن مصر تستطيع أن تلعب دورا في القضية الفلسطينية يصد عن شعب فلسطين مصاعب يمكن تلافيها .

وكان "النجاس" باشا من أنصار هذا الرأى . وقد سجل الحاج "أمين الحسيني" إنه عندما ذهب لمقابلة "النجاس" باشا ، فوجئ به يقول له : " يا أخى لماذا لا تسوون أموركم مع اليهود عندكم وترىحوننا جميعا من "وجع الدماغ" ! "

والشاهد أن كل الاتصالات التي دارت بين ساسة وزعماء مصريين في هذه الفترة وبين ممثلين عن الوكالة اليهودية أو عن الحركة الصهيونية العالمية كانت داخل إطار سياسى يمكن فهمه ، وربما - وليس هذا اتهاما - أن الوحيد الذى قد لا تنطبق عليه هذه المقولة هو "إسماعيل صدقى" باشا رئيس الوزراء ، الذى قد يمكن القول إن مصالحه تشابكت مع مسؤولياته .

وربما أن "صدقى" باشا كان لديه دافع إضافى ليس متوفرا لغيره ، فقلعه ظن أنه يستطيع أن "يجامل اليهود في فلسطين ، شريطة أن يبذل اليهود جهودهم وأن يستعملوا نفوذهم فى إنجلترا لتسهيل الوصول إلى اتفاق بين مصر وبريطانيا ، وفى ذلك الوقت فإن مستقبل "صدقى" باشا وماضيه كانا مرتبطين بنجاح مفاوضات "صدقى - بيفن" .

إن "صدقى" باشا لم يعيش ليقرأ الوثائق البريطانية التي تكشف له كيف أن الحركة اليهودية والصهيونية فى العالم كانت تبذل جهودها للحيلولة دون اتفاق بين مصر

وبريطانيا على معاهدة جديدة تستقر بها الأمور بين البلدين قبل أن تقوم الدولة اليهودية فى فلسطين . فقد كانت القيادات الصهيونية - وأولها "دافيد بن جوريون" فى ذلك الوقت - ترى "إن أى اتفاق تتوصل إليه بريطانيا مع مصر سوف يدعم موقفها فى الإصرار على إعطاء اليهود قسما من فلسطين فقط وليس كل فلسطين كما كان الأصل ."

ثم إن "دافيد بن جوريون" كان يستغل تعثر المفاوضات المصرية البريطانية حول مستقبل قاعدة قناة السويس لى يقنع بريطانيا أن دولة يهودية تقوم فى فلسطين سوف تكون على استعداد لأن تعقد معها اتفاقية تضمن لها قاعدة عسكرية فى النقب تتمكن بها من حماية قناة السويس وتأمين وجود قريب لها فى مصر يكون باستمرار عنصرا ضاغطا على الاستقلال المصرى وحدود تأثيره وفعله !

الفصل الخامس

من يملك القوة؟!

”من يملك القوة يملك الحقيقة والمنتصرون هم الذين
يصنعون التاريخ ويكتبونه أيضا!“

بن جوربون

" إننى شديد الأسف لأنكم رفضتم إعطاء مهلة
عدة ساعات لرئيس وزراء بريطانيا "

("كليمنت آتلى" رئيس وزراء بريطانيا فى بريقة سرية
لـ"هارى ترومان" رئيس الولايات المتحدة الأمريكية)

بالنسبة لـ "بن جوربون" كان قيام الدولة اليهودية فى فلسطين أمرا مفروغا منه ،
والمشكلة الوحيدة أمامه هى : متى الإعلان عن قيامها ؟

وكذلك لم تكن المشكلة بالنسبة له هى أمن الدولة بعد إعلان قيامها ، فقد تولى هو
مبكرا بناء القوة القادرة على ضمان هذا الأمن وفرضه . والمشكلة الوحيدة هى : من أين
يبدأ ؟

وكان منطوق "بن جوربون" منذ تلك الأيام أن المطلوب ليس فرض الحرب دفاعا عن
الدولة ، وإنما فرض السلام ضمانا لبقائها وقوتها ، وكانت المشكلة الوحيدة هى : كيف
يتحقق قبول العالم العربى ؟

وكان "بن جوربون" يدرك أن الإجابة على "متى ؟" مرهونة بموقف الولايات
المتحدة...

وأن الإجابة - على "من أين يبدأ ؟" - مرهونة بمعركة تركز بالدرجة الأولى على مصر
وعلى الأردن ...

وأن الإجابة على "كيف ؟" مرهونة بتسليم العرب بأن المطلوب منهم ليس الاعتراف
بأسر واقع ، وإنما بالتعامل معه طبق قوله "اقتصاديا وسياسيا وثقافيا ، وبدون حدود أو
حواجز ، وبغير شروط من أى نوع" .



وفى السنوات الحاسمة ١٩٤٦ و ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، راحت خطوط المواجهة تتحدد ، وكل طرف فيها يحدد أولوياته ويحاول رسم خرائطه .

١ - وكانت بريطانيا تخوض معركة شبه يائسة ، فقد بدأت تتحقق يوما بعد يوم ، على حد تعبير السير "هارولد بيللى" مدير مكتب "إرنست بيغن" وزير الخارجية وقتها (وقد أصبح سفيرا لبريطانيا فى مصر مرتين بعدها) :

"إننا نستطيع أن نفتح البوابات أمام طوفان ، لكنه تجئ لحظة ندرك فيها أن فتح البوابات شئ، والتحكم فى تدفق المياه شئ، آخر . إن بريطانيا التى "بدأت مشروع دولة يهودية فى فلسطين" ما لبثت بعد ذلك أن فقدت إمكانية السيطرة على المشروع ."

والواقع أن العنصر الذى أخذ من بريطانيا فرصة السيطرة على المشروع ، وحوّل الدخول اليهودى إلى فلسطين من هجرة إلى طوفان ، هو انتقال قيادة الغرب نهائيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

٢ - ولقد أقبلت الولايات المتحدة إلى تسلّم مقاليد الشرق الأوسط ونظرتها إلى إقليم بأكمله وليس إلى بلدان متفرقة فيه ، وقد دخلت المنطقة وهى منهكة فى مواجهة عالمية مع الاتحاد السوفيتى لا بد أن يخضع الكل لضرورتها مهما كانت رغباتهم .

ثم إنها أقبلت وتأثير الحركة الصهيونية فى الولايات المتحدة نافذ إلى أعصاب القرار السياسى فيها ، رغم أن مصالحها على أراض عربية وفى وسط شعوب عربية . وكان ذلك عاملا فاعلا وصل فيه القرار الأمريكى إلى حد التصادم مع ظاهر المصلحة الأمريكية . وفى هذا السياق يجىء ذلك الحوار الشهير بين الرئيس الأمريكى "هارى ترومان" وبين الوزير المغفوس فى جدة الكولونيل "إيدى" .

كان "إيدى" يحاول أن يلفت نظر رئيس الولايات المتحدة إلى خطورة سياسته على المصالح الأمريكية ، ورد "ترومان" بصراحة قائلا : "هل لدى العرب أصوات فى مينوسوتا يعطونها لى فى انتخابات الرئاسة أو يحجبونها عنى ؟ ..."

ورد "إيدى" بالنفى . وحسم "ترومان" احتجاجات ممثله فى جدة بقوله : "إن اليهود لديهم أصوات فى مينوسوتا" !

[يروي الكاتب الأشهر "جور فيدال" فى مقدمته لكتاب "التاريخ اليهودى ... عبء ثلاثة آلاف سنة" أنه سمع من الرئيس الأمريكى الأسبق "جون كنىدى" أن الرئيس "هارى ترومان" كان يشعر أثناء ترشيحه للرئاسة فى انتخابات سنة ١٩٤٨ أن معظم أصدقاء سلفه "روزفلت" قد تخلوا عنه ، وأنهم لا يعتقدون بإمكانية نجاحه ، و"إن معنوياته ساءت إلى أن جاء يوم دخل عليه فيه أحد النشطين فى الحركة الصهيونية فى محطة توقف عندها قطار حملته الانتخابية ، ثم قدم إليه حقيبة يد فيها ٢ مليون دولار نقداً وهو يروجوه اعتبارها مساهمة فى حملته الانتخابية . " وروى "فيدال" أن "كنىدى" قال له بعد ذلك : "وهكذا اعترفنا بدولة إسرائيل قبل إعلان قيامها" .]

ثم أضيف إلى ذلك عنصر آخر لصالح منطق "ترومان" وإن اختلف مع أسبابه ، ذلك أن إسرائيل التى لم تكن تستطيع أن تقوم أو تحمى قيامها إلا بالولايات المتحدة ، أثبتت أنها صديق موال وقادر على تنفيذ خطط السياسة الأمريكية فى المنطقة .

٣ - وكانت إسرائيل قد وضعت خطوطها وراحت ترسم حدودها على نطاقات متعددة ومتوسعة :

- حدود للدولة : تتمدد باستمرار مع مدى ما تصل إليه قوة جيشها (وهو تعبير "بن جوريون") .
- وحدود للأمن : تتسع بعد ذلك أكثر لتشمل التصدى لأى خطر يهدد أمنها مستقبلا سواء كان ذلك الخطر قريبا من حدودها القائمة أو بعيدا عنها .
- وحدود للمصلحة : تتطلع إلى موارد البترول ، ومصادر المياه ، وأسواق التجارة ، وخطوط المواصلات ، وحرية الانتقال والسفر ، إلى آخره .
- ٤ - وكان الشعب الفلسطينى فى الموقف الصعب . فأرض الصراع أرضه ، وقد أعطى قسارى ما عنده فى ثورته التى استمرت من سنة ١٩٣٦ إلى قيام الحرب العالمية الثانية ونهايتها .

وقد رأى أن قوى الصراع أكبر من طاقته . وحدث ذلك فى نفس الوقت الذى بدأ فيه اهتمام بقية الدول العربية بشأن فلسطين يتنامى مع تنامى فكرة الوحدة العربية ، وقيام جامعة الدول العربية .

وهكذا فإن هذا الشعب الفلسطينى ساوره وهم أنه وقد أصبحت قضيته عربية ، إذن فإنه يستطيع أن يواجه المستقبل جزءا من كل ، ولما كان الكل هو الأكبر فإن الجزء يستطيع أن يطمئن .

٥ - لكن "الكل العربي" لم يكن متكاملًا ، أو منسجمًا ، أو حتى واعيا بأبعاد المواجهة.

- كانت الأسر المالكة الحاكمة في مصر والعراق والسعودية في تنافس مع بعضها تسعى إلى تثبيت عروشها في ظروف تصادمت فيها الأفكار والتيارات .
- ثم إن الدول العربية المؤثرة - (مصر وسوريا والعراق مثلا) - كانت لديها اجتهادات متباعدة محكومة بطروفيها المحلية ، وأولها مطلب الاستقلال من قوة أوروبية بعينها .
- ولم تكن الشعوب العربية على إحاطة بحقيقة الخطط التي ترسم للمنطقة ومخاطرها. وأضيف إلى ذلك عاملان :

* إن تلك كانت أول مرة يفكر فيها العرب على المستوى الإستراتيجي لمنطقة بأكملها.
* ثم إن تلك كانت أول مرة يخطر فيها للعرب احتمال لجوئهم إلى القوة المسلحة .
كان عهدهم بالاستراتيجية والعسكرية قد بعد به الزمن .

والغريب أن ذلك بالنص تقريبا كان تعبير "عبد الرحمن عزام" باشا الأمين العام لجامعة الدول العربية في حديث له سنة ١٩٤٦ مع البريجادير "كلايتون" مسئول المخابرات العسكرية البريطانية للشرق الأوسط . وقد قال "عزام" باشا للبريجادير "كلايتون" :
"هذه أول مرة نفكر فيها ونعمل كدول مستقلة . بل إننا لسنا في واقع الأمر دولا مستقلة ، وإنما دول شبه مستقلة" !



كانت المشكلة الملحة على كل الأطراف ما زالت هي مشكلة فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية . فالوكالة اليهودية من ناحية تريد فتح الأبواب لأكثر من مائتى ألف يهودى تخلفوا بعد معارك الحرب في معسكرات متناثرة من أوروبا الشرقية والغربية . وكان هؤلاء اليهود من النوع الذى تريده الوكالة اليهودية تماما ، وتعتبرهم خامة صالحة تقوم عليها الدولة الجديدة عند إعلانها ، فكلهم أوروبيون ، ومعظمهم من المتعلمين والخبراء في مجالات وتخصصات متعددة أخافتهم أو طردتهم سلطة الاحتلال النازى في أوروبا . وقد بذلت كل المنظمات الصهيونية جهدا كبيرا سنتى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ في إعدادهم وتأهيلهم لخدمة الدولة اليهودية ، وتثبيت اعتقادهم بأن عودتهم إلى أوطانهم الأصلية مستحيلة حتى بعد هزيمة

ألمانيا . فالمشاعر ضدهم ما زالت حادة حتى وإن أصبحت بعد العصر النازي كامنة ودفينة . وبالذات فإن اللاجئين من بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا كانوا مستعدين للهجرة جاهزين لوضع علمهم ومواهبهم فى خدمة الدولة الصهيونية التى تصوروا أنها تحررهم إلى الأبد .

وكان رأى "بن جوريون" أنه يفضل أن يجرى إعلان الدولة وفيها ستمائة ألف يهودى على الأقل بدلا من أكثر قليلا من أربعمائة ألف موجودين فى فلسطين الآن فعلا .

وكان "ترومان" قد وعد بفتح الباب لمائة ألف ، وكان الإلحاح عليه بما هو أكثر ، وهو جاهز . وكانت بريطانيا تطالب بمواربة أبواب الهجرة وجعلها نصف مفتوحة بدلا من فتح كامل . وذلك لكى تتمكن إدارتها وقواتها فى فلسطين من تحقيق توازن معقول بين السكان يكفل تغييرات تدريجية ، وليست كبيرة وكاسحة بحيث تختل كل الموازين .

وكان العرب ضد الهجرة تماما ، يرون أن فلسطين فيها يهود بما فيه الكفاية ، وأى زيادة تطراً بعد ذلك سوف تؤثر يقينا على عروبة فلسطين .

وفى مواجهة مخاطر الهجرة ، قرر العرب الدعوة إلى مؤتمر على مستوى رؤساء الحكومات يعقد فى سوريا لبحث مشكلة الهجرة بالتحديد ، وتقرير ماذا يستطيع العرب أن يفعلوا حيالها بما يؤدى إلى وقف تدفقها على فلسطين .

وانعقد المؤتمر فعلا فى مصيف "بلودان" - قرب دمشق - ما بين الثانى عشر والثامن عشر من يونيو سنة ١٩٤٦ . وانتهى المؤتمر إلى قرّارات أعلنها على النحو التالى :

١ - تشكيل لجنة عربية عليا تتابع باستمرار الجوانب المختلفة من قضية فلسطين ، وتنسق فى ذلك مع الهيئة العربية العليا لفلسطين التى يرأسها الحاج "أمين الحسينى" .

٢ - المطالبة بنزع سلاح وتسريح الجماعات اليهودية المسلحة فى فلسطين كوسيلة ناجحة لوقف اعتداءات هذه الجماعات على السكان العرب .

٣ - إنشاء صندوق عربى تساهم فيه كل الدول العربية ، يقوم على مساعدة الفلسطينيين وشراء أية أراض فلسطينية حتى لا يشتريها اليهود .

لكن مؤتمر "بلودان" اتخذ إلى جانب هذه القرارات المعلنة مجموعة أخرى من القرارات السرية تصبح واجبة التنفيذ إذا ما ساد منطق فتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود إليها . وكان أهم هذه القرارات السرية :

١ - إن الدول العربية سوف تتوقف عن منح أية امتيازات للدول التى تؤيد الهجرة .

- ٢ - إن الدول العربية سوف توقف نشاط البعثات التعليمية والثقافية التابعة لهذه البلدان في أراضيها كنوع من المقاطعة الأدبية .
- ٣ - إن الدول العربية سوف تبحث في إلغاء أية امتيازات ممنوحة في بلادها فعلا لهذه الدول .
- ٤ - إن الدول العربية سوف تلجأ إلى الأمم المتحدة و إلى مجلس الأمن في طلب وقف الهجرة باعتبار أن ذلك تهديد صريح لأمنها .
- ٥ - إن الدول العربية بعد ذلك سوف تقوم بتسليح الشعب الفلسطيني حتى يستطيع الدفاع عن نفسه ، وسوف تساعده بكل الوسائل .



كان التمثيل المصرى فى مؤتمر "بلودان" - ١٩٤٦ - على مستوى غير مسبوق فى تاريخ اشتراك مصر فى أية مؤتمرات دولية أو عربية . ومع أن رئيس الوزراء "إسماعيل صدقى" باشا لم يذهب بنفسه للاشتراك فى المؤتمر بسبب انهماكه فى المحادثات البريطانية المصرية (معاهدة "صدقى - بيغن") ، فإن زعماء كل الأحزاب المشاركة فى وزارته كانوا هم وفد مصر فى مؤتمر "بلودان" . فقد كان الوفد المصرى مكونا من : "محمود فهمى النقراشى" باشا رئيس حزب السعديين ، والدكتور "محمد حسين هيكل" باشا رئيس حزب الأحرار الدستوريين ، و"مكرم عبيد" باشا رئيس حزب الكتلة ، و"حافظ رمضان" باشا رئيس الحزب الوطنى ، وقد انضم إليهم "عبد الرزاق السنهورى" باشا وهو قطب قانونى أصبح مرجعا فى الشؤون العربية .

وقبل فى مصر وقتها إن "صدقى" باشا بعث بكل هؤلاء الزعماء إلى "بلودان" لكى يليهم بقضية فلسطين بحيث يخلو له الجو فى مفاوضاته مع الإنجليز . ولم يكن ذلك دقيقا ، مع أنه لم يخل من بعض الصحة .

والحاصل أن "صدقى" باشا فى غيبة زعماء أحزاب ائتلافه الحكومى لم يتفرغ لمحادثاته مع اللورد "ستانسجيت" رئيس الوفد البريطانى المفاوض أمامه ، وإنما انتهزها فرصة - كذلك - لترتيب واحد من أهم لقاءاته مع ممثلين عن الوكالة اليهودية فى فلسطين . فقد وصل إلى مصر سرا فى هذه الفترة "إلياهو ساسون" ، وأجرى "صدقى" باشا معه مجموعة لقاءات فى بيت "زينيه موسىرى" شارك الحاخام "حاييم ناحوم" أفندى فى واحد منها على الأقل .

كان "صدقي" باشا يحاول في هذه اللقاءات أن يحصل على تأييد اليهود له في موقفه مع الإنجليز . وفي مقابل ذلك ، فقد كان على استعداد لإغماض العينين عن هجرة يهودية معقولة إلى فلسطين . وكان الرقم الذي عرض "صدقي" باشا استعداده للتسامح فيه هو خمسين ألف مهاجر إلى فلسطين . ولم يكن ذلك مرضيا لـ "ساسون" ، مع أن الحاخام "حاييم ناحوم" أفندي كان على استعداد لبذل نفوذه لتسهيل قبول الوكالة اليهودية في فلسطين بهذا العرض .

وربما كان الأكثر مدعاة للاهتمام أن "الياهو ساسون" نقل عن "صدقي" باشا أنه أثناء هذا اللقاء أبدى استعداد "الحكومة المصرية" لقبول تقسيم فلسطين ، بما يعنيه ذلك من إقامة دولة يهودية . وطبقا لـ "ساسون" فإن الملك "فاروق" كان على علم بما يقوله "صدقي" باشا ، "وعلى أى حال فإنه سوف ينتهز فرصة ظهور مناخ مناسب ونوايا طيبة ويبلغ ساسون برأيه أو يحدد موعدا رسميا لمقابلة بين الملك فاروق وبين الدكتور حاييم وايزمان في قصر عابدين".

إن الوثائق المصرية الخاصة لا تتضمن أية إشارة إلى شيء من ذلك ، لكنه من الصعب تصور أن رجلا في كفاءة "الياهو ساسون" يختلق حديثا من هذا النوع في مسألة بهذه الخطورة . وربما أن "صدقي" باشا بالغ فيما قال لـ "ساسون" متصورا أن ذلك يحقق له "تدخل اليهود بغالعية" لإنجاح مفاوضاته مع الإنجليز .

ولم يكن وفد مصر في مؤتمر "بلودان" بمستواه العالي على علم بما يقوم به رئيس الوزراء . وما يستحق التسجيل أن "مكرم عبيد" باشا كان الأكثر وضوحا وحسما في موقفه بين كل أعضاء الوفد المصرى في "بلودان" . ولعله كان الأكثر تنبها في هذا الموضوع بالنسبة إلى الرؤية المصرية لحقيقة ما يعنيه قيام دولة يهودية في فلسطين . وتشير محاضر "بلودان" إلى أن "مكرم" باشا أشار إلى أن قيام دولة يهودية في فلسطين سوف يعرقل اتصال البلاد العربية ببعضها ، وسوف يخلق مشكلة على حدودها ، وقد يعطل محاولاتها للتقدم^(١) .



ولم تكن الحقائق السياسية واقفة في الانتظار ، و إنما راحت تشق لنفسها مجاريها بصرف النظر عن القرارات والاجتهادات والشعارات . وتعود الوثائق لتفضى بأسرارها :

(١) يلاحظ أن الأستاذ "ميشيل علق" زعيم حزب البعث الاشتراكي طور هذه المقولات بعد ذلك في شعاره الشهير الذي شاع فيما بعد في أدبيات حزب البعث وغيره من الأحزاب القومية ، وهو "إن إسرائيل أقيمت لكي تكون قاطعا لاتصال الأمة ، وأداة لتهديتها ، وإسفنجة لامصاص طاقتها باستمرار" .

• وثيقة رقم ٢٥٤٦ - ٠١/٦ ن ٨٦٧

برقية من الوزير المفوض في السعودية (كلارك) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : ٢٥ يونيو ١٩٤٦

بعد عودة عبد الرحمن عزام باشا من المؤتمر الاستثنائي لجامعة الدول العربية في بلودان إلى القاهرة ، التقى في القاهرة بالمستر ريفز تشايلدز (الوزير المفوض الجديد في السعودية والذي كان في العاصمة المصرية قبل قدومه إلى جدة) ، وقال له بأن الجامعة العربية قررت بالاجماع فتح باب المفاوضات مع الحكومة البريطانية بوصفها الدولة المنتدبة على فلسطين للوصول إلى حل بشأن مستقبل هذا البلد الذي يعتبرونه بلدا عربيا . وقد أرسلوا بالفعل مذكرة بهذا المعنى إلى الحكومة البريطانية . وهم يرون أن أول بند لا بد من معالجته في المشكلة هو بند الهجرة اليهودية إلى فلسطين . فهم لا يرون أي مبرر لجعل هذا البلد العربي يتحمل عبء إيجاد مأوى لليهود أوروبا .

إمضاء

كلارك

• وثيقة رقم ٢٩٤٦ - ٠١/٦ ن ٨٦٧

برقية من رئيس الوزراء البريطاني كليمنت آتلي إلى الرئيس هاري ترومان .

التاريخ : ٢٦ يونيو ١٩٤٦

(سرى جدا وشخصي من رئيس الوزراء إلى الرئيس)

كما تعرفون تحاول الجماعات الصهيونية في فلسطين الضغط علينا في موضوع الهجرة . وقد زادت عمليات الميليشيات الصهيونية المسلحة ضد القوات البريطانية في فلسطين . وكان آخرها حطف ستة ضباط بريطانيين . إن حكومة صاحب الجلالة قد توصلت إلى اقتناع بأن هذا وضع يصعب السكوت عليه . وقد تم إخطار

المندوب السامى فى القدس بأنه مَحْوَلٌ بِسلطة اتخاذ ما يراه من إجراءات تحقق سيطرة الإدارة البريطانية فى فلسطين على الأمور . وفى معلوماتى أن المندوب السامى قد أمر باتخاذ إجراءات تبدأ يوم السبت ٢٩ يونيو . وبين الخيارات المفتوحة أمامه أن يحتل مكاتب الوكالة اليهودية لأى مدة يراها كافية للتفتيش والحصول على الوثائق التى تثبت القيام بتنظيم عمليات هجرة غير مشروعة تجرى حمايتها بقوة السلاح ، بينما نحن نحاول بكل الوسائل إيجاد حل سياسى للمشكلة وللتعقيدات الناجمة عنها . إن بعض الإجراءات سوف يشمل القيادات العسكرية فى الهاجاناه (قوات الدفاع التابعة للوكالة اليهودية) وأية عناصر خارج هذه المنظمة .

إمضاء

كليمنت آتلى



ولم تكن جماعات الضغط اليهودى والصهيونى فى الولايات المتحدة بعيدة عن الصورة أو متكاسلة ، وإنما جاء تدخلها سريعاً وناجحاً ، وبشهادة الوثائق :

وثيقة رقم ٣٤٦ ١١/٧ ن ٨٦٧

بيان صحفى صادر عن البيت الأبيض بتاريخ ٢ يوليو ١٩٤٦ .

نص البيان :

” اجتمع الرئيس هارى ترومان اليوم بعدد من الأعضاء الأمريكين فى اللجنة التنفيذية للوكالة اليهودية لفلسطين ، وهم : الحاخام ستيفن وايز ، والدكتور ناحوم جولدمان ، والمستر لويس ليبسكى ، والحاخام أبا هيلل سيلفر .

إن ممثلى الوكالة اليهودية عرضوا على الرئيس وجهة نظرهم فيما جرى أخيراً من أحداث فى فلسطين .

إن الرئيس أعرب لممثلى الوكالة اليهودية عن أسفه للتطورات الأخيرة التى وقعت فى فلسطين . وقد أخطر ممثلى الوكالة اليهودية أن الولايات المتحدة لم تستشر مقدماً فى الإجراءات التى اتخذتها السلطات البريطانية هناك .

إن الرئيس أضاف إلى ذلك إعرابه عن أمله في الإفراج عن كل القيادات اليهودية في فلسطين على الفور .

إن الرئيس أضاف كذلك عزمه على أن الأحداث الأخيرة في فلسطين لن تؤثر على سياسة فتح أبواب فلسطين لهجرة مائة ألف يهودي من أوروبا إليها .”

(لم يشر البيان الصحفي الصادر عن الاجتماع إلى أهم الوقائع التي جرت فيه ، وإن كانت مجموعة الوثائق الأمريكية لسنة ١٩٤٦ في صفحة ٦٤٥ تشير إليها ، وخلصتها أن الرئيس ترومان بحث التكاليف المالية لعملية هجرة مائة ألف يهودي إلى فلسطين ، وأنها تصل إلى ٤٥٠ مليون دولار (بقيمة الدولار في ذلك الوقت) ، وهي تساوي عشرة أمثال قيمته اليوم) . وقد تطوع الرئيس ترومان على الفور بأن الولايات المتحدة سوف تتحمل وحدها نفقات النقل . وفي نفس الوقت أبدى الزعماء اليهود بأن لديهم ٢٥٠ مليون دولار جاهزة لعملية التوطين ، لكن ذلك المبلغ لا يكفي إلا لجزء منها) .



● وثيقة رقم ٨٤٦-٠١/٧ ن ٨٦٧

رسالة من الرئيس ترومان إلى الملك عبد العزيز آل سعود .

التاريخ : ١٣ يوليو ١٩٤٦ .

يا صاحب الجلالة ،

إنني تلقيت بمزيد من السرور الرسالة التي نقلها إلى صديقي وصديقكم وزيرنا المفوض السابق لدى حكومتكم الكولونيل ويليام إيدي . إنني شديد الاعتراف بروابط الصداقة الوثيقة التي قامت باستمرار بين حكومة الولايات المتحدة والحكومة السعودية . ولقد نقل إلى الكولونيل إيدي تفهمكم للمشكلة الإنسانية لليهود المشردين في أوروبا . كما نقل إلى أيضا قلقكم من ذهابهم إلى فلسطين . وأريد أن أؤكد لكم بإخلاص اعتقادي بأن ذهاب مائة ألف يهودي إلى فلسطين لن يؤثر في حقوق أو مصالح العرب ، كما أنه لن يحدث خللا في التوازن الاقتصادي والاجتماعي في هذا البلد .

إمضاء

هارى ترومان

● وثيقة رقم ١٧٤٦ - ٠١/٨ ن ٨٦٧

رسالة من وزير الخارجية الأمريكية جيمس بيرنز إلى الحاخام ستيفن وايز .

باريس ١٧ أغسطس ١٩٤٦

عزيزى الدكتور وايز ،

إنك طلبت منى أن أقابل مستر ناحوم جولدمان أثناء وجودى فى باريس لأنه يريد أن يرانى فى مسائل متعلقة بموضوع فلسطين . وقد كنت أرغب فى أن أراه ، لكنى بعيد عن مجرى الحوادث فى هذه القضية ، فطوال السنة الأخيرة تولى الرئيس ترومان بنفسه وشخصيا كل ما هو متعلق بمشكلة فلسطين . والاتصالات الدائرة بين الحكومتين البريطانية والأمريكية فى هذا الشأن تجرى مباشرة بين الرئيس ترومان ورئيس الوزراء (البريطانى) المستر آتلى ، وليس بين المستر بيغس وببىنى .

.....

.....

إمضاء

جيمس بيرنز

● وثيقة رقم ١٢٤٦ - ٠١/٩ ن ٨٦٧

مذكرة من وزير الخارجية بالنيابة (ويليام كليتون) إلى الرئيس ترومان .

التاريخ : ١٢ سبتمبر ١٩٤٦

الرئيس ،

يرى الحاخام وايز ومعه عدد آخر من الزعماء الصهيونيين أن تقوم بإصدار
تصريح فوري عن تقسيم فلسطين وعن فتح أبواب الهجرة اليهودية إليها . وفي
رأيهم أن ذلك يساعد على جعل الحكومة البريطانية تتخذ موقفا أكثر معقولة .

.....
.....

إمضاء

ويليام كليتون

• وثيقة رقم ١٠٤٦ - ١٠/١٠ ن ٨٦٧

برقية من رئيس الوزراء (البريطاني) آتلى إلى الرئيس ترومان .

التاريخ : ٤ أكتوبر ١٩٤٦

(سرى جدا وعاجل)

عزيرى الرئيس ،

إننى تلقيت بعد منتصف الليل أمس مشروع بيانك بشأن فلسطين ، وتلقيت
منكم رسالة ، وقد كتبت لكم على الفور ردا عليها رجوتكم فيه تأجيل الإعلان ولو
لعدة ساعات ريثما أستطيع التشاور مع وزير الخارجية . وقبل أن يطلع الصباح
تلقيت منكم ردا يرفض تأخير إعلان البيان لهذه الساعات التى طلبتها . إننى شديد
الأسف أنكم رفضتم إعطاء مهلة ساعات لرئيس وزراء البلاد الذى يتحمل حاليا
عبء إدارة شؤون فلسطين ، مع العلم أن إعلانكم سوف يسبب لإدارة فلسطين
أعباء لا شك فيها . وسوف أنتظر باهتمام أيضا حكم بشأن الأسباب العاجلة التى
دعت إلى مثل هذا الإجراء المتسرع .

إمضاء

آتلى



كانت الحركة الصهيونية فى عجلة من أمرها لقيام الدولة اليهودية فى فلسطين .
وكان رئيس الولايات المتحدة بنفسه أمامها ووراءها .

وكان الرأى قد استقر مبكرا على اختيار اسم الدولة : إسرائيل .

وكان الرأى قد استقر مبكرا - أيضا - على رسم علمها : خطان من اللون الأزرق أعلى
وأسفله رقعة بيضاء تتوسطها نجمة داوود .

ولم يدقق كثير من العرب فى معنى رسم العلم الإسرائيلى ورمزه ، لكن يهود
فلسطين فهموا الإشارة وتلقوا الرسالة . فالخطان باللون الأزرق أعلى العلم وأسفله يشيران إلى
"النهرين الكبيرين" اللذين تقع الأرض الموعودة بينهما : نهر الشرق الكبير وهو "الفرات" ،
ونهر الغرب الكبير وهو "النيل" . وذلك نص القول فى "التوراة" التى كتبها حاخامات
إسرائيل أثناء المنفى والسبى فى بابل بعد ستماية سنة من سقوط هيكل سليمان .

[فى ذلك اليوم قطع الرب مع ابراهيم ميثاقا : "لنسلك أعطى هذه الأرض من
نهر مصر إلى النهر الكبير الفرات" . " (سفر التكوين ١٥ : ١٨)]

وكان الرأى مستقرا كذلك - ومبكرا - على ألا تكون لهذه الدولة حدود معينة على
خريطة . ولعلها كانت أول دولة فى العالم الحديث يجرى إعلان قيامها دون أن يصاحب
هذا الإعلان بيان يعين الخطوط على الأرض ويوقعها على الطبيعة ، ذلك أنه حين يكون
الوعد "أسطوريا" ، فإن الخرائط السياسية تصبح قابلة للتعديل مع كل تفسير أو تأويل !

موشى شرتوك

" لا داعى للخوف من العرب فهم ضعفاء
بطريقة بائسة "

("حايم وايزمان" للسفير الأمريكى الدائم فى
الأمم المتحدة)

إن الوثائق البريطانية والأمريكية والإسرائيلية وكلها الآن متاحة تكفى لمعرفة ما كان
يجرى فى الخفاء طوال سنة ١٩٤٧ . لكن هناك ثلاث حقائق يمكن رصدها من خلال
قراءة دقيقة لهذه الوثائق :

١ - الحقيقة الأولى أن الولايات المتحدة الأمريكية ، رئيسها وحكومتها أيضا ، أصبحت
بالكامل من أنصار قيام دولة يهودية فى فلسطين ، مع إدراكها لكل المصاعب التى
تنتظرها على الطريق .

إن الرئيس الأمريكى "هارى ترومان" مضى فى طريقه نحو فتح أبواب هجرة اليهود
واقامة دولة يهودية فى فلسطين لا يلسوى على شىء . ويمكن أن يقال إن مصالحه
الانتخابية وارتباطاته الشخصية والسياسية كانت محركه ، ولكن الذى لا يقبل الشك
فى نفس الوقت أن بقية أجهزة الدولة الأمريكية اقتفت خطا الرئيس . ولم يكن ذلك
بمجرد ضغط منه ، وإنما إلى جانب ذلك كان نتيجة تقديراتها لأوضاع متغيرة أفرزت
رؤى استراتيجية مختلفة . وكانت الحرب الباردة ومطالبها هى أظهر الاعتبارات التى
أفسحت المجال لهذه الرؤى . وربما أن السياسة الأمريكية - وقد آل إليها إرث
الشرق الأوسط بكامله عن بريطانيا - لم تلبث أن اكتشفت أهمية منطق "نابليون"
وبعده "بالمرستون" فى أفضلية عزل مصر عن سوريا ، وبعده عزل عرب أفريقيا
عن عرب المشرق إذا أمكن .

٢ - والحقيقة الثانية أن تقسيم فلسطين أصبح قرارا نافذا من الجمعية العامة للأمم المتحدة صدر يوم ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ برقم ١٨١ . وفي أجواء أشبه ما تكون بعاصمة اجتاح "ليك ساكسس" حيث المقر المؤقت للأمم المتحدة في نيويورك . لقد تعرض مندوبو الدول في الجمعية العامة إلى صنوف من الضغط بدت لا تقاوم ، واستهدفت توفير أغلبية كافية للموافقة على قرار التقسيم . (وهناك تفاصيل كثيرة معروفة وشائعة عن تهديدات وجهت لرؤساء دول ، وعن رشاوى دفعت لمندوبين ، وعن شركات أمريكية كبرى تدخلت لإرغام أصوات على تغيير اتجاهها ، وأشهر مثال لذلك ما حدث من شركة "فايرستون" للمطاط مع رئيس جمهورية ليبيريا حتى يفرض تغيير صوت بلاده من "لا" إلى "نعم" للتقسيم . والنتيجة أن قرار التقسيم بدا عملية فرض بالقوة أكثر منه عملية اختيار لحل مناسب .

٣ - والحقيقة الثالثة أن العرب في هذه الفترة كانوا بالفعل شبه عراة من كل الوسائل اللازمة لتغطية مواقفهم في مواجهة من هذا النوع . وبعد أسابيع قليلة من صدور قرار التقسيم بدا العالم العربي أشبه ما يكون بجسد كبير عاجز عن الحركة ، وإذا تحرك فقد كان أول إحياء تعطيه حركته أنها صادرة عن مركز عصبي . فقد تماسكه .

وبدأت سنة ١٩٤٨ ، وهي السنة التي قامت فيها الدولة اليهودية في فلسطين ، والأجواء مختلطة ، والضباب يغطي الساحة ، والخطا متعثرة .



في أواخر سنة ١٩٤٧ أعلنت الحكومة البريطانية أنه وقد صدر قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين إلى دولة عربية ودولة يهودية فإنه لم يعد أمامها (الحكومة البريطانية) إلا أن تسحب قواتها من فلسطين فاتحة المجال بذلك لتنفيذ قرار المجتمع الدولي . وهكذا وجد الكل أنفسهم أمام أمر واقع عليهم أن يواجهوه كل بطريقته ووفق رؤاه . وكانت الرؤى فوضى واسعة ترسم الوثائق صورة حية لها .

● وثيقة رقم ٤٧ / - / ٢ ج

مذكرة من السفارة البريطانية في واشنطن إلى وزارة الخارجية الأمريكية .

التاريخ : ٥ يناير ١٩٤٨

(سرى جدا)

١ - أثناء مناقشة بين المستر بيغن (وزير خارجية بريطانيا) والمستر مارشال (رئيس أركان حرب الجيش الأمريكي السابق ، والذي اختاره الرئيس ترومان لكى يكون وزيراً لخارجيته) وذلك حينما اجتمع الاثنان فى لندن يوم ١٧ ديسمبر ١٩٤٧ عبر المستر بيغن عن رأيه بأن ردود فعل الحكومات العربية تجاه قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين كانت أسوأ مما توقع رغم كسل الجهود التى بذلها الممثلون البريطانيون فى العالم العربى "لتعقيل" الحكومات العربية . وقال المستر بيغن إنه سوف يقابل كل الممثلين العرب فى لندن واحدا بعد الآخر لكى يتولى "تركيزهم" (to steady them) .

إن الحكومة البريطانية تخشى أن الموقف فى الشرق الأوسط سوف يفلت زمامه ، وقد يعرض المصالح البريطانية والأمريكية للخطر هناك ، وهو أمر لا يستفيد منه إلا الاتحاد السوفيتى .

٢ - ولتوضيح وجهة نظره أكثر ، فإن المستر بيغن أشار للاتصالات التى أجراها الممثلون البريطانيون فى عدد من العواصم العربية المعتمدين لديها . ومنها أمكن استخلاص ردود الفعل العربية تجاه ما أعلنته الحكومة البريطانية من أنها تنسوى سحب قواتها من فلسطين .

(أ) إن كل المسؤولين العرب أعطوا تأكيدات بأنهم سوف يتجنبون القيام بأى عمل يؤدي إلى احتكاك مع القوات البريطانية فى الفترة السابقة للانسحاب . لكنهم مع ذلك لا يعرفون كيف يمكن تجنب المخاطر التى ستنشأ إذا ما افترض الآخرون أن معارضة العرب لتقسيم فلسطين سوف تقتصر على مجرد الكلام حتى إذا كان عنيفا .

(ب) إن كل الحكومات العربية لا تعتقد أنها تستطيع كبح جماح مواطنيها عن التطوع للقتال فى فلسطين . وقد ورد ذلك بالنص على لسان وزير خارجية مصر (أحمد خشبة باشا) ، ونائب رئيس وزراء العراق ، ورياض الصلح رئيس وزراء لبنان ، وجميل مردم رئيس وزراء سوريا ، وسمير الرفاعى باشا رئيس وزراء الأردن .

(ج) إن هناك قلقا واضحا بشأن ما إذا كان اليهود سيضبطون تصرفاتهم . أو إن أحدا ينصحهم بذلك على نحو مؤثر . وقد عبر عن هذا الرأى وزير خارجية مصر والشيخ يوسف ياسين وكيل وزارة الخارجية السعودية . ومن الواضح أن

هذا القلق مبعثه تكرر اعتداء اليهود على العرب فى فلسطين ، وكثرة أعداد الضحايا بين العرب .

(د) لقد كانت هناك مرارة واضحة لدى كل المسؤولين العرب ضد الحكومة البريطانية ، وأكثر ضد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية . وفى التعبير عن المرارة ضد الحكومة الأمريكية بالذات فقد تكررت الإشارات إلى دبلوماسية الدولار (Dollar diplomacy) . ومن الملحوظ أنه بدت من البعض تعبيرات عن الرغبة فى الصداقة مع بريطانيا ، وفى الغالب أن تلك كانت محاولة للعب ببريطانيا ضد الولايات المتحدة .

(هـ) من المؤكد أن هذه الأوضاع سوف تؤثر على كل محاولات إقامة نظام للدفاع عن الشرق الأوسط . وعلى سبيل المثال فإن رياض الصلح رئيس وزراء لبنان أهاب بالحكومة البريطانية أن تعزز صداقاتها مع العرب . وأشار إلى المفاوضات التى تجرى بين بريطانيا وبين كل من العراق ومصر . كما أنه قلل من قيمة الاتفاق مع شرق الأردن قائلا "أية فائدة لهذا الاتفاق إذا ضاعت فلسطين؟"

٣ - إن هناك علامات ظاهرة على رغبة عامة فى التفاهم مع بريطانيا ، وبدون هذا التعاون يخشى الزعماء العرب أن الأمور سوف تفلت من أيديهم . إن أحدا من هؤلاء الزعماء لم يشرح بوضوح ماذا يريد منا ، ولكن مؤدى كلامهم جميعا يمكن ترجمته فى عبارة "أليس فى مقدوركم أن تفعلوا شيئا لمساعدتنا؟"

٤ - إن هذه المشاعر جرى التعبير عنها فى أحاديث مع نورى السعيد وصالح جبر (رئيسا وزارات فى العراق) . وكان رئيس الديوان الملكى تحسين قدرى هو الأكثر صراحة فى شرح ما يريد . وقال للسفير البريطانى فى بغداد "لدة ثلاثين عاما كانت الحكومة البريطانية هى التى تقول لنا كيف نتصرف . وكنا بالفعل نتصرف لما فيه صالح البلدين . والآن لأول مرة فأنتم لا تقولون لنا شيئا سوى النصح بالتزام الهدوء . والوصى على العرش والحكومة يريدان ما هو أكثر وإلا فإن "الأعداء" سوف يجدونها فرصة لتكثيف الضغوط علينا .

٥ - هناك تفاصيل لها تأثير على الموقف العام ويستحسن وضعها فى الاعتبار ، ومنها أن الحكومة الأردنية تركز اهتمامها على أن تحصل لنفسها على القسم العربى من فلسطين ، وتعتقد أن فى إمكانها أن تتوصل إلى اتفاق فى هذا الشأن مع اليهود . لكنها تحت الضغط مضطرة إلى مسابرة الراى العام العربى .

.....
.....



كان الرئيس الأمريكي "هارى ترومان" يعرف "ما يريد" ، كما أنه كان يعرف ما يريده الآخرون عارفا حدود كل منهم وهكذا تتحدث الوثائق :

• وثيقة رقم ٤٤٨ - ج/٢ - ٧١١ ٠٩٠

مذكرة كتبها السفير الأمريكى فى العراق (وادسورث) إلى مدير قسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الأمريكية (لوى هندرسون) عن مقابلة له مع الرئيس ترومان .

التاريخ : ٤ فبراير ١٩٤٨

(سرى جدا)

الموضوع : حوار مع الرئيس .

كما تعلم فإننى قابلت الرئيس ، وقد قدمت له مذكرة بواسطة مساعده لشئون الأمن القومى الأميرال سويرز ، وتم ذلك قبل الاجتماع لكى يكون على علم مسبق بما أنوى أن أتحدث فيه ، وكان بناء على طلب الأميرال سويرز . وقد أستقبلنى الرئيس عند الظهر تماما وتحدثنا لمدة خمس عشرة دقيقة . قال لى الرئيس إنه قرأ الورقة التى أرسلتها إليه ، وعقب بقوله "إن الأوضاع فى الشرق الأوسط هى التى تشغله الآن" . وقد قلت له إننى أريد أن أعرف منه مباشرة ما إذا كانت حكومة الولايات المتحدة تفكر فى إرسال قوات إلى الشرق الأوسط لكى تفرض قرار تقسيم فلسطين ؟ وقد رد على الفور بقوله إنه يفضل أن يعمل بواسطة الأمم المتحدة .

وأضاف الرئيس إن ذلك هو ما قاله بالنضبط للأمير فيصل ، ولأمير اليمسن ، وللوصى على عرش العراق الذى اجتمع به لمدة ساعتين كاملتين .

وقال الرئيس إنه لفت نظر الوصى إلى ضرورة الاهتمام بالمشروعات الكبرى فى العراق نفسها بدلا من الانشغال بمشاكل بلاد أخرى مثل فلسطين . وقال الرئيس فى هذا الصدد إن لديهم مشروعا مثل مشروع تنمية وادى دجلة والفرات بأموال البترول العربية التى يحصلون عليها ، فالعراق بلد يحتاج إلى التنمية . وفى كل مرة دخّل الغزاة إليه ، من أول تيمسور لنسك وحتى الآخرين ، فإنهم حطموا فى طريقهم كل شىء . إن الغزاة يفعلون ذلك باستمرار . وأما نحن - قال الرئيس - لأول مرة فى التاريخ تكون سياسة الغزاة هى التوجيه إلى البناء" .

وقلت للرئيس إنه يصعب تحويل نظر العراق عما يجرى فى فلسطين ، والمغرب اليوم يريدون منا إجابة واضحة عن سؤال واحد ، وهو ما إذا كنا سوف

نقبل بالضغوط الصهيونية ونبعث بقوات أمريكية أو قوات تابعة للأمم المتحدة لفرض قرار التقسيم . ورد الرئيس : "إننا لن نفعل شيئا من ذلك ، ولكنى لا أستطيع أن أعطيهم ضمانات بالا أفضل قبل أن يؤكدوا لى هم أنهم لن يستعملوا السلاح لعرقلة التقسيم" . وقلت للرئيس إننى أفهم وجهة نظره ، واقترحت عليه إبلاغها لكل رؤساء البعثات الأمريكية فى الشرق الأوسط . وعقب الرئيس بقوله : "إن العرب ليس لديهم أى شىء أكثر من حجج قانونية" .

.....

إمضاء

.....

وادي سورث

● وثيقة رقم ٣ / فلسطين ب ب ٥٠١

برقية من الوزير المفوض فى السعودية (تشايلدن) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : جدة ١٣ مارس ١٩٤٨

أخطرني عزام باشا الذى جاء إلى جدة اليوم بعد مقابلة الملك عبد الله فى عمان أنه تم الاتفاق على أن يرسل عزام باشا بوصفه أميناً عاماً للجامعة العربية رسالة تحذير عام من إصدار أية تصريحات يمكن أن يعتبرها مجلس الأمن تهديداً للسلام الدولى . وقد شرح لى أن النزاع فى فلسطين هو نزاع مدنى ، ويجب من وجهة نظر عربية عدم إعطاء الفرصة لأحد كى يتدخل بالقوة فى فلسطين . وقد أخطرته بمضمون برقيتكم رقم ٧٦ بتاريخ ١ مارس ، وعلى الفور راح عزام باشا يكتب برقية إلى وزير الخارجية السورى يؤكد عليه فيها الامتناع عن إصدار أى تصريحات تحمل نبرة التهديد .

إمضاء

تشايلدن



كانت ساعة الحسم تقترب ، و"موشى شرتوك" مسئول الوكالة اليهودية عن العلاقات الدولية (وفيما بعد وزير خارجية إسرائيل ، ثم رئيس وزارئها) هو الذى يمسك بزمام

التوجيه في الساحة الأمريكية وكان يتحرك بوضوح وحزم ، وبشهادة الوثائق :

● وثيقة رقم ٢٦٤٨ - ٠١/٣ ن ٨٦٧

مذكرة عن مناقشة بين وزير الخارجية وبين كل من المستر موسى شرتوك
والمستر إياهو إيبشتين من الوكالة اليهودية في فلسطين .

التاريخ : ٢٦ مارس ١٩٤٨

جاء المستر شرتوك إلى مقابلة الوزير الذي دعاه إلى الاجتماع به . شرح الوزير
للأثنين هدفه الذي من أجله طلبهما لمقابلته . وقال الوزير إنه يريد أن يستطلع رأى
الوكالة اليهودية في أمر اجتماع يمكن ترتيبه بين الهيئة العربية العليا وبين
الوكالة بقصد ترتيب وقف للعمليات العدائية في فلسطين ، أو هدنة . وسأله
المستر شرتوك أن يكون محددًا في وصف الفارق بين التعبيرين اللذين استعملهما ،
وهما : "وقف الأعمال العدائية" أو "الهدنة" . وقال الوزير إنه يقصد ترتيب
وقف إطلاق نار أولاً ، ثم اتفاق على هدنة بعده . ورد المستر شرتوك بأن موقف
الوكالة اليهودية واضح ، وإن الشعب اليهودي في فلسطين لن يوافق على هدنة
بينما توجد قوات أجنبية في فلسطين ، وإمدادات تتسلل عبر الحدود . وقال
شرتوك إنه لا يعنى بالقوات الأجنبية قوات الانتداب البريطاني ، وإنما يعنى
أعدادا من المتطوعين العرب دخلوا إلى فلسطين من سوريا ولبنان وشرق الأردن
والمراق . وأشار بالتحديد إلى مجموعة متطوعين عراقيين أقاموا معسكرا لهم قرب
محطة المياه عند القدس .

وقال له الوزير "إن الولايات المتحدة تريد حقن الدماء ، وتريد الوصول إلى
نوع من التوفيق بين الأطراف . وهو يريد أن يسأل المستر شرتوك كيف يمكن
التعرف على هوية هؤلاء المتطوعين العرب الذين أشار إليهم ؟" ورد شرتوك "إنه
لا يعرف كيف يمكن تحديدهم لأنه من الصعب تمييزهم من السكان العرب" .
وتوجه الوزير بسؤال مباشر إلى المستر شرتوك : "هل الوكالة اليهودية مستعدة
لقبول هدنة إذا كان بين شروطها سحب أى متطوعين عرب مسلحين من فلسطين ؟"
ورد المستر شرتوك بأن "ذلك لا يكفي لأن العرب سوف يستغلون فرصة الهدنة
لبناء قوة تتسلل في أى وقت ومعها أسلحة إضافية تعزز نشاطها ، وهم سوف
يبتهنون فرصة التزام قوات الهاجاناه بالهدنة ويعززون قوتهم مطمئنين إلى أنهم
لن يهاجموا" .

وقال المستر شرتوك إنه مستعد لأن يوصى الوكالة اليهودية بقبول هدنة
بالشروط التالية :

١ - الوقف الكامل لكل العمليات العسكرية بما فى ذلك تحريم كل أنواع الإرهاب .

٢ - سحب جميع العناصر المسلحة التى تسللت إلى فلسطين من أراضى مجاورة .

٣ - قيام نظام للرقابة على الحدود تكون له القدرة على منع أى تسلل .

٤ - أن تحتفظ الوكالة اليهودية لنفسها بالحق فى مقاومة أى عمل ترى من شأنه الإضرار بهذه الهدنة .

وأبدى المستر شرتوك "إن الوكالة اليهودية أعدت برنامجا عالى الكفاءة لتحمل مسئولية الإدارة فور انتهاء الانتداب البريطانى يوم ١٥ مايو ، وذلك فى الأراضى المخصصة لها بمقتضى قرار التقسيم" .

إن الوزير سأل المستر شرتوك عن "استعداد المستعمرات اليهودية فى فلسطين للدفاع عن نفسها؟" ورد المستر شرتوك بأن "هذه المستعمرات جاهزة للدفاع عن نفسها إلى الأبد" . وسأله الوزير "عما يكون عليه الحال إذا أحس اليهود أن الميزان سوف ينتقل إلى صالح العرب ونشبت معارك على نطاق واسع وتدخل متطوعون عرب؟" وقال المستر شرتوك "إن هناك عددا كبيرا من المتطوعين اليهود سوف يجرىء من كل أنحاء العالم ، وإنهم يعرفون أن ذلك سوف يحدث مضاعفات دولية خطيرة ، وعلى القوى المهتمة بالمنطقة أن تتدبر ذلك" .

ثم راح المستر شرتوك يشكو من الحكومة البريطانية التى أصبحت تعتمد على مجموعة من الشيوخ العرب والباشوات المصريين .

.....
.....

● وثيقة رقم ١٥٤٨ - ٤ / فلسطين ب ب ٥٠١

برقية من المندوب الدائم للولايات المتحدة (أوستن) إلى وزير الخارجية .

التاريخ : ١٥ ابريل ١٩٤٨

(سرى وعاجل)

دعانى الدكتور حاييم وايزمان ومعنى السفير جيسوب إلى لقائه بعد ظهر أمس ، وقد وجدنا أبا إيبان عنده . وقال لنا (الدكتور وايزمان) إنه لا يفهم تردد الولايات المتحدة إزاء ما يجرى فى فلسطين . وهو يتساءل "ما هو مبعث التردد ؟

هل هو الخوف من العرب ؟ هل هو البترول ؟ هل هو الخوف من روسيا ؟ وقد راح الدكتور وايزمان يجيب بنفسه على أسئلته قائلا : "أما عن العرب فليس هناك داع من أى نوع للخوف منهم ، فهم ضعفاء بطريقة بائسة . وأما عن بترول العرب فإنهم لا يستطيعون أن يبيعوه إلا للولايات المتحدة . وعلى سبيل المثال فهل نخشى أنهم يمكن أن يبيعوا بترولهم للروس ؟ وإذا باعوه للروس فماذا يفعلون بالروبلات التى سيحصلون عليها ؟

واستطرد الدكتور وايزمان قائلا "هل تخشون من أن الدولة اليهودية سوف تكون متأثرة بالروس ؟" ثم أجاب بنفسه مرة أخرى : "إنه ليس هناك داع للخوف من هذا التأثير ، فالملاء البلاشفة حاولوا منذ سنة ١٩٢٠ أن يجسّدوا لأنفسهم موطن قدم بين المستوطنين اليهود ، وقد فشلوا فى ذلك فشلا ذريعا" .

إن الدكتور وايزمان انتقل بعد ذلك إلى المساعدات التى يمكن أن تقدمها الولايات المتحدة للدولة اليهودية . وقد تحدثنا فى هذا الموضوع بصفة عامة ، وبدون التزامات محددة .

إمضاء

أوستن

• وثيقة رقم ٢٢٤٨ - ١/٤ - ١٩٦٧ ن

برقية من القنصل العام الأمريكى فى القدس (واسون) إلى وزير الخارجية .

القدس : ٢٢ ابريل ١٩٤٨

فيما يلى نص التصريح الذى صدر عن المؤتمر الصهيونى العام :

"لقد قررنا اعتمادا على السلطة المخولة للحركة الصهيونية وبتأييد الشعب اليهودى بأسره ، أنه فور انتهاء نظام الانتداب والحكم الأجنبى فى فلسطين فإن الجهاز الحاكم لدولة يهودية سوف يتولى المسئولية . إن الدولة التى يقيمها الشعب اليهودى فى بلده سوف تضمن العدل والحريّة والمساواة لكل السكان بصرف النظر عن الديانة والعنصر والجنس وبلد المهجر . إن هدفنا أن نجعلها دولة لكل اللاجئين من شعبيّنا الذين تجمّعوا هنا . دولة تسودها السعادة والعلم ، وتضيئها رؤى أنبياء إسرائيل .

وفى هذه الساعة التى فرض علينا فيها القتال ، فإننا نهييب بالعرب داخل
الدولة اليهودية والدول العربية فى الأراضى المجاورة لنا ، أن يقبلوا أخوتنا
وتعاوننا من أجل السلام .

.....
.....

إمضاء
واسون



ورغم ذلك فقد كان العرب على استعداد للتفاهم حتى هذه اللحظة ، وذلك من عدة
أسباب أولها أنهم لم يكونوا قد حزموا أمرهم على شىء محدد هكذا تقول الوثائق :

• وثيقة رقم ٢٥٤٨ - ٤ / فلسطين ب ب ٥١٦

برقية من المندوب الدائم للولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة السفير أوستن
إلى وزير الخارجية .

نيويورك ٢٥ ابريل ١٩٤٨

عقد بروسكاور (رئيس اللجنة اليهودية الأمريكية) اجتماعين مع فوزى
بك المندوب المصرى (يقصد الدكتور محمود فوزى مندوب مصر فى مجلس الأمن
وقتها ، وقد أصبح فيما بعد نائبا لرئيس الجمهورية ورئيسا للوزراء) . وكان فوزى
بك خلال الاجتماعين متقبلا بما فيه الكفاية فكرة تشجيع اتصالات بين العرب
واليهود فى فلسطين بهدف ترتيب هدنة تيسر ترتيب الأحوال فور انتهاء
الانتداب البريطانى . وقال فوزى بك إنه مخوّل من القاهرة وفى الغالب من
الجامعة العربية أيضا حسب إشارته بأن يجلس مع وسطاء وممثلين يهود لبحث
الموقف كله بدون تمهد نهائى من جانبه .

إمضاء
أوستن

• وثيقة رقم ٢٦٤٨ - ١/٤ ن ٨٦٧

برقية من السفير الأمريكى فى القاهرة (بنكنى تاك) إلى وزير الخارجية .

القاهرة : ٢٦ ابريل ١٩٤٨

(سرى)

تناقش الآن فى القاهرة خطط لدخول قوات عربية إلى فلسطين عندما ينتهى الانتداب البريطانى . وتبدو العراق متحمسة ، كما تبدو الحكومة المصرية معارضة طبقا لما علمته من مصادر مصرية حسب الاطلاع . إن النقراشى باشا (محمود فهمى النقراشى رئيس وزراء مصر فى ذلك الوقت) أبدى معارضة فى النقاط التالية :

١ - خوفه من أن يؤثر اشتراك مصر فى مثل هذه العمليات على قضيتها المطروحة على الأمم المتحدة ، وقد عرضها بنفسه على مجلس الأمن طالباً بجلاء القوات البريطانية عن بلاده .

٢ - إن القوات المصرية مشغولة الآن فى مهام داخلية . فهناك مخاوف من أن يقوم الوفد بإثارة متاعب ، كما أن هناك قلقاً من احتمال انقلاب عسكري يقوم به الجيش . وأخيراً فهناك احتمال أن يتجدد إضراب البوليس المصرى .^(٢)

٣ - إن القوات المصرية ليست مسلحة أو مجهزة بطريقة كافية ، وبالتالي فاشتراكها فى أى عمليات فى فلسطين سوف يكون بسلاً أثر ، ومن المعروف على نطاق واسع أن مخاوف النقراشى باشا من هزيمة تلحق بالجيش المصرى على أيدى اليهود سوف توجهه ضربة قاضية إلى ادعاءاته (فى مجلس الأمن حين عرض قضية مصر وطالب بجلاء الإنجليز) بأن مصر قادرة على الدفاع عن نفسها وعن قناة السويس بدون مساعدة أجنبية .

٤ - إن النقراشى باشا خائف من أن يظهر عجز الجيوش العربية عن حماية الفلسطينيين ، مما يؤدى إلى الإضرار بإيمان الشعب الفلسطينى بانتمائه العربى .

(٢) كان البوليس المصرى لمطالب تتعلق بالرتب تتعلق بالرتب قد قام بالفعل بإضراب عام امتد أسبوعين ابتداءً من ٥ أبريل ١٩٤٨ ، وخلال هذا الحادث غير المسبوق فى تاريخ مصر فإن قوات الجيش كانت تقوم بمهام المحافظة على الأمن .

إن الأمير عبد الله الوصي على عرش العراق كان هنا وفي صحبته عدد من ضباط الجيش العراقي . ومن الواضح أن هدفه كان التأثير على الملك فاروق لكي يؤيد قرارا بشأن اشتراك الجيوش العربية في الدفاع عن فلسطين ، وهو قرار أعد مشروعه خلال اجتماعات عقدتها اللجنة العسكرية للجامعة العربية أخيرا في عمان . وقد فهمت أن الوصي على عرش العراق يحث الملك "فاروق" بمنطق أن مصر لا يمكن أن تقوم بدور أقل مما تقوم به بقية الدول العربية الأخرى وإلا فقدت مكانتها وهيبتها في العالم العربي .

.....

.....

إمضاء

بنكسنى تالك

● وثيقة رقم ٢٨٤٨ - ٠١/٤ ن ٨٦٧

برقية من السفير الأمريكي في مصر بنكسنى تالك إلى وزير الخارجية .

القاهرة : ٢٨ أبريل ١٩٤٨

يبدو أن الدول العربية توصلت إلى قرار بدخول قواتها إلى فلسطين . وطبقا لمعلومات حصلت عليها من عزام باشا وعدد آخر من المصادر المطلعة ، فإن الأمر لم يحسم بعد بطريقة قاطعة . ولن يتم ذلك قبل :

١ - موافقة ابن سعود وحكومتي سوريا ولبنان .

٢ - إعطاء الفرصة للمتطوعين إذا ظهر أنهم قادرون على حماية السكان الفلسطينيين .

٣ - إذا أمكن تعبئة الجيوش العربية وتنسيق جهودها .

إن عزام باشا سافر اليوم إلى بيروت ودمشق وعمان والرياض لاستطلاع المواقف وتنسيق الجهود . كذلك توجه حلمى حسين بك^(٣) مبعوثا من الملك فاروق إلى الرياض برسالة إلى الملك ابن سعود .

(٣) كان الأميرالاي "حلمى حسين" بك هو سئول التنقلات فى العمر الملكى ، ومن الغريب أن يعهد إليه بمهام سياسية على هذا المستوى العالى والدقيق .

إن طبيعة الاتفاقات التي جرت بين الدول العربية لم تتضح بعد ، ولكن يبدو طبقا لمصادر مطلعة أن الأردن والعراق والقوات السورية معززة بوحدة من لبتان سوف تقوم بالمجهود الرئيسي . وأما مساهمة مصر فسوف تقتصر على المساعدات المالية حتى يتضح الموقف بعد انتهاء الانتداب يوم ١٥ مايو .

إن وقود العراق والأردن وكذلك الوفد المصري أبدت اتخاذ إجراءات كافية لتنفيس ضغط الرأي العام . ولا تزال الحكومة المصرية تعارض في دخول قوات رسمية قبل ١٥ مايو . وليس هناك دليل يدعونا إلى الاعتقاد بأن الملك "فاروق" غير تأكيداتى لى بأن القوات المصرية لن تدخل إلى فلسطين قبل أن تتضح الأحوال فى ١٥ مايو . وقد تم إخطار السفارة البريطانية هنا بالألا تسيء فهم تحرك قوات مصرية إلى العريش ، فهذا إجراء يهدف إلى طمأنة الرأي العام المصرى وإرضائه بأن بلده لن يتخلف عن العمل العربى العام . وقد أكدت مصادر مطلعة فى الجيش المصرى لنا أن قطارين محملين بقوات عسكرية مصرية غادرا القاهرة إلى العريش يوم ٢٧ إبريل وعليهما مجموعة قيادة وقوة كتيبة واحدة مزودة بمدافع رشاشة ، وكذلك مجموعة مشاة وتعداد القوات كلها ألف ومائة جندى .

إن عزام باشا قال لفيليب أيرلاند (السكرتير الأول للسفارة الأمريكية فى القاهرة) "إن تطور الأحداث فى فلسطين يشير إلى تصميم اليهود فيها على مواجهة العالم بأمر واقع يوم ١٤ مايو حين يعلنون قيام دولة يهودية ثم تتوغل قواتهم فى الأراضى المخصصة للدولة العربية قدر ما تستطيع أن تصل ، وإن هذا هو الذى جملة يغير رأيه بشأن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين ، وهو يشعر أن الأمور قد تصل إلى حد انسحاب كل الدول العربية من الأمم المتحدة .

.....
.....

إمضاء

بنكنى تاك

• وثيقة رقم ٣٠٤٨ - ٠١/٤ ن ٨٦٧

برقية من السفير الأمريكى فى مصر بنكنى تاك إلى وزير الخارجية .

القاهرة : ٣٠ إبريل ١٩٤٨

تلقينا مذكرة من الجامعة العربية بشأن الأماكن المقدسة فى القدس وضرورة
حمايتها من العمليات العسكرية التى تقوم بها القوات الصهيونية فى فلسطين .

وتقترح المذكرة حفاظا على هذه المقدسات من أى عدوان ، التزام جميع الأطراف
بوقف أى اشتباكات مسلحة داخل القدس . وقد أبدت الجامعة استعدادها لتمويل
قوة دولية خاصة تقوم بحماية هذه الأماكن المقدسة .

.....

.....

إمضاء

بنكسى تراك

كانت الحكومات فى حالة حيرة شديدة ، ثم إنها كانت تمارس قدرا كبيرا جدا من
ضبط النفس أمام تجربة لم يتهيبا لها أحد .

النقراشسى باشا

“ كيف نستطيع إعلان الاعتراف بدولة لم يعلن قيامها بعد ”

(مساعد وزير الخارجية الأمريكى فى حوار مع مستشار الرئيس الأمريكى)

كان ضغط الشعوب العربية على حكوماتها هائلا . وقد بدا ما توقعه الأميين العام لجامعة الدول العربية “عبد الرحمن عزام” باشا على وشك أن يتحقق ، ومؤداه أن “اليهود” سوف يضعون العرب والعالم أمام أمر واقع فيقيمون دولتهم فى الأراضى المخصصة لهم بقرار التقسيم ، ثم لا يتوقفون هناك .

كانت الوكالة اليهودية قد تحولت بالفعل إلى حكومة . وكان لهذه الوكالة جيش متمثل فى قوات “الهاجاناه” (قوات الدفاع) ، وكان جيشها أكبر من كل توقعات العرب وحتى خيالاتهم . ثم إن هذا الجيش قادر على الإمساك فوراً بالمناطق المخصصة للدولة اليهودية ، وهو بعدها جاهز للوثوب على أرض الدولة العربية فى فلسطين .

وفى مقابل ذلك فإن شعب فلسطين مكشوف ينتظر المدد العربى . وقد وصلت إلى أرضه بالفعل مجموعات من قوات المتطوعين العرب : من سوريا والعراق فى الشمال ، ومن مصر فى الجنوب على الخط ما بين العوجة إلى بئر سبع و إلى بيت لحم . لكن قوات المتطوعين على بسالتها - وخصوصا القوات المصرية بقيادة الأميرالاي “أحمد عبد العزيز” - لم تكن فى وضع يسمح لها بالوقوف أمام قوات الهاجاناه التى كانت على وشك أن تتحول إلى “جيش الدفاع الإسرائيلى” .

ولم يكن أمام الدول العربية خيار سوى أن تتقدم نحو ساحات فلسطين بخطى متثاقلة . وكان الواضح أن الدول العربية كلها تقصر عملياتها على الأجزاء العربية من فلسطين ، ولكي تؤمنها وتحميها من إغارة القوات اليهودية عليها . وكان معنى ذلك واقعيًا - وإن لم يكن قانونيًا - أن الدول العربية اعترفت بقرار التقسيم وقررت العمل في حدوده . كانت الدول العربية قد أنشأت قيادة عليا لجيوشها تنسق استراتيجيتها عملها في فلسطين . وقد رثى أن يتولى الملك "عبد الله" ملك الأردن هذه القيادة العليا بنفسه . وكانت لذلك أسباب عملية أهمها ما يلي :

١ - إن الأردن هو أقرب البلدان العربية إلى قلب فلسطين . وبالتالي فإن قواته قادرة على الوصول بسهولة إلى المناطق الحيوية في العمق الفلسطيني .

٢ - إن الملك "عبد الله" كان لديه واحد من أقوى الجيوش العربية المجهزة لنوع ما من القتال . فالفيلق العربي الذي أنشأه الإنجليز وتولوا كل المراكز الحساسة في قياداته ، ووضعا على رأسه قائده الشهير "جلوب" باشا كان على مستوى عسكري يفضل حال بقية الجيوش العربية .

٣ - وساعد على هذا الوضع حقيقة أن مصر لم تكن حتى وقت متأخر قد حسمت رأياها على دخول الحرب . وبالتالي فإن جيشها ، على فرض أنه كان مستعدا .. كانت بينه وبين ميادين القتال مسافات واسعة .

٤ - وربما أضيف إلى كل هذه الأسباب أن معظم الدول العربية كانت تشك في نوايا الملك "عبد الله" وتتصور أن هدفه هو ضم فلسطين العربية إلى مملكته . وكان الظن أن تولى الملك لقيادة الجيوش العربية سوف يكبح جماح طموحه الشخصي بثقة عربية ظاهرة وصلت إلى حد اختياره قائدا أعلى لكل الجيوش العربية .



وكانت تحت القيادة العليا التي يتولاها الملك قيادة عامة للجيوش العربية أسندت إلى اللواء العراقي "إسماعيل صفوت" باشا . وقد وضعت هذه القيادة خططا طموحة على الورق ، لكن الذين وضعوها أنفسهم كانوا يعرفون مسبقا أنها مستحيلة التحقيق ، فالقائد العام "صفوت" باشا لن تكون له في حقيقة الأمر أى سلطة على بقية الجيوش العربية لأن هذه الجيوش سوف تكون باستمرار في يد حكوماتها التي كانت لكل منها حسابات خاصة

تختلف أكثر مما تتفق . وكان "إسماعيل صفوت" باشا ضابطا لم يعيش تجربة ميادين القتال ، وقد ترقى إلى رتبته الرفيعة - كما هو الحال في معظم الجيوش العربية وقتها - بحكم الأقدمية ، وبتقدير أنه ضابط مأمون لا يتجاوز تفكيره حدود خرائطه .

والواقع أن "إسماعيل صفوت" باشا خسر قيادته قبل أن يمارسها . فقد حدث قبل أسبوع من بدء القتال أنه خرج من الفندق الذى يقيم فيه فى القاهرة وهو فندق "سبرد" القديم ليترى قبل أن يحضر اجتماعا للجنة العسكرية لجامعة الدول العربية . وجوار سور الأزبكية شاهد اللواء "صفوت" باشا مجموعة صغيرة من المارة يلتفون حول رجل يلعب معهم لعبة "الثلاث ورقات" ، ووقف القائد العام للجيوش العربية يشاهد ما يجرى ، ويبدو أن اللعبة أثارت فضارقه فيها . وفى عشر دقائق كان اللواء "صفوت" باشا قد خسر كل ما معه من نقود وكان مبلغ ٢٨٦ جنيها . ولم يكتف "صفوت" باشا بخسارة أمواله ، وإنما دخل فى مشادة مع لاعب "الثلاث ورقات" وصلت إلى قسم بوليس الأزبكية . وتعطل القائد العام للجيوش العربية عن حضور اجتماع اللجنة العسكرية ، وحين وصل إليها متأخرا كانت تفاصيل حادثة النصب التى وقع ضحيتها قد سبقته إلى هناك ، وكانت دليل شؤم مبكر .

ومن مجمل الأوضاع وحقائقها أن الملك "عبد الله" مارس دور القائد الأعلى دون أن يكون بجانبه قائد عام ميدانى ينسق العمليات بين الجبهات العربية المشتركة . وفى واقع الأمر فإن هذه المهمة انتهت بطريقة عملية إلى يد الجنرال "جلوب" باشا وإلى رئيس أركان حربه البريجادير "برودهيرست" . وكان مزعجا أن تكون مقاليد العمل العربى العسكرى فى هذه اللحظات الحاسمة فى يد مجموعة من الضباط الإنجليز .

.....

.....

ويوم الأربعاء ١٢ مايو ١٩٤٨ كان "النقراشى" باشا يقف أمام جلسة سرية لمجلس النواب المصرى مكاشفا أعضاء المجلس بقرار من الحكومة بالاشتراك فى معارك فلسطين . كان رئيس الوزراء المصرى قد غير موقفه فى دورة كاملة عن موقفه الأصلى . وفى البداية كان مترددا لأسباب لديه معقولة (سبقته الإشارة إليها فى سياق برقية من السفير الأمريكى فى القاهرة إلى وزير خارجيته) . وبعدها بأيام - يوم ١٢ مايو - كان "النقراشى" باشا قد انقلب من معارض لاشتراك الجيش المصرى فى معارك فلسطين إلى مؤيد له . ومن الانصاف للرجل أنه فعل ذلك دون أن تكون لديه فكرة واضحة عن القوة العسكرية للدولة اليهودية ، و إلى جانب ذلك فإن الملك "فاروق" كان يمارس عليه ضغطا شديدا

كى لا تتخلف مصر عن بقية الدول العربية ، وتفقد مكانتها فى العالم العربى
وخصوصا مشرقه .



فى نفس اليوم - ١٢ مايو ١٩٤٨ - كان هناك اجتماع فى البيت الأبيض برئاسة "هارى
ترومان" رئيس الولايات المتحدة نفسه . وقد حضره مع الرئيس كل من وزير الخارجية
(آتشيسون) ومساعد الوزير (لوفيت) ، و"كلارك كليفورد" و"ديفيد نايلز" و"ماثيو كونيللى" من
مستشارى الرئيس فى البيت الأبيض ، واثنان من خبراء وزارة الخارجية هما "فريزر ويلكنز"
و"روبرت ماكيننتوك" .

وطبقا للوثيقة رقم ١٢٤٨ - ٥/ب ب فلسطين ٥٠١ ، فإن وقائع هذه الجلسة جرت
على النحو التالى :

" بدأ الرئيس فقال إنه دعا إلى هذا الاجتماع لأنه أصبح شديد القلق على ما
يمكن أن يحدث فى فلسطين يوم ١٥ مايو . وبدأ المستر لوفيت يقدم عرضا وأفيا
للحوادث ، ثم ركز كلامه على وقائع يوم السبت ٨ مايو حين جاء المستر موسى
شروتوك مندوب الوكالة اليهودية . ففى ذلك اليوم (٨ مايو) جاء شروتوك ومعه
الدكتور إيبشتين بمعلومات هامة عرضها على الوزير . قال المستر شروتوك "إن وزير
المستعمرات البريطانى السير آرثر كريتش جونز أخبره رسميا بأن الملك عبد الله
ملك الأردن سوف يدخل بجيشه يوم ١٥ مايو إلى الأجزاء العربية المخصصة
للعرب فى فلسطين . وفى رأى وزير المواصلات البريطانى أن هذا التعهد من الملك
عبد الله يمكن الاطمئنان إليه بواقع أن الجيش الأردنى يتسوده ضباط بريطانيون
وتموله الحكومة البريطانية . أضاف شروتوك إلى ذلك أن رسالة وصلتته من الوكالة
اليهودية فى فلسطين أخطرتة أن الكولونيل جولدى من هيئة أركان حرب الفيلق
العربى الأردنى اتصل بالوكالة اليهودية ناقلا رسالة مؤداها أن صفقة يمكن
ترتيبها بين عبد الله والوكالة ، وإن الملك سوف يدخل الأجزاء العربية من
فلسطين تاركا لليهود ملكية الباقي من هذا البلد .

.....

.....

تدخل المستر كلارك كليفوردي^(٤) في المناقشة فأوضح ثلاث نقاط :

النقطة الأولى : إن تقسيم فلسطين قد وقع فعلا بدون تدخل قوات خارجية.

النقطة الثانية : إن المستر كليفوردي توجه إلى الرئيس طالبا منه أن يعطى اعترافه الرسمي للدولة اليهودية في فلسطين فور انتهاء الانتداب البريطاني يوم ١٥ مايو ، وفي رأيه أن الولايات المتحدة يجب أن تسبق الاتحاد السوفيتي في الاعتراف بالدولة اليهودية .

والنقطة الثالثة : إن الرئيس يجب أن يعلن في مؤتمره الصحفي في اليوم التالي - ١٣ مايو - عزم الولايات المتحدة على الاعتراف بالدولة اليهودية .

وقدم المستر كليفوردي مشروع صياغة لما يمكن أن يقوله الرئيس في تصريحه ، وكان نصه : "إنني طلبت من وزير الخارجية أن يطلب من ممثل الولايات المتحدة في الأمم المتحدة أن يحصل على اعتراف مبكر من أعضاء المنظمة الدولية بالاعتراف بالدولة اليهودية في فلسطين" . واعترض مساعد الوزير المستر لوفيت قائلا "إن ذلك سوف يكون استباقا للأمر لا داعي له ، فكيف يمكن أن تعلن الأمم المتحدة اعترافها بدولة لم يعلن قيامها بعد" .

.....

.....

وافق الرئيس على مشروع إعلان يقول "إنني أنظر بروح العطف إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين طبقا لقرار الأمم المتحدة بتاريخ ٢٩ نوفمبر . وعندما يجرى إعلان دولة يهودية في فلسطين فإني أرى أن تقدم الولايات المتحدة اعترافها بهذه الدولة" .

ثم تجيء وثيقة أمريكية تالية برقم ١٤٤٨ - ١/٥ ن ٨٦٧ ، وقد جاء فيها ما يلي :

" تلقت وزارة الخارجية في الساعة ٤:٤٥م بعد ظهر يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ رسالة من المستر كلارك كليفوردي المستشار الخاص للرئيس ترومان جاء فيها :

"إن الرئيس عرف أن دولة يهودية باسم "إسرائيل" سوف يعلن قيامها في فلسطين في الساعة السادسة بعد ظهر اليوم (أى بعد ربع ساعة من رسالة كليفوردي).

(٤) كان "كلارك كليفوردي" بعد ذلك أحد أطراف واحدة من أكبر فضائح البنوك العربية في الولايات المتحدة ، فبعض العرب لم يجدوا غيره ليكون رجلهم في مشروعاتهم المالية في أمريكا !

إن الرئيس طلب منى إخطار الوفد فى الأمم المتحدة بإعلان اعتراف الولايات المتحدة بهذه الدولة فور إعلان قيامها ."

وقد أضاف كليفور فى رسالة الرئيس إلى وزارة الخارجية ، وقد تلقاها الوزير المفوض دين راسك (أصبح بعد ذلك وزيرا للخارجية مع الرئيس كنيدي) :
"هذا ما يرغب الرئيس فى عمله ، وقد أخطرتكم به" .



فى نفس الساعات تقريبا ، وبالتوازي مع ما كان يحدث فى مجلس النواب المصرى وفى البيت الأبيض الأمريكى ، كان هناك مشهد أكثر غرابة يجرى فى عمان . فقد وصلت إلى العاصمة الأردنية السيدة "جولدا مائير" (وزيرة الخارجية ورئيسة وزراء إسرائيل) مندوبة عن الوكالة اليهودية ، وكانت متخفية فى زى رجل بدوى لوعده مرتب مع الملك "عبد الله" ملك الأردن . وكان ذلك اجتماع الساعة الأخيرة قبل أن تقترب الجيوش العربية من حدود فلسطين .

كانت الوكالة اليهودية مبكرا تحسب حسابا لبلدين : الأردن ، بحكم أن الفيلق العربى قريب بأكثر من اللازم من فلسطين ، بل إن أحد ألبوته كان يعمل بالفعل فيها على مواقع من جسر اللنبي إلى القدس ، بما فى ذلك منطقة أريحا . وكان البلد الثانى هو مصر باعتبار ما تمثله من وزن سياسى وتأثير أدبى ومعنوى على بقية العالم العربى . ولم تكن لإسرائيل دعاوى دينية أو أسطورية فى الأراضى المصرية . كما أن حجم مصر كان قوة من نوع تختلف عن كل ما يحيط بفلسطين فى المشرق . وكان ذلك الحجم فى حد ذاته "طاقة" لا تريد إسرائيل أن تشتبك معها .

وفيعا يتعلق بالأردن والملك "عبد الله" فقد كانت الوكالة اليهودية باستمرار على علاقة به ، كما أنه كان على علاقة بها . وفى الواقع فإن سفرة "جولدا مائير" السرية إلى عمان يوم ١٢ مايو كانت تكملة لاجتماع غير حاسم بين الملك "عبد الله" وبين "موشى شرتوك" .

وكان الاجتماع بين الملك و"شرتوك" قد جرى يوم ١٢ ابريل ، أى قبل شهر من سفرة "جولدا مائير" . وفى ذلك اليوم (١٢ ابريل) قال الملك لخاصته إنه يريد أن يزور مقام الصحابى الجليل "أبى عبيدة بن الجراح" . ويروى اللواء "عبد الله التل" القائد الأردنى

لمنطقة القدس والذى جرى اللقاء فى منطقة قيادته ، إن الملك وصل إلى مزرعة أحد أصدقائه فى منطقة الغور ثم مشى من بين الأشجار إلى مستعمرة مشروع "روتنبيرج" (الكهرياء) ، وهناك كان فى انتظاره "موشى شرتوك" الذى دعى للغداء معه على مائدة مضيئه . ويظهر أن الاجتماع لم يصل إلى نتيجة مرضية ، وبقيت الاتصالات معلقة بعده مرتبطة باجتماع يعقد سرا فيما بعد فى عمان . لكن "شرتوك" كان قد أوفد إلى نيويورك ، وقررت الوكالة اليهودية أن تقبل تطوع "جولدا مائير" لأداء المهمة بدلا منه .

وليلة ١٢ مايو وصلت سيارة يقودها أحد رجال الملك إلى منطقة الغور وإلى نفس المزرعة التى تم فيها لقاء الملك مع "شرتوك" قبل شهر . وفى الساعة التاسعة كانت "جولدا مائير" تردى الكوفية والعقال وعباءة فوقها وتدخل إلى خلفية السيارة ، ثم تتوجه مباشرة من هناك إلى بيت للملك على أطراف عمان . كانت الساعة الحادية عشرة مساء ، وطبقا لوصف اللواء "عبد الله التل" فإن "جولدا مائير" كانت مضطربة ولم تتناول عشاء أمر الملك بإعداده . ولاحظ الملك اضطرابها فراح يلاطفها لتهدئة مشاعرها ، وقد راحت بعد ذلك تعرض عليه آخر مقترحات الوكالة اليهودية ، وكانت على النحو التالي :

- ١ - أن يعلن جلالة الملك الصلح مع اليهود ، ولا يبعث بجيشه إلى فلسطين بالمرّة .
- ٢ - أن يرسل جلالته واليا ليحكم القسم العربى من فلسطين بحسب قرار التقسيم .
- ٣ - فى مقابل ذلك تقبل الوكالة اليهودية ضم القسم العربى من فلسطين إلى التاج الهاشمى .

وروى اللواء "عبد الله التل" أن "جلالته رفض تنفيذ الشرط الأول لأنه يظهره بمظهر الخارج على الاجماع العربى . وتعهد الملك فى مقابل ذلك " ألا يحدث صدام بين جيشه وبين الجيش اليهودى " ، وأن يقف الجيشان فى الحدود التى رسمها التقسيم . "وقبلت "جولدا مائير" رأى "جلالة الملك" وأخذت عليه العهد بذلك" .

والغريب أن الإنسان العربى العادى ، وبغير معلومات ، كان بشعوره الباطن يحس بأن موقف الملك "عبد الله" فى الباطن غيره فى الظاهر . وجرى فى سهل أريحا فى اليوم التالى مشهد بالغ الغرابة حين وقف الملك ، غداة اجتماعه مع "جولدا مائير" ، يستعرض فرقة من جيشه كانت تعسكر بالفعل فى المنطقة ، وقيل إنها ذاهبة إلى القدس لحمايتها .

بدا المشهد مهيبا . فسهل أريحا منبسطة ، وتلال "الخان الأحمر" تبدو من بعيد غامضة مثقلة بعبء الأساطير ، وفرقة الجيش الأردنى مصطفة وموسيقاها تددق ، والملك "عبد الله" واقف على منصة مرتفعة ووراءه يقف الجنرال "جلوب" باشا وأركانناات

حربه من الضباط الإنجليز . ونادى الملك على إمام مسجد عجوز وضرير دعسى إلى حضور الاحتفال ، وقال له : "أيها الشيخ .. عظم الجيش" .

ووقف الشيخ العجوز الضرير على المنصة بجوار الملك وهو لا يرى شيئا ولكنه يحس بكل شيء . صمت لحظات وأنظار الكل وآذانهم معلقة به ، ثم صاح مناديا : "أيها الجيش ، ليتك لنا" .

فوجئ الملك بما قاله الشيخ ، وهمس قائلا : "قَبْحك الله ، ضرير أعمى بعينيك وأعمى بقلبك" . واقتيد الشيخ من المنصة ، لكن آفاق أريحا كانت تتجاوب بأصداء الحقيقة . فالجيش الأردني بالفعل كان جيشا عربيا ، لكنه في تلك اللحظة من تاريخه لم يكن ملكا للعرب .

بن جوريسون (٢)

" الجامعة ليست جامعة وقراراتها ليست
قرارات "

(الملك "عهد الله" لـ"إيهو ساسون" عن اجتماعات
الجامعة العربية)

كان موقف الحركة الصهيونية تجاه مصر شحنة تناقضات مكهربة ، وذلك لدواع
قديمة وجديدة :

- بالدين وبالتاريخ وبالأساطير فإن مصر هي العدو الذي أخرج اليهود من وادي النيل إلى تيه الصحراء ، ومع أن هناك كلاما كثيرا يمكن أن يقال في هذا الشأن ، فإن العبرة ليست بتحقيق الوقائع أو تدقيقها ، وإنما مخاطر الأمر في النهاية هي موقف أصحاب الشأن أنفسهم ومن منظورهم . فإذا كانت مصر هي العدو في كل ما ترسب من التراث اليهودي ، فمعنى ذلك أنها العدو بالفعل ، لأنه ليس في مقدور الحاضر مهما فعل أن يحو الموروث أو يحوله إلى سحابات دخان . ولو أن ذلك حدث بمعجزة خارج الخيال ، فإن الدعاوى الصهيونية كلها يمكن أن تتحول إلى وهم لا علاقة له بالحاضر أو بالمستقبل .

- يضاف إلى ذلك أن المشروع الصهيوني المتكئ أساسا على استراتيجية عزل مصر عن الشام ، يواجه في المحصلة الأخيرة طاقة مصر التاريخية بثوابتها ، وإمكانيات مصر المعاصرة بكل ما يعتريها من عوامل النهوض أو عقبات التعثر أو عوارض الانكماش والتراجع .

وإذا صح - وهو صحيح - أن فلسطين هي الجسر الذي يربط مصر وسوريا ..

وإذا كان لازما وقد رآه "نابليون" و"المارستون" ومن بعدهما لازما - أن يتحول الجسر إلى حاجز - إذن فإن ممكن الخطر الوحيد على هذا الحاجز هو في مصر ، فهي في الشرق كتلة إنسانية متماسكة وراسخة وقادرة بالكف الموجود ، وبالكيف المحتمل ، على عرقلة المشروع اليهودي في فلسطين بمقاومته ، أو التصدي له ومحاربتة .

وعلى العكس من الكتلة الإنسانية المصرية في الجنوب ، فإن الشمال والشرق من حول فلسطين كانا أقل تماسكا من ناحية الكم ومن ناحية التباين الطائفي والمذهبي - وأحيانا العرقي - بما يسمح بوجود حالة من الخلخلة يسهل على المشروع الصهيوني استغلالها والنفاذ من ثغراتها المفتوحة .

هكذا فإن حسابات المشروع الصهيوني في فلسطين كانت تولي اهتمامها الأول لسياسات القوى العظمى الحاكمة في المنطقة ، ثم يلي ذلك مباشرة على أرض الصراع نفسها الاهتمام بمصر .

ولم تكن المؤسسات الصهيونية التي برزت لمسئوليات المشروع الصهيوني في فلسطين على استعداد للتطوع مبكرا بجرّ مصر إلى الصراع العربي - الإسرائيلي . ولا كانت راغبة في استفزازها بغير داع . وكانت هناك اعتبارات تساعد على هذا الموقف الحذر تجاه مصر :

- ليست لليهود مطالبات دينية أو أسطورية في مصر .
- وبحجم مصر وإمكاناتها فإنه من الأفضل تغاديها .
- ثم إن هناك جالية يهودية قوية في مصر .
- وهذه الجالية اليهودية في مصر نشيطة في موقع هو الأشد قريبا من أرض المشروع الصهيوني .
- ثم إن هناك تيارات فكرية لها قيمتها في مصر تنظر شمالا عبر البحر الأبيض ولا تنظر شرقا عبر سيناء .
- وهذا كله يتيح فرصة بدت نادرة ، ومؤداها أنه يمكن استغلال العدو القديم في تحقيق المشروع المستجد ، شريطة التعامل معه بذكاء وبعد نظر .
- وفي الساعات الحاسمة في مشروع إقامة دولة يهودية في فلسطين ، كانت الوكالة اليهودية منعمكة في ثلاث عمليات في نفس الوقت :
- عملية خارج المنطقة تتمثل في تحقيق الاستخدام الأمثل للموارد اليهودية في العالم ، خصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية .

• عملية داخل أرض مشروع الدولة ذاته ، وهي تتمثل فى الإسراع بكل وسائل القوة إلى خلق حقائق جديدة على الأرض ، بما فى ذلك مشاغلة الملك "عبد الله" واستغلال طموحه إلى ضم الأراضى المخصصة للدولة العربية فى فلسطين إلى مملكته الصغيرة التى لم يعتبرها قط لائحة به .

ثم كانت العملية الثالثة :

• متابعة تطور موقف مصر السياسى ، ثم العسكرى .

لم يكن كثيرون يعرفون أن "دافيد بن جوريون" - وهو المؤسس الفعلى لمشروع الدولة اليهودية فى فلسطين - يكتب يومياته بانتظام ، ولا يأوى إلى فراشه فى الليل مهما تأخر به السهر ، حتى يخط بقلمه وقائع ما عاشه طوال النهار .^(٥)

وفى ما بعد ذاع أمر يوميات "بن جوريون" . وحاول "بن جوريون" أن ينكر أنه كتب يومياته . ولكن الكاتب المجرى اليهودى الذائع الصيت "آرثر كوستلر" صاحب كتاب "الظلام فى عز الظهر" روى أنه بنفسه شاهد "بن جوريون" يكتب بعض النقط فى كراس أثناء حديثه معه . وحين سأله ، حاول "بن جوريون" أن ينفى كتابة يوميات . ثم تحقق الأمر بعد ذلك ، واعترف "بن جوريون" ، ولم يمانع فى نشر يومياته بعد وفاته . وهكذا فإن كتابات "بن جوريون" عن الحوادث فى وقت جريانها تعطى الآن صورة مدهشة للطريقة التى كانت القيادة اليهودية فيها تدير عملياتها على الجبهات الثلاث : أمريكا - وفلسطين ذاتها - ومصر .

□□ الأثنين ١ ديسمبر ١٩٤٧ - القدس

.....

.....

فى الثالثة من بعد الظهر اجتمعت إلى المندوب السامى (الجنرال أثن كاننجهام) . سألتنى هل ساعدت بالقرار (قرار التقسيم) ؟ قلت له إننى بعد صدور القرار أجدد الدعوة

(٥) نشرت مذكرات "بن جوريون" باللغة العربية بعنوان "يومان هملحما" سنة ١٩٨١ . وقد صدرت عن دار النشر التابعة مباشرة لقيادة الجيش الإسرائيلى ، وأشرف على إصدارها اثنان من المؤرخين الإسرائيليين هما "جيرشون ريبلين" و"الحانان أورن" . وقامت مؤسسة الدراسات الفلسطينية سنة ١٩٩٣ بنشرها باللغة العربية بعد أن ترجمها الأستاذ "سمير جيور" وراجعها الأستاذ "صبرى جريس" .

له والحكومة جلالته إلى الافتراق بطريقة ودية . لن أطلب شيئا ضد العرب أو على حساب العرب. إننا لن نعمل شيئا كهذا ، ولدينا حسن نية ، وتستطيعون الرحيل عن البلد بلا مبالاة وجفاء إذا أردتم ، أو يتعاون ودي معنا وهذا ما نطلبه . قلت له عندي مجموعة من القضايا :

"إنكم تقومون بتصوير وثائق ملكية الأراضي خشية إتلافها في حال وقوع اضطرابات . نريد نسخة واحدة لنا . " أجاب على الفور : "ستبقى الوثائق كلها في مكانها لمصلحة السكان . إنهم يصورون فقط فيلما سلبيا (negative) وهو يكلف أموالا كثيرة - خمسة آلاف جنيهه - . " سألته : "هل يمكن استخراج نسخة لنا ؟ قال "سيسال" .

انتقلت إلى القضية الثانية ، وهي مخزون المواد الغذائية . قلت له : "من المؤكد أنكم ستتركون مخزونا محدودا لا يكفي إلا لفترة قصيرة ، ونظرا لأننا لا نعرف ما يمكن أن يحدث فإننا نريد إعداد مخزون كبير ، ونريد استيراد كميات من المواد الغذائية خصوصا الدقيق والسكر . " أجاب أنه "سيجرى مشاورات" .

بالنسبة للوقود لاحظت أن شركات الوقود لجأت الآن إلى البيع بالبطاقات . قال إنه لا يعرف السبب فهذا شأن الشركات . قلت له إننا سندبر أمرنا مع الشركات إذا لم تعرقل الحكومة جهودنا .

أثرت مرة أخرى معه مسألة بيع كل أملاك الجيش البريطاني في فلسطين ، بما في ذلك الخيام والأسرة ، وقلت إننا نريد أن نشترى كل شيء بالجملة ، ونريده أن يوصى بذلك .

قلت له أيضا في ضوء الوضع الجديد إننا نريد إقامة إذاعة مستقلة في تل أبيب . قال : سنعطيك إمكانيات الإذاعة الحكومية . قلت : ولكن ذلك يجعل إذاعاتنا خاضعة للرقابة . قال : طبعاً ، ما دمنا هنا فنحن الحكام . قلت : نريد إذاعة يهودية من تل أبيب . قال : إن العرب لم يتقدموا بمثل هذا الطلب ، وإذا حصلتم على تصريح فقد يطلبون نفس الشيء . قلت : لا ينبغي أن نقاب لأن العرب لم يطلبوا . وعلى أي حال لا يهمني إذا أقيمت في نابلس إذاعة عربية . قال إنه سينظر في الأمر .

انتقلت إلى قضية أكثر خطورة . قتل سبعة من اليهود أمس ، ونحن نريد حراسة مسلحة تواكب كل حافلة ركاب . ونحن لا نريد سفك الدماء ولا الانتقام ، بل إمكانية الدفاع . قال إنه يفهم ، وسيعرض الأمر على المجلس التنفيذي . طلبت تصريحاً لشراء مسدسات ورشاشات لرجال الشرطة اليهود ، وسيارات مصفحة أيضاً .

.....

.....

- قبل المساء نزلت إلى تل أبيب . كلمنى موسى شرتوك هاتفيا من نيويورك .
كان ببساطة يريد أن يكلمنى . فى نيويورك هرج ومرج . لمح لى أنهم فى لندن يريدون
التحدث إلينا ، وقال إنه سيحضر إلى هنا عن طريق لندن . سألته عن العتاد العسكرى ،
وسوف يسافر إلى واشنطن لهذا السبب .

.....

.....

□ □ ٢ ديسمبر ١٩٤٧

.....

.....

- حضر أعضاء الحزب . بنحاس نافون عليه إعداد خطة لمعالجة المشكلة
العربية.

- موسى هاليفى يطالب بإعداد نشيد وطنى جديد . يعقوب دورى يقترح عمليات ضد
شركات النقل والمواصلات العربية . يقترح أيضا ضرب مرافق المياه . إسرائيل
جالى يوافق .

.....

.....

- طلبت من موسى أفريوخ الذى يسافر اليوم إلى الولايات المتحدة أن يبعثوا إلينا
بـنصف مليون جنيه اضافية . شلومو جور يطلب ٤٤٨٨٤ جنيه لبدء الإنتاج فى
إدارته (إدارة الأسلحة الكيميائية) بمساعدة الدكتور أشر شفايجر (عالم كيميائى) .

- حضر إلى يوسف بيرتس من صفد . هناك زعر والعرب يخرجون من الأحياء
اليهودية .

- اجتماع لدراسة الضباط وضباط الصف المؤهلين بين المهاجرين الموجودين فى أوروبا :
فى ألمانيا والنمسا : ضباط هيئة قيادة ٢٦٤ ضابطا - جنود بعدد ٢٠٥٤ .

في فرنسا بما فيها شمال أفريقيا : ضباط قيادة ٢٨٨ - جنود ١٠٨٠ + ٢٠٠ + ٢٣٨
أنفار من الرتبة "أ" .

في هنجاريا : ضباط ٢٤٣ - جنود رتبة "أ" ١٥٠ + رتبة "ب" ٩٠٠ .

في تشيكوسلوفاكيا : ضباط ٤٥ - جنود رتبة "أ" ١٩٨ .

في رومانيا : ضباط ٥٠ - جنود ٧٠ ، رتبة "ب" + ٧٠٠ .

في رومانيا مدرسة دائمة تدرب ٨٠ - ١٢٠ قائد جماعة كل ٦ أسابيع .

.....

.....

- إسرائيل جاليلي يقول إن كورتيس تحدث مع قادة قنوات الإيتسل ، يريدون أن
يبقوا كتنظيم مستقل بعيدا عنا حتى يتمكنوا من زحزحة الحدود ومحاربة العرب حتى إذا
الترمنا نحن بشيء .

□□ ١١ ديسمبر ١٩٤٧

.....

.....

- سالفين (المهندس حايم سالفين ، وهو أحد مؤسسي الصناعات العسكرية في
إسرائيل) أبلغني : سينتهي هذا الأسبوع تصنيع ٢٠٠٠ رشاش يدوي - وفي هذا الشهر يتم
إنتاج ٢٥٠ ألف طلقة - استأنفوا إنتاج مدفع هاون ٣ بوصة - ينتجون ٥٠٠٠ سِتْر (رشاش
يدوي) - على وشك الانتهاء من إنتاج ٦٠ ألف قنبلة ميلز - نحصل من أمريكا على ٥
أطنان بلسيتيد ، ومن إيطاليا على ثلاثة ونصف . يتطلب صنع مليون طلقة بندقية ٢
طن من البلسيتيد . سيصل من إيطاليا ثلاثة أطنان وربع T.N.T. (ديناميت) ، وسيصل
من أمريكا ٢٥٠ طنا . اللجنة المالية حولت مليوناً وربع مليون دولار للصناعات الحربية .

- شلومو جور أبلغني أن مصنع الكوريت سيبدأ العمل في أواخر ديسمبر، وخلال
يناير ينتجون ٣ أطنان ، وبعد ذلك ٤ أطنان كل شهر . من الجائز أن يتمكنوا من إنتاج
الديناميت بدون حامض النيتروجين ، وهذا لا يزال سرا . مصنع القنابل المسيلة للدموع
أعطى إنتاجه لهذا الشهر لرجال القدس . يفرغون الشهر القادم من صنع ٦ آلاف قنبلة .
رتبوا طاقة إنتاج ثلاثة آلاف لغم يوميا .

- عزرا دانين لا يقبل فرضية إياهو ساسون بأن المعارضة للقيادة العربية قد اختلفت . إنها قائمة تنتظر زوال ثورة الغضب . إن قواتها كطابور خامس فى المعسكر العربى لا تزال قائمة كما هى . الملك عبد الله لن يخضع لضغط الجامعة العربية . القاوقجى قائد جيش الإنقاذ يريد الاجتماع إلى ممثلين عنا .

- تناولت الغداء مع مينا ميريدور وإسرائيل جاليسى وإياهو ساسون . وصل من إيطاليا ٥٠٠ رشاش ، و١٧٠ بندقية ألمانية ، وربع مليون طلقة ٣٠٣ ، و٣٠٠ ألف طلقة ٩ ملم ، و٣٠٠ ألف طلقة من عبارات صغيرة للمسدسات ، إضافة إلى كمية من أمشاط الذخيرة لرشاشات البرن ، وأجهزة بصرية . واشتروا إضافة إلى ذلك نصف مليون طلقة صغيرة (٣٧ ألف دولار) ، وثلاثة ونصف طن T.N.T (٢٦ ألف دولار) ، وثلاثة ونصف طن بلستيد (١٥ ألف دولار) ، وأجهزة اتصال (٦٠ ألف دولار) . صرحت بطلبية جديدة للذخيرة (١٠٠ ألف دولار) .

- الحاخام حاييم ناحوم (حاخام مصر) تكلم هاتفيا مع ماجنس (رئيس الجامعة العربية) يطلب منه الذهاب إلى مصر . كان قد بعث له برسالة يوم ٩ ديسمبر أشار فيها إلى مسائل تتعلق بالسلام . سألت ماجنس : هل يعنى هذا الأمر مفاوضات ؟ قلت له إننا مستعدون للتباحث مع مصر بصورة رسمية أو غير رسمية ، ولكن كطرف متساو .

- يهودا أرزى منسق شراء السلاح فى الولايات المتحدة اشترى ثلاث طائرات كونستيليشن وعشر طائرات سى ٤٦ .

.....
.....

□□ الاثنين ٢٢ ديسمبر ١٩٤٧ - القدس

.....
.....

- نحن نتنصت على المكالمات الهاتفية للهيئة العربية العليا ، والمسجد (الأقصى) ، والدكتور الخالدى وعدد آخر . يبدو أن عالم الاجرام يتجمع هناك . يتضح من المكالمات أنه لا يوجد تنسيق بينهم .

– الجامعة العربية اتخذت بمقدار ما تعرف من الصحافة ومن عرب ومن مكالمات تليفونية سبعة عشر قرارا . ساسون يعرف تسعة منها . ربما سنعرف من أحد الأشخاص فى شرق الأردن ما إذا كانت القرارات نهائية ، وما إذا كان شرق الأردن موافقا عليها . لا بد من هزيمة الهيئة العربية العليا بطريقة ساحقة .

– تايجر يبلغ من جنوب أفريقيا اتفاقا على تدريب عشرين طيارا وملاحا فى جنوب أفريقيا ، وخمسة عشر ميكانيكا مهمين بالنسبة لنا لأنهم خدموا فى الطيران خلال الحرب (العالمية) .

– الساعة الثانية عشرة والربع عاد ساسون بعد أن قابل مندوبا عن الملك عبد الله . المندوب كان مع الملك قبل قليل وسأله عما يقوله لنا . الملك قال له : قل لهم الجامعة ليست جامعة والقرارات ليست قرارات . ونقلا عن الملك فقد طرحوا فى الجامعة مشروع قطع العلاقات مع الغرب كلام فارغ هل ابن سعود سيقطع علاقاته مع الأمريكيين ؟ كل واحد فى العالم العربى يزايد على الآخر . حتى العراق وشرق الأردن طالبا بقطع العلاقات . شرق الأردن طالب بالخروج من الأمم المتحدة . البيان الذى صدر بعد انتهاء اجتماعات الجامعة كان موجها لتغطية الفشل العربى . شرق الأردن لم يوافق على أى قرارات . مندوب الملك أعطى لساسون صورة للموقف . مصر أعلنت صراحة أنها لن تقدم سوى المال والدعاية والعمل السياسى ، لكن لا سلاح ولا جيش . ربما تسمح لتطوعين . لبنان قال إنه لا يستطيع تقديم أكثر من ٥٠٠ بندقيّة . سوريا لها حسابات أخرى . السعودية ستعطى دولارات .

ساسون سأل مندوب الملك عن الفيلق العربى . أجاب : الملك يطلب أن تشير صحافتكم ضجة فى شأن الفيلق العربى وتطالب بنقله من واقعه . وفى هذا الوقت تجنبوا الاشتباك معه . واطمنئنا ، فالسيطرة على الفيلق هى فى يد الإنجليز .

– عقدت اجتماعا لبحث فرص ضرب العملتين المصرية والسورية . المسألة المهمة : كيف ؟ بالنسبة للعملة السورية شمعونى يظن أن هذا ممكن لأن فرنسا تغطى العملة السورية .

.....

.....

□□ الخميس ١ يناير ١٩٤٨

.....

.....

— هذا الصباح زارنى فى منزلى وفد من جمعية الجنود المسرحين يريدون أن يخدموا معنا ويتساءلون لماذا لم يتم استدعاؤهم . العدد ١٢٢٥٠ .

— يجب أن نعتد فى عملنا على أسلوب الضربة الكبيرة . ليست المسألة إطلاق نار متواصلا ، وإنما ضربة قوية كبيرة وناجحة . إذا سمع المتطوعون فى البلاد المجاورة عن ضرباتنا الكبيرة هنا فسوف يترددون قبل المجرى .

— يحيرنى موقف الملك عبد الله . فى كل علاقاتنا به تبرز دائما مسألة الفيلق العربى . ميزانية الأردن كلها ٧٥٠ ألف جنيه ، لكن ميزانية الفيلق العربى مليونان ونصف المليون جنيه ، والإنجليز هم الذين يمولونه . والآن عندما ينسحب الإنجليز فمن الذى سيموّل الفيلق العربى ؟ وصل نبدأ أن الفيلق سيواصل العمل باسم الجامعة . الملك سيعيره إلى الجامعة كما أعاره للإنجليز فى مقابل ستة ملايين دولار .

قضية الفيلق غير واضحة .

.....

.....

□□ ١٧ يناير ١٩٤٨

.....

.....

— قواتنا فى النقب الآن ١٢٠٠ مضافا إليها ٥٠٠ فرد فى وحدات متنقلة . لا بد من تحسين النقب وإنشاء مستوطنات مؤقتة فيه حتى على أرض ليست لنا (النقب ملاصق لمصر) . إذا لم نحتفظ بصحراء النقب فإن تل أبيب لن تصمد . النقب مهم لإسرائيل .

.....

.....

١٩٥٥ يناير ١٩٤٨

.....

.....

– مندوبنا عاد من مقابلة مع الملك عبد الله . الملك مندهش لأننا لا نقيمه ولأننا نتهمه كما لو أنه يؤيد الجامعة . موقفه باق كما هو :

١ - لن يسمح للفيلق الأردني بمهاجمة يهود .

٢ - ما دام البريطانيون في البلد فإنه لا يستطيع التدخل .

٣ - الإنجليز لم يتكلموا معه حتى الآن لكن في ٢٤ من هذا الشهر سيسافر رجاله وأصدقائنا إلى لندن لإجراء مفاوضات وسنطرح مسألة مستقبل أرض إسرائيل .

٤ - سيخذ مبعوثوه في لندن موقفا بأنه موافق على التقسيم ، ولكن تقسيم لا يخزيه .

٥ - وهو يقول إننا قد نضطر إلى تعديل الحدود .

– الملك طلب أن نحصل له على دعم من أمريكا . وفوضنا أن نقول للأمريكان باسمه إنه موافق على التقسيم ، ومستعد للموافقة على تهدئة البلد ، ولا يريد أن يكون مرتبطا بالإنجليز وحدهم . أبلغنا الملك أننا سنؤيده وسنساعد في الحصول على قرض لتطوير دولته كلها ، وسنعطيه بأنفسنا من أموال الدولة اليهودية .

.....

.....

١٩٥٥ الخميس ٢٢ يناير ١٩٤٨

.....

.....

– جورج حكيم مطران الروم الكاثوليك صديق للملك فاروق . دافيد هاكوهين تحدث إلى حكيم قبل سفره واقترح عليه أن يشرح موقفنا للملك فاروق .

.....

.....

□□ ٢ فبراير ١٩٤٨

.....

.....

- طلبت إعداد خطة كاملة لإيلات لا بد أن نأخذها . فى إيلات صعوبتان :
- (أ) يجب المرور فى مياه مصر الإقليمية قبل عبور قناة السويس وبعد عبورها .
- (ب) عرض مدخل إيلات مهلان ، ولا بد من المرور فى المياه الإقليمية المصرية أو السعودية قبل الوصول إليها .

.....

.....

□□ ٩ فبراير ١٩٤٨

.....

.....

- ساسون لم يتمكن من حضور اجتماعنا اليوم لأن صديقه القبطى^(٦) وصل من القاهرة موفدا من قبل المسئولين فى بلاط الملك ، وهو يريد الإبلاغ عن ثلاثة أمور :
- (أ) إنجلترا تضغط على الدول العربية بالخطر الشيوعى اليهودى .
- (ب) إنجلترا تطلب بدعم من أمريكا أن تعلن الدول العربية أنه فى حالة نشوب حرب بين الدول العظمى فإنها ستلتحق بالجانب الأنجلو - ساكسونى .
- (ج) إنجلترا وأمريكا تريدان عقد تحالفات اقتصادية مع العالم العربى بدلا من تحالفات سياسية .

.....

.....

(٦) على الأرجح "إلماس أندراوس" باشا مستشار الملك "فاروق" للشئون المالية .

□□ الجمعة ١٣ فبراير ١٩٤٨

.....

.....

– يظهر أن النقيب سوف يكون الموضوع الأساسي الآن حتى في نظر الأمريكيين . لا يريدون أن يتسلم اليهود النقيب .

.....

.....

□□ الأحد ٧ مارس ١٩٤٨

.....

.....

– يقول ساسون إنه لا يوجد حتى الآن اتصال مع الملك عبد الله مع أنه كان من المفروض أن يأخذه مساء اليوم إلى مقابلة معه . يقول ساسون ، وروف شلواح يؤيده ، إن النزاع مع العرب لن يحسم بالقوة حتى النهاية . ويجب المحافظة على نقاط ثلاثة يمكن بواسطتها التكميم عن تفاهم . يجب محاولة مصر ولبنان وسوريا في بلاد الغرب : في فرنسا ، في سويسرا ، في إيطاليا مثلا .

ستكون فرنسا وتركيا والهند معنية في إحلال السلام في البلد . يقترح ساسون سفر إلياهو إيبشيتين إلى الهند ، إلى نهرو وليس إلى جناح زعيم المسلمين . شلواح يقترح أن يسافر ساسون إلى روما أو إلى باريس للاتصال بالعرب . سألت ساسون : هل يُنسى ملكك ؟ قال : كلا ، لكنه عاجز . وقال شلواح : إن الإنجليز يحاصرونه .

.....

.....

□□ الاثنين ٣١ مارس ١٩٤٨

.....

.....

– الدكتور أ. ن. فولك - (خبير أمريكي بالشئون العربية) - فى رأيه أنه يجب التخطيط للتخريب فى الدول العربية : العراق ومصر وسوريا . سدود الرى فى مصر يجب تدميرها . مخازن القطن المصرى يجب حرقها ، وكذلك مخازن التمسور العراقية . وإذا وصلنا إلى صدام مع هذه الدول فيجب ضرب أنابيب النفط خارج أرض إسرائيل . ولا بد أن نحدث فوضى مالية فى المنطقة العربية ويجب أن نسبب تضخما . ويمكن الافتراض أن العرب سيزيفون العملات ، ويجب أن نسبقهم .

.....

.....

□□ ٢٠ إبريل ١٩٤٨

.....

.....

– استديعت ساسون . الملك عبد الله يزداد شأنا كل يوم . توصل الجميع إلى اقتناع بوجود استخدام قوته (الفيلق العربى) . الجامعة العربية وجدت أن العصابات العربية تتلقى ضربات ، وتوصلت إلى اقتناع بضرورة وجود جيش نظامى والفيلق العربى هو هذا الجيش . الجامعة العربية اتخذت قرارا باستخدام جيش نظامى ، وبموجب هذا القرار من المفروض حضور جيش من لبنان وسوريا والعراق وشرق الأردن ، وربما حضور قوة رمزية من مصر أيضا .

– يعتقد عبد الله أن هذه الجيوش جميعها لن تصمد وقتا طويلا . وهو وحده القادر على وراثتها لأنه وحده يملك جيشا غير ضرورى لبلده . إن الضربات التى وجهتها الهاجاناه إلى المتطوعين العرب حملت المفتى وعرب أرض إسرائيل على الاقتناع بأنهم لا يستطيعون بقوتهم وحدها مواجهتنا . أصبح المفتى الآن معتمدا على الجامعة العربية كليا . والجامعة تدرك أن المسألة لم تعد مسألة متطوعين بل قوة نظامية ترافقها أسلحة ثقيلة : دبابات وطائرات .

.....

.....

□□ ٢ مايو ١٩٤٨

.....
.....

– عدت هذا الصباح إلى تل أبيب . عاد شلومو رابينوفيتش (غَيَّرَ اسمه بعد ذلك إلى شامير وأصبح رئيسا للوزراء في الثمانينات) . فى جيشر قابل شلومو كلا من العقيد جولدى والرائد كوكر من الفيلق العربى . ضابط الفيلق العربى طلب أن يتحدث معه . تكلموا باسم جلوب باشا قائد الفيلق ، يريدون إقامة اتصالات من أجل الحيلولة دون نشوب حرب . سألوا إذا كنا نريد احتلال البلد كله . كان الجواب عليهم أن الحدود مسألة تخص رجال السياسة ، لكن قواتنا قادرة على احتلال البلد كله . سألوا : هل سنهاجم القدس بعد حيفا ؟ كان الرد بأن القدس مدينة عبرية . قالوا إن الفيلق لا يريد مصادمتنا ، لكن ماذا سيفعلون حتى لا يظهروا خونة . سئلوا : ما هى التوجيهات السياسية عندهم ؟ كان ردهم غير واضح .

.....
.....

□□ ٧ مايو ١٩٤٨

.....
.....

– جلسة مع القيادة . بيجال يادين – بيجال آلون . مناقشة الوضع العسكرى فى كل البلد . قرار بإرسال وحدة استطلاع إلى مصر . لا بد من مراقبة حركة السير على كل الطرق المصرية الواصلة إلى سيناء .

.....
.....

□□ ١٣ مايو ١٩٤٨

.....

.....

– جلسة قيادة . أبرقت إلى جرانوفسكى لكى يفتح اعتمادا بمليون و٧٠٠ ألف دولار من أجل الطائرات . أثناء الجلسة حضرت جولدا (ماتين) من اجتماعها مع الملك عبد الله . نظرت إليها كى تعطينى فكرة سريعة . أعطتنى بطاقة كتبت عليها : "اجتماعى معه كان بروح ودية . هو قلق جدا ووجهه مكفهر . يعترف بكل ما دار بيننا . وهذا يعنى أنه سياخذ القسم العربى فقط . لكنه ليس الآن سوى واحد من خمسة ."

– النقب مهم . بحثنا هل يجب الاستيلاء الآن على بئر سبع ، وهى خارج حدود الدولة بمقتضى خريطة التقسيم ؟ اتجاه المعارك هو الذى سيقدر ذلك .

.....

.....

□□ ١٥ مايو ١٩٤٨

.....

.....

– أيقظونى مرتين فى هذه الليلة . فى الواحدة كى يبلغونى أن ترومان يعترف بالدولة اليهودية ، وفى الرابعة والنصف كى يبلغونى أن رجالنا فى أمريكا يطلبون منى أن أتحدث فى الإذاعة فوراً . بينما كنت أتحدث فى الإذاعة وقعت غارة جوية . قلت على الهواء : إنهم يتصفون تل أبيب . هناك سفينة مصرية تحمل قوات راسية قرب المجدل . ويبدو أن الإنجليز طلبوا من المصريين عدم التقدم شمالاً . خبر من إذاعة الجيش هذا الصباح بأن جيشاً مصرية سيدخل حدودنا صباح اليوم .

.....

.....

□□ ٢٤ مايو ١٩٤٨

.....

.....

– الضغط قوى فى النقب . هناك كتيبة مصرية مع مدافع يساعدها متطوعون من رجال الإخوان المسلمين موجودون فى النقب منذ وقت طويل . فى بئر سبع مصريون أيضا. القتال حول عراق سويدان والفالوجا والمنشية شديد . ركزنا عليهم هجوما ، وقد ثبتوا فى مواقعهم .

– اتخذنا قرارا بتعيين ماكليف قائدا للواء الكرملى مهمته احتلال جنوب لبنان بواسطة قصف صور وصيدا وببيروت من الجو . سنقصف بيروت من البحر أيضا .

تكيلف ييجال آللون ضرب جيش سوريا من الشرق والشمال .

ينبغى أن يقوم سلاحنا الجوى بقصف عمان .

إن الحلقة الضعيفة فى التحالف العربى هى لبنان إذ إن سلطة المسلمين فيها مصنعة ومن السهل تقويضها . يجب إقامة دولة مسيحية فى لبنان يكون نهر الليطانى حدها الجنوبى . سنعتقد حلفا مع هذه الدولة .

سنقضى أيضا على قوة الفيلق العربى وعندها تسقط سوريا .

إذا تجرأت مصر على مواصلة القتال سنقصف بورسعيد والإسكندرية والقاهرة .

وهكذا سننهى الحرب وسوف نصلى حساب أجدادنا مع مصر ومع آشور ومع آرام .

٥

برنــــــــــــــــــــــــــــــــادوت

“ الدولة اليهودية تريد أن تأخذ موقع مصر
في الشرق الأوسط ”

(دراسة لوزارة الخارجية المصرية سنة ١٩٤٨)

لقد سال حبر كثير على الورق عن حرب فلسطين . بأكثر مما سال دم في معاركها على مختلف الميادين . وهناك مراجع كثيرة عن هذه الحرب أبرزها “مذكرات اللواء عبد الله التل” قائد قوات الفيلق الأردني في القدس . ثم دراسة اللواء “حسن البدرى” عن الجولة العربية الإسرائيلية الأولى من الصراع المسلح ، وتلك وغيرها مراجع معتمدة لمن يريد العودة إليها لكن بعض لمحات الصورة العامة في ميادين القتال وما وراءها ، هى الأقدر على إضاءة هذه اللحظة من سياق الحوادث :

● إن مصر بالتحديد ، وهى أهم طرف عربى فى الحرب . خاضت غمارها واقعة تحت ظن أنها تدافع عن الشعب الفلسطينى فقط وتقصف معه فيما تعرض له . وكانت دوافعها هى روابط الأخوة والجوار . لكنه لم يخطر ببال كثيرين أن يعودوا إلى التاريخ البعيد والقرىب ويكتشفوا الحقيقة الاستراتيجية الكبرى ، وهى أن الحرب كانت فى الواقع من أجل مصر ولكى لا يتحقق عزلها عن محيطها طبقا لمخططات ترمى إلى حجز دورها وفعلها وحياتها وراء الصحراء فى سيناء .

وغاب عن معظم صناع القرار وقتها أن تضحيات الناس من أجل أوطان الجيران لها حدود ، ولكن تضحياتهم من أجل أوطانهم ذاتها ليست لها حدود .

● ويمكن القول ابتداء - وباطمئنان - أن الدول العربية التي وجدت نفسها فجأة تحمل مسئولية قرار سياسى إستراتيجى لا تعرف كيف تتصرف إزاءه ، وتطلب فيه - كما اتضح من بعض ما سبق - نصيحة ومشورة بريطانيا والولايات المتحدة عادت إلى الأطراف نفسها - بريطانيا والولايات المتحدة - تسألها المشورة بالنسبة لقرار الحرب .

والشاهد أنه لم تكن لدى العرب قيادة سياسية أو عسكرية تعرف ما فيه الكفاية عن فكرة الحرب وعناصرها ومطالبها ، وتحديد أهدافها ، وإدارة مجهودها . بل إن معظم القيادات لم يكن لديها الأساس العلمى أو الفنى أو الظنى الذى يمكن أن تمارس منه التجربة بما تحتمله من فرص الصواب والخطأ ، وبما تعطيه من خبرات مكتسبة نتيجة للممارسة بحيث تكون دروس هذه الممارسة تعويضا مقبولاً عن تكاليفها .

● يتصل بذلك أن العرب اعترافهم وهم العدد فتصوروا أنهم أقوى من اليهود فى فلسطين ، فهم وقتها أكثر من أربعين مليون عربى فى مواجهة أقل من نصف مليون يهودى . وبالتالي سرى اتكال على أن حشد الناس إذا كانت فيه الزيادة تحققت له الغلبة .

ولم يكن ذلك صحيحاً ، بل إنه لم يكن صحيحاً بحسب الأعداد ، إذا كان لا بد أن تستقيم قواعد الحساب .

ففى حين وضع العرب على كل جبهاتهم ما يصل إلى ٣٧ ألف جندى ، فإن الوكالة اليهودية فى فلسطين تمكنت من حشد ٨١ ألف مقاتل .

وكان معظم ضباط الجيش الإسرائيلى ممن سبقتم لهم الخدمة فى جيوش الحلفاء أثناء الحرب ، وكذلك كان حال كثيرين من جنودهم .

وكان الحال نفس الشيء فيما يتعلق بالسلاح والعتاد . وفى الطيران مثلاً كان لدى العرب مجتمعين ما لا يزيد عن ٣٠ طائرة ، فى حين تمكنت الوكالة اليهودية فى بداية شهر يونيو ١٩٤٨ من أن تصل بعدد ما لديها من الطائرات إلى ٧٨ طائرة .

● إن الجيوش العربية كلها لم تتلق توجيهها سياسياً محدداً بشأن الأهداف التى كان عليها أن تحققها فى فلسطين - على فرض أنه كان فى كفاءة وسلطة أى قيادة سياسية وقتها أن تحدد لجيوشها هدفاً - ولقد كان ما لدى هذه الجيوش أوامر بـ"التحرك إلى أماكن داخل فلسطين" تقع كلها فى إطار خطوط التقسيم داخل ما كان يفترض أن يكون "دولة فلسطينية عربية" . وقد تحركت هذه الجيوش إلى حيث كان مطلوباً منها أن تتحرك ، واشتبكت فى طريقها بمصادر نيران أطلقت عليها . ومن ذلك مثلاً أن الجيش المصرى فى طريقه إلى غزة اشتبك مع مستعمرة "كفار ضرور" ومسح مستعمرة "دير سنيد" .

لكنه وصل إلى الأطراف الشمالية لغزوة وتوقفَ هناك ، ولم يكن في أوامره ما يدفعه إلى أبعد !

• إن إمداد الجيوش العربية - والجيش المصري بالذات - بما يلزمه من أسلحة وذخائر ، بعد أن تحولت قضيته من مجرد انتقال إلى أماكن في فلسطين إلى احتمال قتال في هذه الأماكن ، كان يجرى بطريقة لا تدعو إلى الاطمئنان .

فالملك "فاروق" - عن طريق صلات غامضة بالإنجليز - كان يبدو واثقا من قدرته على تحصيل بعض الأسلحة والذخائر من القواعد البريطانية في القناة بوسائل من نوع ما . ولعل بعض أصدقائه من العسكريين الإنجليز أقنعوه أنه في استطاعتهم أن يغمضوا عيونهم وأن يتركوا كميات من الأسلحة والذخائر تخرج من القواعد في منطقة قناة السويس سرا ، بينما الأمر في حقيقته قرار يعطيه بعض ما يحتاجه للجيش ، حتى يقدر على عرقلة توسع الدولة اليهودية خارج حدود التقسيم ، ومن ثم يتحقق لبريطانيا هدفان في نفس الوقت :

◊ إبقاء الاتصال ما بين القواعد البريطانية في المنطقة - : قاعدة قناة السويس في مصر ، وقاعدة الزرقاء في الأردن ، وقاعدة الحبانية في العراق - مفتوحا .

◊ ومن ناحية أخرى الأمل في تحويل أنظار الشعب والجيش في مصر من هدف طلب جلاء بريطانيا عن الأراضي المصرية ، إلى هدف آخر في فلسطين . وهكذا تشغل مصر ويستريح بال بريطانيا .

وكانت الوسيلة الثانية التي اتبعها الملك "فاروق" ووزير حربيته اللواء "محمد حيدر" باشا هي إرسال بعثات شراء سلاح إلى أوروبا ، وإيطاليا على وجه التحديد ، لشراء مخلفات عسكرية مما تبقى هناك من معارك الحرب العالمية الثانية ، ومما لم تكن له قيمة ، تغرى الجيوش المحاربة أن تحمله مرة أخرى حين تعود إلى أوطانها . فقد كانت معظم هذه الأسلحة والذخائر متروكة في العراق لسنوات ، أو مكدسة في مخازن مهجورة ، معا أثر على صلاحيتها كثيرا .

وقد أدى ذلك إلى ما عرف بقضية الأسلحة الفاسدة .



إن القتال في فلسطين اتخذ شكل نيران متقطعة على مواقع متباعدة ، ثم توقف بفعل هدنة اقترحها وسيط دولي عينه مجلس الأمن لتباعدة قرار التقسيم والتوفيق بين العرب واليهود . ثم تجدد إطلاق النار مرة أخرى ، ثم عاد وتوقف .

وكان الوسيط الدولي - وهو الكونت "برنادوت" ابن عم ملك السويد - قد توصل إلى ضرورة أن تكون منطقة النقب في جنوب فلسطين داخلية ضمن الدولة العربية . وكان ذلك مرفوضا من إسرائيل ، وتقرر ضرب الكونت "برنادوت" بالرصاص في القدس ، وبين القتلة "إسحاق شامير" رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد ، وهو وقتها واحد من المقاتلين في "حركة الليحي" التابعة لمجموعة "الأرجون" الإرهابية ، وهى نفس المجموعة التى قتلت وزير الدولة البريطانى اللورد "موين" فى القاهرة قبل حرب فلسطين بثلاث سنوات !

ثم تطورت الأمور بعد مقتل الوسيط الدولى إلى حد دعا إلى عقد دورة عاجلة لمجلس الأمن فى قصر "شايبو" فى باريس .

وعلى هامش هذه الدورة الاستثنائية لمجلس الأمن فى خريف سنة ١٩٤٨ دارت اتصالات مباشرة بين العرب واليهود . وعقد رئيس الوفد المصرى هناك ، وهو وزير الخارجية المصرى "محمد أحمد خشبة" باشا ، اجتماعين مع "إياهو ساسون" .

وفى القاهرة حاول الحاخام "حاييم ناحوم" أفندى مع الملك "فاروق" . وقام الملك بإرسال وكيل الديوان "حسن يوسف" باشا إلى باريس ، ومعه مستشار الملك العسكرى (وزوج شقيقته) الأميرالاي "إسماعيل شيرين" بك ، وانضم إليهما الوزير المفوض "عبد المنعم مصطفى" . والتقى الوفد الملكى المصرى مع "إياهو ساسون" الذى جاء معه بضابط إسرائيلى - (يحتمل أن يكون "ديان" أو "آللون") - وعقد الطرفان ثلاثة اجتماعات لم تصل إلى نتيجة .

كانت مصر قد بدأت تتنبه إلى موضوع النقب وأهميته ، وربما لفت نظرها تقرير الوسيط الدولى الذى رأى وجوب بقاء النقب ضمن حدود الدولة الفلسطينية .

وكانت خشية مصر من ضم النقب إلى الدولة اليهودية تنبع من أسباب مختلفة :

١ - إن امتداد الدولة اليهودية إلى النقب يجعلها واصله إلى البحر الأحمر ، ومعنى أن تصبح الدولة اليهودية ممتدة من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر ، أن موقع إسرائيل سوف يوازى موقع مصر على منطقة ما بين البحرين ، وهى المنطقة "المفتاح" فى استراتيجية الشرق الأوسط .

٢ - إن ذلك الوضع سوف يعزل مصر برها عن بقية الدول العربية .

٣ - إن احتمال تعمير النقب سوف يأتى بكثافة سكانية يهودية لتعيش على جوار وتماس مع الحدود المصرية ، وهذا يعطى الفرصة لتجدد الاشتباكات .

٤ - ثم إن الكثافة السكانية اليهودية سوف تتمركز في مستعمرات على النمط الذى عرف في فلسطين - وكانت الصورة عنه في مصر أنه نمط من الحياة الشيوعية - وفى رأى مصر فإن ذلك خطر يهددها بعدوى انتقال المبادئ الشيوعية إليها !

وكان أن فشلت الاتصالات المصرية - الإسرائيلية بسبب اصرار الدولة اليهودية على ضم النقب إليها ، خلافا لما يقتضيه تقرير الوسيط الدولى المقتول الكونت "برنادوت" .
وهكذا فإن ما تعذر الاتفاق عليه فى قصر "شايو" فى باريس ، ارتد مرة أخرى إلى المنطقة وطرح نفسه على ميادين إطلاق النار فى فلسطين .
وكانت تلك طبيعة الأشياء بين طرف يعرف ما يريد ويصمم على بلوغه ، وطرف ثان تنبه متأخرا إلى ضروراته وهرع يحافظ على الحد الأدنى منها .
وكانت عجلة الحوادث تدور لم تتوقف بهدنة أو جلسات حوار تعقد فى السر فى عاصمة النور : باريس !

آلـــــــون

" إعطونا النقيب ولا تجعلوا إسرائيل دولة صغيرة
محشورة "

(هيئة الوزارة الإسرائيلية فى رسالة إلى الرئيس
الأمريكى)

كانت الأطراف الدولية المهتمة بالشرق الأوسط وما فيه من موارد استراتيجية واقتصادية، تتابع ما يجرى على أرض فلسطين عارفة أنها أمام لحظة فاصلة فى تاريخ المنطقة ، وأن ما يجرى على الأرض فى ميادين القتال سوف يصنع شكل المستقبل فى المنطقة ويرسم لها خريطة جديدة لا تقل أهمية عن خريطة "سايكس بيكو" . فخرطة "سايكس بيكو" كانت ترسم علامات حدود ، وأما الخريطة التى ستظهر بعد الحرب فسوف ترسم مواقع قوة وتأثير .

وكان الفارق بين الأداء العسكرى للعرب ولليهود موضوع متابعة دقيقة فى عواصم مختلفة ، وكانت واشنطن أولها . وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية التى أنشأها "ترومان" حديثا هى أنشط الأجهزة الأمريكية التى ركزت على الشرق الأوسط ، خصوصا وأن التأمين المبكر لموارد البترول العربى وضع تحت اختصاصها المباشر .

ويوم ٢٧ يوليو كتبت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تقريرا عن مسار الحرب (وثيقة رقم ٤٨ - ٣٨ ORE - سرى) وجهته إلى مكتب الرئيس "ترومان" وإلى وزير الدفاع ، جاء فيه :

"إن المعارك التي تجرى الآن أصبحت في جزء كبير منها معارك شكلية تتمثل في اشتباكات عشوائية وإن كانت متلاحقة . وبالتأكيد فإن إسرائيل نجحت في هذه المعارك ، كما أنها استفادت بشدة من فترات الهدنة . وطبقا لكل المصادر المتاحة لنا فإن اليهود أثبتوا قوتهم ، مما يسمح لهم الآن بتوجيه ضربة واسعة النطاق لإخراج القوات العربية من فلسطين . إن القوة اليهودية فاقت كل التوقعات السابقة . ومن الملاحظ أن هذا البلد الناشئ الصغير استطاع من الناحية التنظيمية أن يتفوق على دول أكبر منه وذات أوضاع مؤسسية أقدم . ويكفي لبيان ذلك دراسة التقديرات التالية لحجم القوات التي استطاعت الدول العربية حشدها من جانب ، واستطاعت دولة إسرائيل حشدها من جانب آخر :

المجموع	لها بالقرب من فلسطين	لها في فلسطين	قوات :
١٠ر٠٠٠	٤٠٠٠	٦٠٠٠	الأردن
١٠ر٠٠٠	١٠٠٠	٩٠٠٠	العراق
١٣ر٠٠٠	٨٠٠٠	٥٠٠٠	مصر
٢ر٥٠٠	١٥٠٠	١٠٠٠	سوريا
١ر٨٠٠	١٨٠٠	—	لبنان
(يدخل في الحساب قوات الداخل اللبناني)			
			المملكة العربية السعودية
٣ر٠٠٠	—	٣٠٠٠	قوات متطوعين من جنسيات عربية مختلفة
٦ر٥٠٠	٣٥٠٠	٣٠٠٠	

وبهذا يكون مجموع القوات العربية في فلسطين ٢٧ر٠٠٠ ، وبالقرب منها ١٩ر٨٠٠ ، والمجموع كله ٤٦ر٨٠٠ .

وأما فيما يتعلق بحجم القوات الإسرائيلية ، وكلها داخل فلسطين ، فهي على النحو التالي :

قوات ضاربة متحركة	١٧,٠٠٠
قوات نصف متحركة (للعمليات المحلية)	١٨,٠٠٠
قوات جيش الدفاع	٥٠,٠٠٠
قوة الأرجون	١٢,٠٠٠
قوة جماعات شتيرن	من ٤٠٠ إلى ٨٠٠

وأما إسرائيل فقد استطاعت أن تصل حجم قواتها إلى ٩٧,٨٠٠ مقاتل .

وهكذا فإن الولايات المتحدة ، إلى جانب أى ارتباط عاطفى أو سياسى اكتشفت باختبار علمى أن القوة الحقيقية يمكن أن يكون لها حساب يختلف عن حسابات الأعداد والأحجام ا فى منطقة مزدحمة بالمصالح الأمريكية .



إن النتائج التى أسفرت عنها تجربة الحرب كما شرحها تقرير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ، جاءت مقدمة طبيعية لأمر رئاسى صادر عن الرئيس "ترومان" وموجه إلى وزير الخارجية "مارشال" بتاريخ ١١ سبتمبر ١٩٤٨ ، نصه كما يلى :

"مذكرة إلى وزير الخارجية مارشال

من الرئيس

١ - كما تعلم فإننى منذ أصبحت رئيساً أعطيت تأييدى باستمرار لإنشاء دولة مستقلة لليهود فى الشرق الأوسط . إن الولايات المتحدة أخذت مركز القيادة فى إنشاء هذه الدولة المستقلة ، وأنا أعتقد أن ذلك لا بد أن يستمر .

٢ - إننى أعتقد أن تأييدا أمريكيا قويا للدولة الجديدة فى فلسطين سوف يؤدى إلى تثبيت الأوضاع فى الشرق الأوسط ، وسوف يساهم فى تدعيم السلام العالمى .

٣ - إننا الآن مهتمون بتقديم معوناتنا الاقتصادية والمعنوية إلى أمم أوروبا الغربية لكى نستطيع أن نمنع انتشار الشيوعية . وأنا اعتبر أنه من الضرورى فى نفس الوقت أن تقدم نفس المساعدات الاقتصادية لإسرائيل ولنفس الأسباب .

.....

.....

٤ - إننى ألاحظ أن ١٤ دولة قد حذت حذونا فى تقديم اعترافها العملى بإسرائيل ، وكان ذلك تحت تأثير الولايات المتحدة . وكان له بالتأكيد أثره فى المساعدة على استقرار الأوضاع فى الشرق الأوسط .

٥ - وبالنظر إلى ما سبق فإننى أرغب فى متابعة ذلك بالإجراءات التالية :

(أ) جهز وأعلن اعترافنا القانونى بإسرائيل على الفور .

(ب) رتب لتقديم قرض لإسرائيل فور إتمام الاتفاق على تفاصيله .

(ج) اتخذ الإجراءات العملية لمساعدة إسرائيل فى الحصول على عضوية الأمم المتحدة .

إننى عاكف الآن على صياغة إعلان من جانبنا يعترف بإسرائيل قانونيا ، وسوف أبعث به إليك إذا كانت لديك مقترحات . وعليك أن تبلغنى بالخطوات العملية التى ستخضعها بالنسبة لمسألة القرض ، وبالنسبة لقبول إسرائيل عضوا فى الأمم المتحدة .

هارى ترومان "



كان موضوع النقب هو الموضوع المعلق لسببين :

أولهما : أن تقرير "برنادوت" الذى كان حتى هذا الوقت الخريطة المطروحة على الساحة الدولية ، يعطى النقب للعرب ، ويقترح ضمه إلى الأردن .

وثانيهما : أن النقب حتى هذه اللحظة كان لا يزال تحت سيطرة القوات المصرية التى تعمل على الخط من "بيت جبرين" (على اتصال مع الخطوط الأردنية) إلى "المجدل" على شاطئ البحر الأبيض .

وكانت إسرائيل على استعداد أن تفعل كل ما من شأنه أن ينتزع النقب من العرب ، سواء فى ذلك ولاية الملك "عبد الله" المقترحة عليه أو وجود الجيش المصرى فعليا فيه . وقد أصبح النقب بالفعل هو الموقع الأساسى بالنسبة للجيش المصرى فى فلسطين .

وفى ٤ أكتوبر ١٩٤٨ كتب السفير الأمريكى فى إسرائيل "ماكدونالد" - وهو واحد من أشد الموالين للدولة اليهودية ، وهو من اختيار الرئيس "ترومان" شخصا - تقريرا من تل أبيب موجهة إلى وزير الخارجية ، ومنه إلى البيت الأبيض نصه كما يلى :

"برقية رقم ٤٤٨ - ١ ب ب ٥٠١

(سرى وعاجل)

شخصى للرئيس ولوزير الخارجية

عندما كان نوكس (نائب وزير الدفاع الأمريكى الذى أرسل على عجل إلى تل أبيب لتقدير الموقف) هنا إلتقينا بالقيادة الإسرائيلية مجتمعة ، وكان شاغلهم هو مستقبل النقب واحتمال ضمه إلى الأردن . وكان رأيهم كما يلى :

١ - إن الولايات المتحدة لها من إسرائيل صديق ثابت وقوى ، وهو صديق ينتمى إلى الغرب سياسيا وثقافيا ، وقد ساعدته الولايات المتحدة ، وبالتالي فإن هذا الصديق الذى يشعر بالعرفان للتأييد الأمريكى سوف يكون فى المستقبل استثمارا ناجحا .

٢ - إن الدول العربية ضعيفة كلها ثم هى متأرجحة فى سياساتها . وصادقتها للغرب وللولايات المتحدة يصعب إيجاد دليل عليها . وإذا كان هناك دليل فهذا الدليل هو موقف العرب أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهو موقف لم يكن مواليا للغرب .

٣ - إن الولايات المتحدة لا ينبغي لها أن تؤيد أى سياسة من شأنها أن تعطى النقب إلى الأردن . وإذا تورطت الولايات المتحدة فى مثل هذه السياسة فإنها لن تكسب رضاء العرب عنها ، لكنها سوف تؤثر على قوة إسرائيل وتجعل منها دولة صغيرة محشورة تشعر بالمرارة تجاه الولايات المتحدة ."



إن القيادة الإسرائيلية فى إصرارها على ضم النقب كانت ترى أن ضمه للأردن بقرار دولى يستند على تقرير "برنادوت" أمر محتمل . ولكن وجود الجيش المصرى فى النقب أمر واقع تتعين مواجهته وتغييره . وهكذا أعطى "بن جوريون" أوامره بتركيز المجهود العسكرى الإسرائيلى على النقب بقصد احتلاله وإخراج الجيش المصرى منه .

كانت منطقة النقب من الناحية الجغرافية أشبه ما تكون بمثلث مقلسوب ، رأسه إلى أسفل تستند على إيلات فى الجنوب ، وقاعدته إلى أعلى تمتد بضلعين نحو الشمال بين "بيت جبرين" و"المجدل" . وكان الطريق من "بيت جبرين" إلى "المجدل" يرتكز على المحور الإستراتيجى الذى تمثله "الفالوجا" و"عراق المنشية" و"عراق سويدان" . وكانت هذه المنطقة فى مسئولية الكتيبة السادسة مشاة التى يقودها الأميرالاي "السيد طه" وضابط أركان حربه المسئول عن التخطيط والعمليات وهو الصاغ (الرائد) "جمال عبد الناصر" .

كانت الهجمات ضد هذا المحور (محور "عراق سويدان" و"عراق المنشية" و"الفالوجا") قد بدأت مبكرا . وقد احتلت الهجمات عليها حيزا واضحا فى يوميات "دافيد بن جوريون" . وتكررت الإشارات إليها فى هذه اليوميات فى كل صفحة من سجلات تلك الفترة وبغير استثناء :

□ □ ١١ يونيو ١٩٤٨

.....
.....

- أخبار من الجبهات . فشل هجومنا على مركز شرطة عراق سويدان .

..... (صفحة ٣٩٦)

.....

□ □ ٢٥ يونيو ١٩٤٨

.....
.....

- منعت القوات المصرية سفر قافلة كان من المفروض أن تذهب إلى النقيب بموجب قرار الأمم المتحدة الخاص بإمداد مستعمراتنا جنوب الخط المصرى فى النقب .

- عادت القافلة إلى قاعدتها . أبلغنا أن المصريين خرقوا الهدنة بمنعهم للقافلة .
(صفحة ٤٣٤)

□ □ ٤ يوليو ١٩٤٨

- تداولت مع بيجال يادين بشأن خطط الحرب فى المرحلة القادمة . القلاع الطائرة ستقوم بقصف القاهرة ليلا من ارتفاع عشرين ألف قدم ، وبعد ذلك تعود لقصف القنيطرة ودمشق ثم تهبط فى هرتزليا .

- هذه العمليات تساعد فى النقب .

(صفحة ٤٤٣)

□ □ ٢٨ يوليو ١٩٤٨

- تمت هذه الليلة العملية "جيس" فى الجنوب - هجوم على الفالوجا وعراق المنشية - العملية لم تحقق هدفها . قواتنا صدت ومنيبت بخسائر : ٨ قتلى وبعض الجرحى . يقترح شمعون أفيدان شن هجوم آخر هذه الليلة على الفالوجا ولكن باتجاه أكثر انحرافا نحو الشرق . لا أستسيغ هذا الأمر . ليس هذا طريق النقب . سيحاولون مهاجمة الفالوجا مرة أخرى .

(صفحة ٤٨٤)

□ □ ٢ أغسطس ١٩٤٨

.....

.....

- ناحوم ساريح (قائد قوات النقب) حضر إلى . حاول المصريون خلال الأيام العشرة من ٩ - ١٨ يوليو إغلاق النقب بصورة نهائية ، لكنهم لم ينجحوا . لم يقصد المصريون منذ البداية النقب بل البلد كله .

- المصريون هم بلا شك أهم قوة تواجهنا . قوتهم زادت في النقب . يعملون تحت قيادة موحدة لديها خطوط اتصال جيدة . مستوطناتنا في النقب تواجه تعباً وتوتراً كبيراً .

..... (صفحة ٤٨٧)

.....

□ □ ٦ أكتوبر ١٩٤٨

.....

.....

- جلسة الأركان مع قادة الجبهات . عرضت الموقف في الجنوب . ياديين يعترض على إمكان التحرش بالمصريين من دون إشارة الأردن والعراق والسوريين للقتال . إذا فعلنا ذلك نحتاج إلى قوة كبيرة جداً .

- مساء . اتخذنا اليوم في الحكومة أخطر قرار منذ إعلان إقامة الدولة . بعد تداول مستفيض وافقت الحكومة على اقتراحى باختراق النقب بالقوة لتقويض الجبهة المصرية . سوف نقوم بإبلاغ الملك عبد الله أننا سنمتنع عن الاشتباك مع الفيلق العربى ونأمل أن يمتنع هو عن التدخل .

..... (صفحة ٥٦٥)

.....

□ □ ٧ أكتوبر ١٩٤٨

.....

.....

- تداولت وجيكوب دورى وبيجال يادين فى تفصيلات المعركة فى الجنوب :
يجب الضرب فى الجنوب بأقصى مقدار من القوة الممكنة كى ننفذ خلال الأيام
القليلة شيئا مهما . الإجهاز على الجيش المصرى كله .

..... (صفحة ٥٦٦)

.....

□ □ ٨ أكتوبر ١٩٤٨

.....

.....

- وصلت من موسى شرتوك (الموجود فى باريس فى الدورة الاستثنائية لمجلس الأمن)
أربع وثائق بينها مشروع من إياهو ساسون عرضه على المصريين بشأن حلف صداقة
معهم . يريد المصريون ضم القسم الغربى من أرض إسرائيل إلى مصر لهدفين :

١ - فى حالة نشوب نزاع مسلح مع إسرائيل فإنهم يستطيعون الخوض فى المعارك
على تراب أرض إسرائيل لا على ترابهم هم .

٢ - للحيلولة دون ضم النقب إلى شرق الأردن وتحويله إلى قاعدة عسكرية
بريطانية - بحسب كلام "المساعد المصرى" (الوزير المفوض عبد المنعم
مصطفى) الذى يقوم بالاتصال مع ساسون - فإنه تلقى برقية من نائب رئيس
البلاط حسن يوسف طلب فيها منه أن يعرض مشروع إياهو ساسون على
مستشارين عسكريين وسياسيين تابعين للوفد المصرى فى الأمم المتحدة . يستعين
المساعد بثلاثة مستشارين : اثنان عسكريان وواحد سياسى . مصر
تريد النقب مع غزة . تتخوف مصر من قيام دولة يهودية بسبب :
توسع إقليمى - سيطرة اقتصادية - تغلغل الشيوعية .

- أبرقت إلى موسى طالبا وجوب معارضة أى ضم لأى جزء من البلد إلى مصر .
مصر أقوى مملكة فى جوارنا ، ودخولها فى البلد يعرض وجودنا كله للخطر . وافسق
مسئولو وزارة الخارجية على رأبى .

..... (صفحة ٥٦٨)

□□ ١٧ أكتوبر ١٩٤٨

- يبلغوننا من بعد ظهر أمس أن العدو يستقدم تعزيزات من المدافع إلى الفالوجا . وقد
دخلت بضع سيارات شحن إلى عراق المنشية .

- نزل لواء عوييد من الجليل إلى الجنوب هذه الليلة . وسيتم تخصيص كتبتين لعمل
هجومى . ربما ستكون هذه الليلة حاسمة .

- فى الرابعة ذهب مع يعقوب دورى إلى الجبهة . زرنا فى البداية قيادة ييجال
آللون . وذهبنا معا إلى قيادة شمعون أفيدان . ثم توجهنا جميعا إلى قيادة يسحاق ساديه
قائد اللواء الثامن ، وهى فى مزرعة عربية شمال النقب .

- عند بداية الهجوم خسرنا أمام عراق المنشية أربع دبابات هوتشكيس . لم
تنخفض معنويات الكتيبة على الرغم من ذلك . وجه إلى فى كل مكان ذهب إلى سؤا
واحد : كم من الوقت لدينا ؟ ييجال آللون يعتقد أننا بحاجة إلى أسبوعين لتنفيذ مهمتنا
فى الجنوب . ووفقا لروايات الرفاق فإن المعنويات المصرية قد ارتفعت قياسا بالمعارك
السابقة . تخندق المصريون وتحصنوا فى كل مكان فى أفضل صورة . عندهم مدفعية
وفيرة .

..... (صفحة ٥٧٦)

□□ ٦ ديسمبر ١٩٤٨

.....

.....

- جاء الدكتور رالف باناش (الوسيط الدول بعد مقتل برنادوت) تكلم ساعات طويلة مع النقراشى رئيس حكومة مصر .

- ركزت على النقب . شرحت له قيمة النقب كمخرج إلى البحر الأحمر بالنسبة لنا . العرب لديهم من الصحارى ما يكفيهم وهم ليسوا فى حاجة إلى النقب .

- باناش قال بطريقة غير رسمية إنه يتفهم موقفى ويسرره . لكن وضعه كوسيط صعب .

..... (صفحة ٦٥٣)

.....

□□ ٩ ديسمبر ١٩٤٨

.....

.....

- إلياهو ساسون وصل من باريس . بحسب قوله ثمة فرص سانحة للسلام . إن رياض الصلح (رئيس حكومة لبنان - سنى مسلم) مستعد للعمل من أجلنا . ليس للبنان مطالب وتطلعات إقليمية إذ إن عبء الحرب ثقيل عليهم . لكنهم لا يريدون الخروج منها وحدهم ، ولذا كان يريد أن يخرج الجميع . ليس لرياض الصلح أية فرصة للترقى . وصل إلى أعلى منصب يمكن أن يصل إليه مسلم فى لبنان ، وليس له أى أمل خارج لبنان .

- هناك غليان فى سوريا ، وقامت هناك حكومة متشددة . الوضع فى مصر يغلى . الإخوان المسلمون فرض عليهم حل تنظيمهم واعتقل قادتهم ، وكان بعض أفرادهم يقاتلون فى أرض إسرائيل . إذا سقط النقراشى سيقوم الوفد بزعامة النحاس باشا ويعلن أن النقراشى أخفق وعليهم تصحيح الخطأ والتأهب لمواصلة الحرب كما يليق .

- لى عودتى من يافا استأنفت المداولات مع ساسون . تحدثنا عن مصير غزة . طبقا للمنطق الجغرافى يجب أن تكون غزة داخل إسرائيل ، ويمكن منح الملك عبد الله ميناء

حرا هنا . يعتقد ساسون أن مصر تخاف الآن من قوة شرق الأردن العسكرية ، وهي لا تريد أن تكون جارة لها .

- سألته : ألا تخاف مصر من إسرائيل ؟ قال ساسون إن إنجلترا لن تتخلى عن غزة ، وستعطيها لعبد الله - أي لنفسها - لأن السويس ستنتقل إلى مصر بعد بضع سنوات . أبلغه رياض الصلح أن البريطانيين وعدوا الدول العربية بإعطائها كميات من الأسلحة .

- اقترحت على ييجال يادين الاستعداد لطرده المصريين من النقب . ليس هناك بديل لذلك . خولت ساسون معاودة الاتصال بالملك عبد الله .

.....

.....

٧

ساسسون !

" يسرنا أن تكون مذاكرة معكم "

(الملك "عبد الله" في رسالة إلى "دافيد بن جوريون")

كان تداعى الخطا فى فكر "بن جوريون" مترابطا :

- يريد أن يوجه ضربة قاصمة للمصريين ويطردهم من النقب ومن فلسطين كلية .
- ويريد فى سبيل تحقيق ذلك أن يتثبت من موقف الملك "عبد الله" قبل الإقدام على خطوته الكبرى التى توقع أن تنهى الحرب ليس فقط بقيام الدولة فى الجزء المخصص لها وفق قرار التقسيم ، وإنما فيما هو أوسع من ذلك بكثير مما وصل إليه الجيش الإسرائيلى أو يمكن أن يصل إليه .



وبالنسبة لدواعيه إلى توجيه ضربة قاصمة للمصريين ، فقد بدا ذلك من وجهة نظره
مطلوبا بالحاح لعدة أسباب :

١ - مصر كما كانت باستمرار بالنسبة له منذ بداية الحرب ، هى القوة الرئيسية فى الميدان . وصحيح أن جيشها فى فلسطين لم يكن بالحجم المتفق مع قوتها ، لكن استمرار مصر فى ميدان القتال سوف يفرض عليها بالضرورة استعدادا أوسع ، تملك - ولو من الناحية النظرية - أسبابه .

٢ - إن جهود وفده في باريس ، وعلى رأسه "ساسون" ، في الاتصال بالملك "فاروق" وبالحكومة المصرية ، لم تصل إلى النتيجة التي كان يرضاها . فقتوات الجيش المصرى من "المجدل" وحتى "بيت جبرين" لا تزال واقفة فى مواقعها ، والمعارك ضدها فى محور "عراق المنشية" و"عراق سويدان" و"الغالوجا" فشلت كلها ، وبالتالي فإن النقب وهو واحدة من أهم جوائز الحرب فى رأيه ما تزال باقية فى يد مصر . وحينما حاولوا بالدبلوماسية فى باريس أن يعوضوا شجاعة الرجال فى "عراق المنشية" و"عراق سويدان" و"الغالوجا" فإن الموقف المصرى ظل ينظر بارتياح إلى قيام الدولة ، ويشعر بالمرارة من تردى الأوضاع فى فلسطين ، ويتصور - إن خطأ أو صوابا - أن تصحيح ذلك على الجبهة المصرية ممكن . خصوصا وأن النقب لا يزال تحت السيطرة المصرية .

٣ - وكان تقدير "بن جوريون" أنه إذا نجحت ضربته القاصمة فى هزيمة مصر . فإن مصر لن يكون أمامها إلا أن تعقد معاهدة صلح مع إسرائيل . وإذا حدث ذلك فإن بقية الدول العربية سوف تلحق ، بل إن بعضها قد يسبق إذا ما ظهرت إشارة مبكرة .

٤ - وكان الضوء الأحمر الذى أشار قلق "بن جوريون" فى تلك الظروف هو أن مصر أعلنت - عقب اجتماع لمجلس الجامعة العربية - عن إقامة حكومة عربية "لكل عموم فلسطين" . واختارت لها رئيسا هو "أحمد حلمى" باشا . وقام هذا الرئيس بتشكيل وزارة فلسطينية اتخذت من غزة مقرا مؤقتا لها . ومع أن "بن جوريون" كان يدرك هشاشة وضع هذه الحكومة ، إلا أن استمرارها فى غزة مع بقاء الجيش المصرى فى النقب قد يؤدى إلى تحويل الخطوط المتهاوية إلى خطوط متماسكة ، وربما صلبة فى يوم من الأيام .

٥ - وكان "بن جوريون" يدرك أن الوضعين السياسى والعسكرى للدولة اليهودية هما الآن فى ذروتها بسبب التأييد الأمريكى . وقد جرب بنفسه مدى تأييد الرئيس "ترومان" فى الكبير من الأمور وفى صغيرها . فحين اشتمكى له الإسرائيليين من أن الوفد الأمريكى المشارك فى دورة مجلس الأمن الاستثنائية فى باريس يتحدث مع الوفود العربية ، وبينها الوفد المصرى - بلغة لا تظهر فيها حقائق الموقف الجديد - سارع الرئيس "ترومان" فأصدر لوزير خارجيته أمرا رئاسيا نصه :

"من الرئيس إلى وزير الخارجية

إننى أطلب ألا يدلى أعضاء وفدنا فى باريس بأية تصريحات علنية ، وألا يجرؤوا اتصالات مكتومة مع الوفود الأخرى بغير تصريح منى . كما أنى أريد أن تعرض على الموافقة فحوى ما يقولونه علنا أو مباشرة فى اتصالاتهم .

إمضاء

هارى س. ترومان "

٦ - ولم يكن "بن جوريون" أيضا راضيا عن اتصالات تجريها وزارة الخارجية الأمريكية فى نفس الوقت مع الملك "فاروق" . وبصرف النظر عما يمكن أن تنتهى إليه هذه الاتصالات ، فإن "بن جوريون" فى هذه اللحظة لم يكن يريد لقاء مصريا - أمريكا يفتح الباب لمنافسة إسرائيلية - عربية على النفوذ الأمريكى . فهو يريد احتكاره لإسرائيل وحدها .



وفى واقع الأمر فإن الاتصالات الأمريكية مع الملك "فاروق" كانت تدور فى حلقة مفرغة - كما تظهر تقارير السفير الأمريكى فى مصر - وبينها التقرير الوارد فى البرقية رقم ٩٤٨ - ١١ / ب ب ٥١ ، وهى بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٤٨ ، ونصها كما يلى :

"على خلفية اعتقادى :

١ - إن الملك فاروق هو العنصر الفاعل الوحيد فى صنع السياسة المصرية الآن.

٢ - وإن مصر إذا تحركت فى اتجاه سلام فإنها سوف تسحب الدول العربية كلها وراءها .

٣ - وأنه إذا تعذر إيجاد حل لموضوع النقب فإن الحكومة المصرية سوف تسقط بما لذلك من عواقب مأساوية .

على هذه الخلفية فإننى أتشرف بأن أعرض مجمل تصورى لخطواتنا القادمة كما يلى :

- يظهر لى أن الملك "فاروق" واع بالتمقيدات التى يمكن أن تنشأ بسبب موضوع النقب . وهو يريد مخرجا ، واعتقادى أنه مستعد لمفاوضات مباشرة مع الحكومة الإسرائيلية . وأجدنى مستعدا لأن أقترح عليكم تخويلى بإبلاغ جلالتة أن الولايات المتحدة التى ترغب فى السلام مستعدة لتشجيعه فى أى خطوة يخطوها من أجل الوصول إلى تسوية . وسأكون ممتنا إذا تلقيت منكم تعليمات تسمح لى أن أقوم بذلك .

- ولتشجيع الملك أكثر فإننى أقترح بالتوازي مع ما أسلفت أن ندخل فوراً مع الحكومة المصرية فى اتفاقيات من أجل التعاون ، وبالذات فى مجال التعليم طبقا لبرنامج فولبرايت . وإذا ذهب شباب مصريون لدراسة الزراعة والهندسة والإدارة فى الولايات المتحدة ، فهؤلاء لن يخدموا وطنهم فيما بعد فقط ، وإنما سيكونون ركيزة للصدقة بين بلدهم وبين الولايات المتحدة .

- ويمكن بعد ذلك أن نبحت في وقت من الأوقات احتمال تقديم بعض خدمات التدريب في مدارس الجيش الأمريكي للضباط المصريين . وهذا أمر يهتم به الملك فاروق جدا .

- إننى ذهبت إلى مقابلة الأمير محمد على - ابن عم الملك فاروق وولى عهده - . وفى حديث بيننا يوم السبت الماضى أوح على ثلاثة شروط ضرورية هى :
١ - تدويل القدس .

٢ - إخراج بعض اليهود الروس الشيوعيين من دولة إسرائيل لأنهم خطرون عليها وعلى العرب .

٣ - ضمان للحدود فى المنطقة تقترحه الولايات المتحدة وبريطانيا .

وقلت للأمير إنه ليس فى مقدورنا تقديم ضمانات ، وإن الأمم المتحدة هى وحدها التى تملك هذا الحق ، وإذا فشلت فيه فشلنا جميعا . لكنسه يبدو لى أن كل الناس هنا يريدون ختما أمريكيا على أية تسوية .”



كانت تلك هى العناصر التى أخذها "بن جوريون" فى حسابه وهو يفكر ويخطط لضربة قاصمة توجه إلى مصر .

وأما رغبته فى التثبيت من موقف الملك "عبد الله" فقد كان داعيه ظاهرا . ذلك أن "بن جوريون" يخشى أنه عندما تبدأ اشتباكات كبيرة مع مصر فإن رأى العام العربى قد تسهل استثارته . وربما كان فى مقدوره أن يوجه ضغوطا لا يستطيع الملك "عبد الله" أن يقاومها ، وبالتالي يضطر إلى استعمال جيشه لتخفيف الضغط عن مصر . وحتى إذا لم يكن الملك يرغب فى ذلك فإن إسرائيل كانت مطالبة بأن تتحوط لاحتمال أن يدخل الملك بجيشه ، وبهذا يواجه الجيش الإسرائيلى حربا على جبهتين .

وإسرائيل تعرف أن الملك لا يريد أن يصل إلى هذا الوضع ، ويتمين عليها أن تساعدته ليتمكن من الانتظار ، وإذا استطاع "عبد الله" فإن أبسط واجبات الحذر تفرض على القيادة الإسرائيلية أن تحتفظ بقوات احتياطية لمواجهة كل الاحتمالات : سواء نجح الملك أو لم ينجح فى اختبار الانتظار . ومعنى ذلك أن إسرائيل لن تكون مطلقة اليدين فى استخدام كامل قوتها لتوجيه الضربة القاصمة التى تريدها إلا إذا تأكدت بطريقة قاطعة . وهكذا كان تكليف "بن جوريون" لـ"إياهو ساسون" بأن يستأنف اتصالاته مع الملك "عبد الله" .

وكان الملك "عبد الله" بدوره مستعدا . فقد ضايقه هو الآخر إنشاء حكومة وطنية فلسطينية مقرها غزة . ورد على ذلك بالدعوة إلى مؤتمر في أريحا حضره عدد من الموالين له من مدن فلسطين . وهناك جرت مباحثته ملكا على ضفتي الأردن : الشرق الذي كان إمارته الأصلية ، زائدا عليه ما تبقى من فلسطين على الضفة الغربية .

وقد تضايق الملك أن مصر شنت حملة إعلامية واسعة على فكرة مباحثته ملكا عبر الضفتين ، ورأيها أن ضمه للضفة الغربية يعطى لإسرائيل ما تريده من تمزيق فلسطين، بل والدولة العربية المرسومة بقرار التقسيم للعرب فيها .



وقام "ساسون" بخطوته الأولى . وكتب اللواء "عبد الله التل" القائد الأردني لمنطقة القدس :

"في الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة الموافق ١٩٤٨/١٢/١٠ كلمنى رئيس مراقبى الهدنة الدولى هاتفيا ، وقال : إن الكولونيل ديان يريد مقابلتى فى المنطقة الحرام لأمر هام . فتوجهت لمنطقة باب الخليل حيث اتفقنا على الاجتماع . ولما وصلت وجدت ديان ينتظر ومعه أحد المراقبين المعينين لتلك المنطقة . وتقدم ديان وقال إنه يحمل رسالة هامة جدا من شخصية يهودية كبيرة إلى صاحب الجلالة الملك عبد الله . فأخذت الرسالة ووعده بتأمين إيصالها إلى الملك . ثم افترقنا بعد أن أكد لى أهميتها وألا يفتحها إلا جلالة الملك نفسه . ولكنى ما كدت أصل لأقرب نقطة فيها ضوء حتى أحسست بعوامل قوية تدفعنى إلى فسخ الرسالة والاطلاع على ما فيها ، فقد كنت أشك فى سير الأمور وفى نوايا الملك عبد الله . وفضضت الرسالة غير مهال بماقية الأمر ، وأزلت عنها الشمع الأحمر أمام (مرافقى) الرئيس قسيم محمد وقرأتها ."

كانت الرسالة بخط "ساسون" باللغة العربية التى يجيدها . وكان نصها كما يلى .

"مولاي المعظم

إجلالا واحتراما وبعد ،

أرجو أن تكون جلالتم بغاية الصحة أدامها المولى عز وجل عليكم .

سيدى

لقد وصلت اليوم إلى القدس عائدا من باريس لمدة قصيرة جدا للاتصال بجلالتم إذا تفضلتم وأمرتم بذلك ، والتعاون على حل الأمور المعقدة ، والوصول إلى

ما تمنناه جميعا من إحلال السلام فى ربوع هذه البلاد العزيزة على جلالتم وعيلنا. فأرجو جلالتم والحالة هذه أن تتكرموا وترسلوا إلى القدس لمقابلتي والبحث معى أحد الأشخاص الذين تثقون بهم، وأن يكون هذا الشخص مصحوبا بالصدىق شوكت باشا (طبيب الملك عبد الله الخاص ورسوله إلى الإسرائييين فى مرات عديدة). وأن يكون كذلك من المخلصين للقضية المشتركة .

هذا وأرجو أن يأتى هذا الشخص فى أسرع ما يمكن . وإن أمكن غدا السبت حيث أوقاتي قصيرة جدا ومضطر أن أعود إلى باريس فى أسرع ما يمكن . هذا وإنى أتمنى أن تساعدنى الظروف على التشرف بمقابلة جلالتم فى إحدى الفرص السعيدة إن شاء الله . وأرجو أن يكون الشخص الذى سياتى لمقابلتي حاملا الكثير من ملاحظات جلالتم بشأن كافة الأمور لنسترشد بها فى حديثنا . وأطال المولى بقاء جلالتم . آمين .

المخلص

إلياس ساسون^(٧)

القدس الجمعة ١٠/١٢/١٩٤٨

ويستطرد اللواء "عبد الله التل" مستكملا روايته :

"سافرت إلى الشونة مبكرا صبيحة السبت الموافق ١٩٤٨/١٢/١١ . واجتمعت بجلالة الملك الساعة الثامنة تماما . وقدمت له الرسالة بعد أن وضعتها فى مغلف جديد ختمته بالشمع الأحمر . وما إن بدأ الملك قراءتها حتى انبسطت أساريه وتهلل وجهه فرحا ، وأعاد إلى الرسالة لأقرأها . ثم خرج برهة ، وعاد معه الدكتور شوكت الساطى طبيب جلالته ، وطوى الرسالة وقال بالحرف الواحد : "تذهب يا باشا للقدس وتقابل ساسون للتفاهم معه وعبد الله بك (اللواء عبد الله التل نفسه) يساعدك فى الأمور الفنية".

ثم أمر باحضار ورقة بيضاء وبدأ يملئ على الدكتور ما يلى ليبلغه لساسون :

١ - يسرنا أن تكون مذاكرة معكم .

٢ - تعلمون أن أية مذاكرة منفردة إن لم تكن موفقة فهى ستجر متاعب من الناحية العربية ، وبالأخص من الخصوم السياسيين فوق ما تتصورون .

(٧) فى مراسلاته مع الملك "عبد الله" استعمل "إياهو ساسون" الاسم العربى المرادف لـ "إياهو" (أحد أنبياء اليهود) فى اللغة العربية وهو "إلياس" ، ربما يقصد الإيهاء بالقرى .

.....

.....

٣ - قرار مؤتمر أريحا (تتويجه ملكا على شرق الأردن والضفة الغربية)
يجب أن يكون بالغ الاحترام .

وتم اللقاء ، وتكرر مرة ثانية لأن "ساسون" بعد قراءة أولية لرسالة الملك رأى أن
يبحثها مع "بن جوريون" فى تل أبيب .

وفى اللقاء الثانى كان "ساسون" هو الذى يعلى ، والدكتور "شوكت الساطى" هو الذى
يكتب رد "بن جوريون" على رسالة الملك . وكان الرد كما يلى بلسان "ساسون" نقلًا
عن "بن جوريون" :

"تحيات لجلالة الملك من دافيد بن جوريون وموشى شرتوك" .

وتنتهى التحيات ، وتبدأ نقاط الرد :

١ - إذا كان جلالة سيدنا يرغب فى تنفيذ مقررات أريحا فلا اعتراض لنا على
ذلك . ونظن أن من المستحسن أن ينفذها فى أسرع وقت ممكن حتى يضع
خصومه وأصدقائه أمام الأمر الواقع . وللأمر واقع أهمية كبرى عند دول
أوروبا وأمريكا ، وقد جربنا ذلك بأنفسنا .

٢ - فى حالة إقدامه على تنفيذ هذه المقررات نرجوه ألا يتعرض للناحية
اليهودية لا بخير ولا بشر ، ويكتفى بالقول بأنه يقدم على ذلك لإنقاذ
ما يمكن إنقاذه ولإعادة الهدوء والسعادة إلى الشعب العربى الفلسطينى .

٣ - نرجوه فى حالة إقدامه على تنفيذ المقررات ألا يحدد موقفه النهائى من
ناحية مصير القدس لا القديمة ولا الجديدة لأننا نعتقد أنه يجب ترك
مصيرها إلى مباحثات واتفاقات بيننا وبين جلالته مباشرة فى القريب
العاجل . ونعتقد أن هناك حلا يرضيه ويرضينا .

٤ - نصح لسيدنا بإعلان الهدنة الرسمية الطويلة هدنة دائمة . وهذا
يساعد على سحب جيوشه من جميع الجبهات ، واستخدامها فى جهات
أخرى إذا ما اقتضت الحاجة ذلك . وإذا كانت الظروف الحاضرة تحول
دون إعلان هذه الهدنة ، فبالإمكان الاتفاق على ذلك سرا بيننا . وفى
مثل هذه الحالة نؤكد له بأننا لن نتعرض بسوء إلى مراكزه فى جميع
الجبهات ونحترمها كل الاحترام حتى نهاية المباحثات ، حتى ولو طال
الأمر شهورا .

٥ - نحن ننصح لسيدنا أن يعمل بسرعة على سحب القوات العراقية من الحدود ، وإحلال قوات أردنية محلها للمحافظة على الأمن الداخلى فقط وإذا فعل ذلك فإننا نؤكد له بأننا لن نمس هذه الأماكن بسوء حتى نهاية المباحثات . أما إذا بقيت القوات العراقية فى مراكزها ، فنخشى أن نصطدم بها فى يوم من الأيام .

٦ - ننصح لسيدنا أن يسعى جهده لسحب القوات المصرية من جنوب القدس والخليل (منطقة النقب) ليخلص من المتاعب السياسية التى يخلقها وجود هذه القوات فى أى وقت.

٧ - ننصح لسيدنا أن يتجنب بقدر الإمكان وساطة الأجانب لتسوية الأمور بيننا وبينه ، وأن يفضل مثلنا المباحثات المباشرة . فإن هذا فى نظرنا أدهى للذجاج سواء كان من الناحية العسكرية أو السياسية .

٨ - إذا أعرب سيدنا عن موافقته على النقط السبعة السابقة ، فإن فى استطاعتنا أن نؤكد له بأننا سوف نقوم بالدعاية لقرارات أريحا فى جميع أرجاء العالم . ”

ووافق الملك على المقترحات التى بعث بها ”ساسون“ ، وتم ترتيب لقاء بينه وبين ”ساسون“ فى الشونة ، وقد حضره ”صديقنا الأعور“ وهو الوصف الذى كان الملك ”عبد الله“ يطلقه على ”موشى ديان“ .



كان ”بن جوريون“ على ثقة من أن اللحظة المناسبة قد جاءت لتوجيه ضربه القاصمة إلى مصر . وفى حساباته للموقف فقد أضاف الجانب السياسى إلى الجانب العسكرى . وكان تقديره أن مصر فى حالة فوضى تشل قرارها وتجعلها مكشوفة أمام أى ضربة مفاجئة وعنيفة . وقد عند هذه الأسباب فى اجتماع للقيادة أشار فيه إلى التوتر الناشئ بسبب حل جماعة الإخوان المسلمين ، والشكوك المترسبة من إضراب البوليس قبل شهر ، وحالة الإحباط العام التى يعانى منها الجيش المصرى بسبب تعرضه للتفوق الإسرائيلى فى العمليات وفى قوة النيران . ثم الإحساس بالمرارة لدى جماهير الشعب المصرى العامة .

وتستكمل يوميات ”بن جوريون“ بقية القصة :

□□ ٢٢ ديسمبر ١٩٤٨

.....

.....

- في الساعة ١٦:٠٠ (الرابعة بعد الظهر) تبدأ العملية حوريف (التحرير) في النقب . سلاح الجو يهاجم غزة و خان يونس والعريش . سلاح البحرية يقصف غزة و خان يونس . سلاح المشاة سيبدأ غدا صباحا مهاجمة استحكامات خط غزة من أجل التضييل. الهجوم الحقيقي في الجنوب يبدأ يوم الجمعة ٢٤ ديسمبر .

- الجنرال رايلي (كبير مراقبي الهدنة) أبلغ شلواح أن المصريين لن يجروا مفاوضات لهدنة معنا ما دمنا لا ننفذ قرارات مجلس الأمن . أصدرت تعليمات للرد على رايلي بأن الحكومة في هذه الحالة تحتفظ بحرية العمل من أجل الدفاع عن نفسها وتسريع السلام .

..... (صفحة ٦٧١)

.....

□□ الجمعة ٢٤ ديسمبر ١٩٤٨

.....

.....

ذهبت إلى شعبة العمليات لاستجلاء وضع الجبهة ، وقيل لي إن يبجال يادين توجه إلى بئر سبع . خابرت قيادة الجبهة الجنوبية هاتفيا لكي يستوقفوه في الطريق ويقابلني . قلت له إنه لا بد خلال تنفيذ عملية "حوريف" من إخضاع الجيب المصري المحاصر في الفالوجا . لا بد من قصف الفالوجا من دون شفقة إلى أن يستسلموا .

.....

.....

□ □ ٢٦ ديسمبر ١٩٤٨

.....
.....

- بموجب التعليمات حشدت أمام الفالوجا ٨ مدافع هاون عيار ٦ بوصة . و ٨ مدافع هاون عيار ١٢٠ ملم ، و ٤ مدافع ٧٥ ملم ، ومدفع ١٠٥ ملم ، ومدفع ٥٠ ملم مضاد للدبابات ، و ٤ مدافع ٦٥ ملم . إضافة إلى ١٦ مدفع هاون وصلت أمس . ("لماذا أمس فقط؟")

- بدأ القصف . كل الأسلحة التي يملكها اللواء الثالث بقيادة ألكسندروني تعمل . تم قصف الفالوجا من الجو ثلاث مرات .

- الأسطول يواصل العمل . قصفوا غزاة ورفح من البحر . قاموا برحلات استطلاعية حتى بورسعيد .

.....
.....

□ □ الاثنين ٢٧ ديسمبر ١٩٤٨

.....
.....

— في الساعة ١٦ر٠٠ بعد الظهر بلغوني من شعبة العمليات أن العوجة في أيدينا وأن طريق بئر عسلوج العوجة في أيدينا تقريبا ، ويعتقدون أنه سيكون كله في أيدينا عند حلول المساء .

.....
.....

□□ ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨

.....

.....

- يبلغوننا أن عراق المنشية فى أيدينا ، لكن المصريين فى الفالوجا يضغطون . فى العاشرة وعشرين دقيقة أبلغت أن طائراتنا هاجمت الفالوجا قبل ساعة تقريبا .

- حضر شلومو شامير قائد الجبهة الشرقية . هناك تحرشات على جبهته من بعض الوحدات العراقية . قلت له إنهم ملزمون بكبت الغرائز حتى انتهاء العملية فى الجنوب . لن ننجر إلى معارك أخرى خلافا لقرارتنا .

- سقوط الفالوجا عندما يحدث سيحسم مصير غزة .

.....

.....

□□ ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨

.....

.....

- ييجال آللون يبلغنى أن الموقف فى الجنوب طيب . الجيش المصرى مشتت . هناك قوات فى القسيمة لكن تنظيمها يتطلب وقتا طويلا . وفى المنطقة الممتدة من شمال غزة حتى العريش توجد سبع كتائب نظامية منها كتيبة ١٢ ، وهى كتيبة جديدة أحضرت من مصر .

.....

.....

□

صباح يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨ كانت الجبهة المصرية تواجه موقفاً بالغ الصعوبة . فقد واصلت قوة ضاربة من الجيش الإسرائيلي بقيادة "بيجال آلون" زحفها من القسيمة داخلية إلى الحدود المصرية ومتقدمة في اتجاه مطار العريش . وبذلك أصبحت القوات الرئيسية للجيش المصري في قطاع غزة معزولة عن قيادتها وقواتها الاحتياطية في العريش ورفح . ولم يكن الموقف خطيراً فقط ، لكنه كان مهيناً أيضاً لأن "بن جوريون" بدأ يتحدث عن غزو مصر . واستبد القلق بالملك "فاروق" ، فاستدعى السفير الأمريكي إلى لقائه وأبلغه بخطورة الموقف ، وطلب إليه نقل مناشدته إلى الرئيس "ترومان" لكي يتدخل بنفسه في وضع حد لتقدم القوات الإسرائيلية داخل الأراضي المصرية .

ثم استدعى الملك فاروق بعد ذلك سفير بريطانيا "رونالد كامبل" وحمله رسالة إلى رئيس الوزراء "كليمنت أتلي" ووزير خارجيته "إرنست بيغن" . ولم يكد كل من السفير الأمريكي والسفير البريطاني يعود إلى سفارته حتى دعى كلاهما إلى مقابلة رئيس الوزراء ، ثم دعى كلاهما إلى مقابلة الفريق "محمد حيدر" باشا وزير الحربية .

وربما كان أسوأ ما في الموقف أن القيادة المصرية سواء في القصر الملكي أو رئاسة الوزراء أو وزارة الحربية أصبحت شديدة العصبية .

وكانت النقطة الحرجة في لقاء رئيس الوزراء المصري بالسفير البريطاني هي الموقف الذي أفلتت فيه أعصاب رئيس الوزراء فقال للسفير البريطاني بعصبية : "لا بد أن تساعدونا" . وإذا بالسفير البريطاني يقول له : "هل أفهم من ذلك أنكم تريدون إحياء نصوص الدفاع المشترك بمقتضى معاهدة ١٩٣٦ ؟" وتنبه رئيس الوزراء إلى أنه كاد ينزلق إلى محذور ينقض كل منجزات الحركة الوطنية في السنوات الثلاث السابقة .

ومع أن رئيس الوزراء لم يرد على هذا التساؤل فإن السفير البريطاني وجد فرصة متاحة ، فكتب إلى حكومته بما دار بينه وبين رئيس الوزراء لافتاً النظر إلى أنه "بصرف النظر عن كل الاعتبارات الأساسية في المواجهة بين العرب والإسرائيليين ، فإن مصر تلقت درساً عبرته أنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها" .

وكتب رئيس الوزراء البريطاني "أتلي" رسالة شخصية إلى "ترومان" يبلغه بتقرير سفيره في القاهرة ، ويشير له إلى الفرصة المفتوحة التي يمكن استغلالها لتطويع الحركة الوطنية المصرية . وبعثت وزارة الخارجية الأمريكية إلى سفيرها في إسرائيل برقية برقم ١٧٠٥ نصها كما يلي :

"سرى جداً وعاجل"

من وزير الخارجية بالنيابة إلى السفير ماك دونالد في إسرائيل

واشنطن في ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨

يطلب الرئيس ترومان أن تقابل المستر بن جوربون والمستر شرتوك فوراً وتبلغهما أنك تتحدث باسمي ، وأنت مسؤول في إبلاغ هذه الرسالة أيضاً إلى الرئيس وإيزمان إذا وجدت ذلك مفيداً :

١ - لقد قلقت الحكومة الأمريكية لدى تسلم تقارير صحيحة تؤكد أن قوات إسرائيل العسكرية اجتاحت أرضاً مصرية . وتؤكد التقارير أن القوات العسكرية الإسرائيلية لم تكن تقوم بتحركات عفوية ، وإنما كانت تقوم بعملية عسكرية مخطط لها بدقة .

٢ - إن الحكومة البريطانية أبلغتنا أنها تنظر للوضع بقلق شديد . وما لم تنسحب قوات إسرائيل من الأراضي المصرية فيكون على الحكومة البريطانية اتخاذ تدابير من أجل تطبيق التزاماتها بموجب معاهدتها مع مصر سنة ١٩٣٦ . بيد أن الحكومة البريطانية تقول أنها لا تريد أن تخوض في نزاع ضد إسرائيل شريطة ألا تتألم هذه في تازيم الموقف .

٣ - نتذكرون أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الدولة الأولى في العالم التي اعترفت بحكومة إسرائيل المؤقتة والتي تبنت طلبها للانضمام للأمم المتحدة كدولة محبة للسلام .

.....
.....

٤ - إن الانسحاب الفوري للقوات الإسرائيلية من الأراضي المصرية يبدو مطلوباً ودليلاً على النوايا السلمية لحكومة إسرائيل المؤقتة "

وكان آخر شيء يريده "بن جوربون" هو أن يحدث بينه وبين الأمريكيين خلاف . وهكذا عاد من زيارة كان يقوم بها إلى ميادين القتال ليعقد اجتماعاً عاجلاً للحكومة يقابل بعده السفير الأمريكي .

ويكتب "دافيد بن جوربون" في يومياته :

□ □ الجمعة ٣١ ديسمبر ١٩٤٨

.....
.....

- اتصل بى موسى شرتوك . السفير الأمريكى ماكدونالد لديه تعليمات أن يقابلنى فورا فى أى مكان أكون فيه . دعوته إلى هنا . بدأت فلفت نظره إلى لهجة الرسالة المترتبة ، وقللت له إنها تؤلنى . وكان يمكن لبيفن نفسه أن يكتبها بهذه الصيغة . ثم أوضحت له النقاط التالية :

١ - إننا ندين بالشكر للولايات المتحدة على صداقتها وعلى مساعداتها لنا .

٢ - إننا آخر شعب فى العالم يرغب فى انتهاك السلام فى الشرق الأوسط أو فى أى مكان آخر . إننا شعب صغير جدا ولا نستطيع البقاء إلا بالسلام . إن ما نفعله هو دفاع عن النفس .

٣ - لقد أعطيت أوامر بانسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضى المصرية .

- شرح السفير لى أن الولايات المتحدة تحركت بسرعة كى تحول دون أى عمل جدى فى مجلس الأمن ، أو أى عمل قد يفكر البريطانيون فى القيام به خصوصا أنهم كانوا على الأقل سيضطرون لتقديم أسلحة للمصريين إذا كانوا يرغبون بعد ذلك فى مواصلة المفاوضات لترتيبات تحل محل معاهدة سنة ١٩٣٦ .

- أبلغت آللون (قائد العملية فى الجنوب) أن يدمر كل شىء فى العريش قبل أن يتركها ، وأن يواصل تشديد الضغط ضد غزة وضد الجيب فى الفالوجا .

- للمصريين فى رفح نحو مائة قتيل ومائتى جريح ، وهناك نحو ٦٠٠ أسير بينهم نحو ٢٥ ضابطا .

- آللون يطلب يومين للانسحاب ولتدمير كل ما يمكن تدميره فى العريش ولحرق الطرق .

- القوات المحاصرة فى الفالوجا قامت بهجوم مضاد وجرى ضربها بالطائرات .

- لا بد من استعمال أقصى درجات الحزم والقسوة مع الجيش المصرى حتى يتعلم درسا لا ينساه ، ولا يستخف بعده بقوة إسرائيل وقدرتها على سحق أعدائها .

.....

.....

□□ ٦ يناير ١٩٤٩

.....

.....

- تسلمنا أول أمس بيانا أرسل من القاهرة إلى نيويورك بعد ظهر يوم ٤ يناير ،
ووجه إلى مكتب الأمم المتحدة في حيفا ، نصه :

"إذا تم تنفيذ وقف القتال بفاعلية حتى ٥ يناير الساعة ١٤ر٠٠ بتوقيت جرينتش فإن
الحكومة المصرية مستعدة لإصدار تعليمات إلى ممثليها لبدء مفاوضات فورية مع ممثلي
إسرائيل . ستجرى المفاوضات برئاسة الأمم المتحدة .

.....

.....

□□ ٨ يناير ١٩٤٩

.....

.....

- تأملات أمنية فى العام الماضى قمنا بالثورة الكبرى فى تاريخ شعبنا . أسسنا الدولة
العبرية . أقمنا جيش الدفاع الإسرائيلى ، وحررنا النقب والجليل وأعتقنا أراضيهم من
أجل الاستيطان الواسع . أحضرنا أكثر من ١٢٠ر٠٠٠ يهودى مهاجر من المنفى خلال عام
واحد . كسبنا ود أكبر دولتين فى العالم : الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى . وأصبحنا
عنصرا سياسيا فى الشرق الأوسط وفى العالم بأسره .

.....

.....

□□ ١٠ يناير ١٩٤٩

.....

.....

وصلنا إلى إيلات ، وأطل جيشنا على البحر الأحمر .

.....

.....

□□ ١٦ يناير ١٩٤٩

.....

.....

- فى العاشرة مساء خابرنى بيجال يادين . عاد ديان بعد لقاء مع الملك عبد الله .
سيحضر إلى هنا غدا . المعجوز عبد الله يشكو من الإنجليز ويطلب عدم ترك المصريين لا
سمح الله فى غزوة . من المفضل أن نسلمها إلى الشيطان - أن نأخذها نحن .

.....

.....

□□ ٢٩ يناير ١٩٤٩

.....

.....

- الهزيمة العربية كاملة . لكنى أتخوف طوال الوقت من نداءات فى العالم العربى
تدعو إلى إنشاء حركة شبيبة وتدريبها ، وتوحد قيادة الجيوش العربية وتقيم مصانع
للسلاح ، وتطبق عقوبات اقتصادية علينا ، وتلغى الامتيازات التى تمكن الامبريالية من
السيطرة على العرب ، وإنشاء تنظيمات عمالية ، وتعزيز الصناعة والقسيم العصرية ، وفتح
مؤسسات للتعليم العالى ، وإزالة الحدود الجمركية بين البلاد العربية ، وتنظيم دعاية

فعالة فى العالم . هذا هو الطريق الذى يحلم به العرب ، وأنا أتخوف طوال الوقت من أن يقوم زعيم عربى بقيادتهم عليه . إنهم يتجاهلون العقبات الداخلية والخارجية والوقت اللازم للوحدة . والويسل لنا إذا كنا لا نعرف كيف نستغل هذا الوقت لكى ننمو ونتحصن ، ونمتلك مكانة فى العالم ونثبت لقوم من هذا النوع أن طريق العرب إلى الوحدة والحرية والتقدم ليس طريق شن الحرب علينا .

.....

.....

□□ ١٤ يوليو ١٩٤٩

.....

.....

جاء أبا إيبان . لا يرى ضرورة للركض وراء السلام . الهدنة تكفيها . فإذا ركضنا وراء السلام فإن العرب سيطلبون منا ثمنا : حدودا ، أو عودة لاجئين ، أو كليهما .
لننتظر بضعة أعوام .

.....

.....



كان المشروع الصهيونى يعيش لحظة انتصاره ، وكانت خطة تنفيذه سهلة إلى حد ما ، فقد جرت على أرض لم تكن واعية لها ، وإذا وعيت فهي لم تكن قادرة على مواجهتها!

ثم إن الخطة كانت مريحة بغير حد ، فالحركة الصهيونية أخذت بلدا بأرضه ، بموارده الزراعية والصناعية ، العقارية والعمرائية ، وبمراقبه من سوان ومطارات وطرق لم

تتكلف شيئاً غير التحسين والتطوير . علاوة على ذلك فقد أخذت معه نظام إدارة وجهاز حكومة خدما في عصر الخلافة العثمانية ، وأعيد تأهيلهما في عصر الإمبراطورية البريطانية .

أى أن المهاجرين من شرق أوروبا جاءوا إلى الشرق الأوسط فإذا دولة مهيأة بالإنشأة وبالنمو وبالتراكم فى انتظارهم ، وكل ما كان عليهم هو تجهيزها وإعدادها لسدور جديد ، وعصر مختلف .

وبصرف النظر عن الأساطير والعقائد ، فقد كان السلاح هو الذى أكد وحسم . ولم تكن قوة الفكرة وحدها قادرة على دفع موجات الهجرة من شرق أوروبا إلى الشرق الأوسط ، وإنما كانت قوة النار سابقة للهجرة وداعية لها وحامية .

ثم إن السلاح كان هو الذى طرد من الأرض سكانها ، وردع عن الأرض جيرانها ، وأقنع الذين آزرُوا وساندوا مهما كانت أسبابهم بأن الاستثمار فى فكرة إسرائيل نافع لأغراض كثيرة إستراتيجية واقتصادية وسياسية .

وكان الحاجز المطلوب بين مصر وسوريا فى مكانه وبطريقة مؤلمة . وربما أن الملك "عبد الله" عبر عن ذلك كله بصراحة محزنة حين قال أمام "ساسون" و"ديان" : "إن أهل الشمال (سوريا) تبعثروا وأهل الجنوب (مصر) تمرغت جباههم فى التراب" .

وكان حلم "نابليون" القديم قد تحقق . وحلم "المارستون" ، و"لويد جورج" ، و"نستون تشرشل" . وقامت الدولة الحاجزة العازلة . وانقطع العالم العربى إلى نصفين ، وقام بين النصفين جدار يقف مانعا يتصدى لفعل التاريخ ويصد تياراته المتجددة .



الكتاب الثانى

فى ثلاثية "المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل"

"موازين القوة والضعف"

"يا أخوتنا فى الأندلس

لقد كان عليكم أن تصلوا جماعة

عندما عرفتم أن أعداءكم

يتوضأون بالدم قبل أن يجيئوا للقائكم"

[بيت شعر فارسى]

(من نظم سعدى على الأرجح)

" ليس هناك ما هو أخطر - فى السياسة الإقليمية
والدولية - من حالة حرب توقفت دون نهاية
حاسمة ودون توافق بالرضا يستغنى عن السلاح .

فى مثل هذه الحالة يصبح الانفجار واردا فى أى
لحظة ، وحتى دون حاجة إلى أسباب مقنعة ، لأن
الأسباب كامنة داخل الحالة نفسها وفى طبيعتها !"

محمد حسنين هسيكل

فى الكتاب الثانى :

- ١ - دولة بغير حدود .
- ٢ - زلزال السويس .
- ٣ - السلاح تقليدى وغير تقليدى .
- ٤ - أنور السادات .
- ٥ - اللعب فى الوقت الضائع .
- ٦ - يناير ١٩٧٧ وما بعده!
- ٧ - متاهات السلاح .
- ٨ - كامب دافيد وما بعده!

رقم الإيداع ٣٧٥٦ / ٩٦
I.S.B.N. 977 - 09 - 0330 - 2

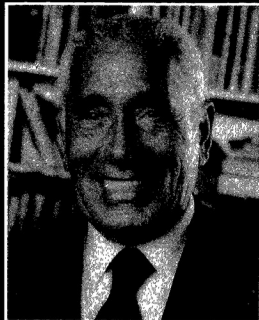
مطابع الشروق

القاهرة: ٨ شارع سيديه المصري - ت ٤٠٢٣٩٩ - فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت: ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٠١)

فجأة، أو حكمة تجلست، أو تنزيلا
 علويا جاء إلى الناس بشرع جديد .
 وكانت ذرائع الانقلاب - (إضافة إلى
 اتهام « الموقف » الأصلي بالجنون،
 والوهم، والمغامرة) هي الدفع بتغير
 الظروف، وكانت الظروف بالفعل تتغير،
 وهي باستمرار - على اتساع الدنيا
 وتواصل العصور - في حالة تغيير
 لايتوقف، وإنما كله في إطار التاريخ
 الإنساني وحركته من عتمة الكهف
 إلى سطح القمر .

ومن المفارقات أن « الآخر » كان أكثر
 وعيا وعلما، فقد ظل في مكانه على
 أرض التاريخ الإنساني - بل والأسطوري
 غالبا - وبقي ثابتا على « مقدساته » وعلى
 « محرماته » . فهي - بعد ادعاء غياب ألفى
 سنة - مازالت : « أرض إسرائيل » ،
 و« شعب الله المختار » ، و« مملكة داود » ،
 و« التلمود » ، و« اورشليم » ، و« يهودا » ،
 و« السامرة » ، و« هيكلم سليمان » ،
 و« حائط المبكى » ، و« التيه » ،
 و« هولوكوست » ، وهاجس الأمن الذى
 لا سبيل إلى طمأنته والشىء الوحيد الذى
 جد بمتغيرات الزمن والظروف هو ماتنا
 قنبلة نووية !

محمد حسنين هيكل



المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل

الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية

إن المعايير اختلفت ابتداء من
 سنة ١٩٧٤ . وعندما جاءت سنة ١٩٩٤
 كانت العجلة قد دارت دورة كاملة .

سقطت موانع التحريم، كما زالت
 دواعى القداسة . لكن وجه الغرابة أن
 مجموعات الحقائق والقيم لم تكن تغيرت ،
 ولا كان سبب الانقلاب نور عقل سطع

دار الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيديبويه الحبرى - رابعة العدوية
 جرب ٣٣ المائور اما - مدينة نصر
 هاتف ٢٦٢٣٣٤٨ - ٢٦٢٣٣٤٨
 فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)